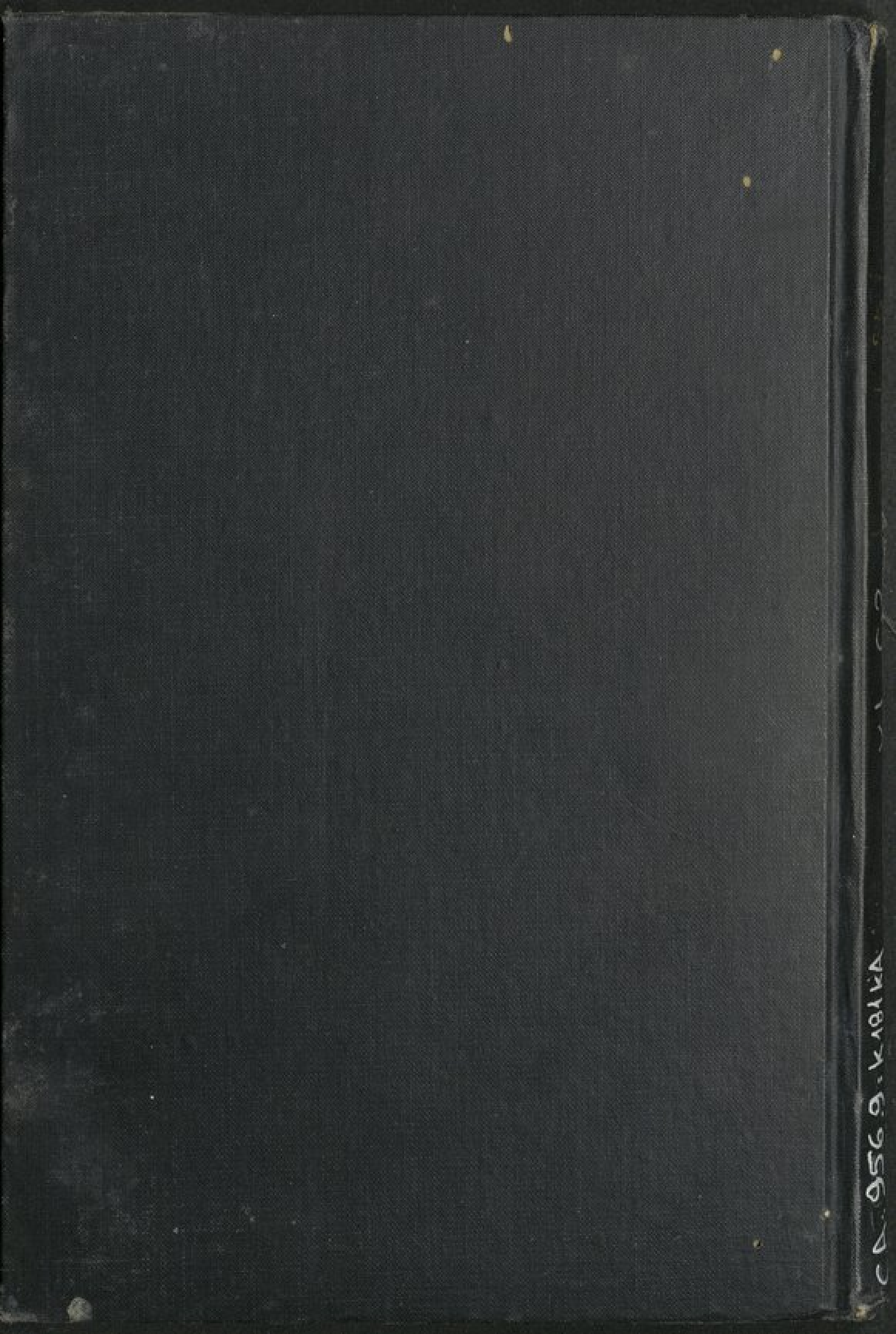


merican University of Beirut
AN UNIVERS OF BE

CA CLOSED AREA
956.9 K181kA V.1 C.2

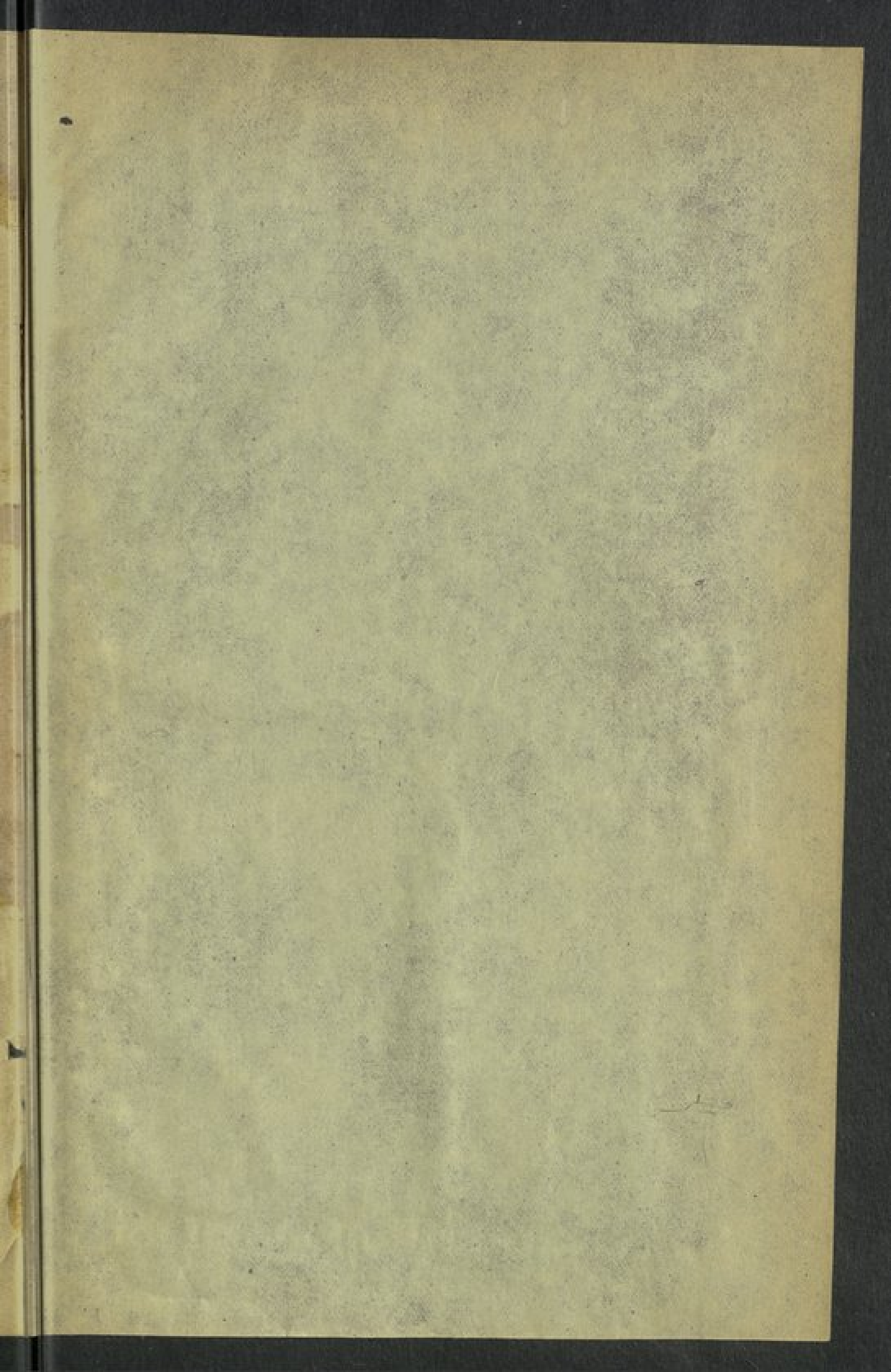
كرم، بطرس بشاره .

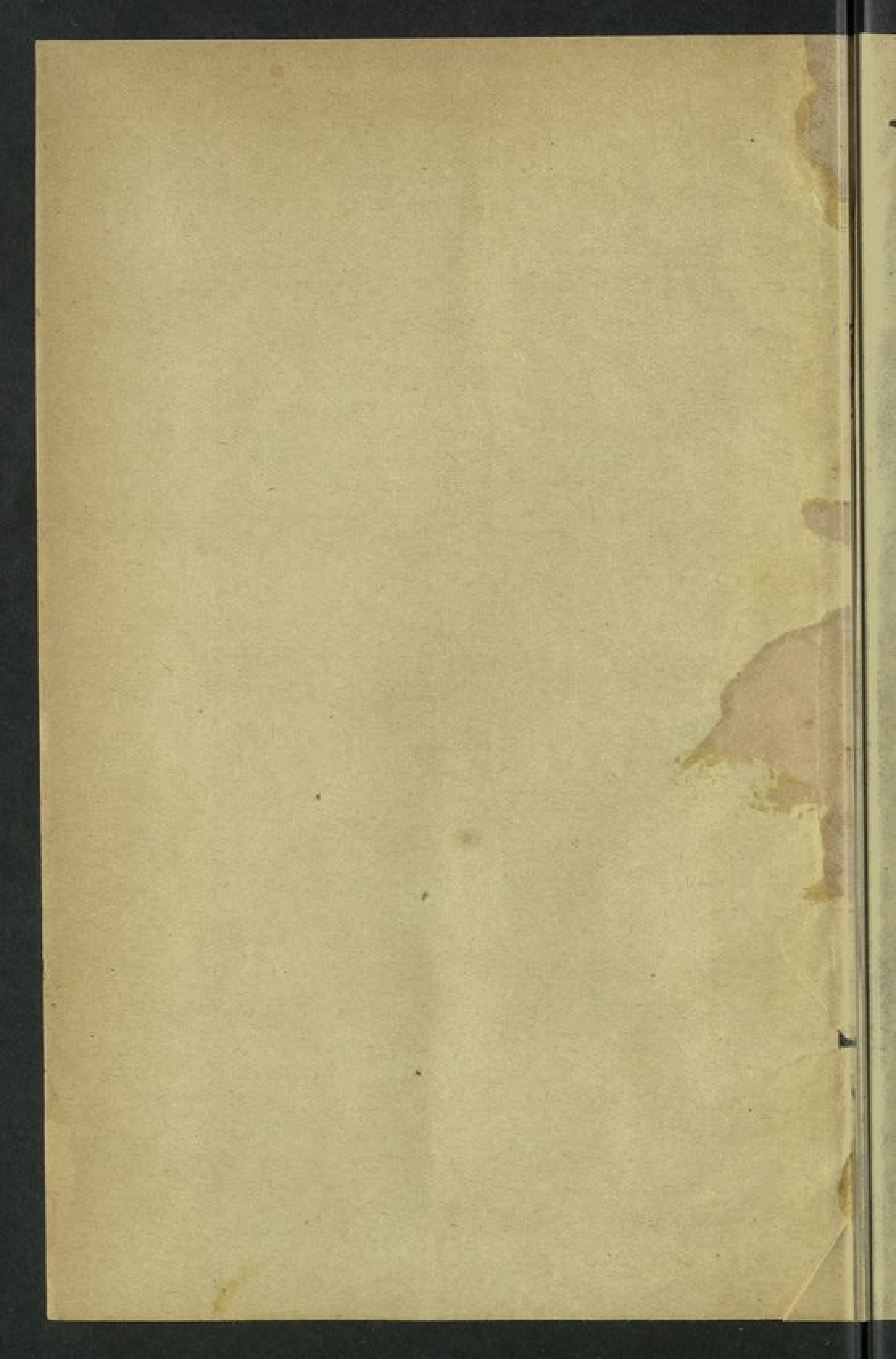
قلائد المرجان في تاريخ شمالي لبنان

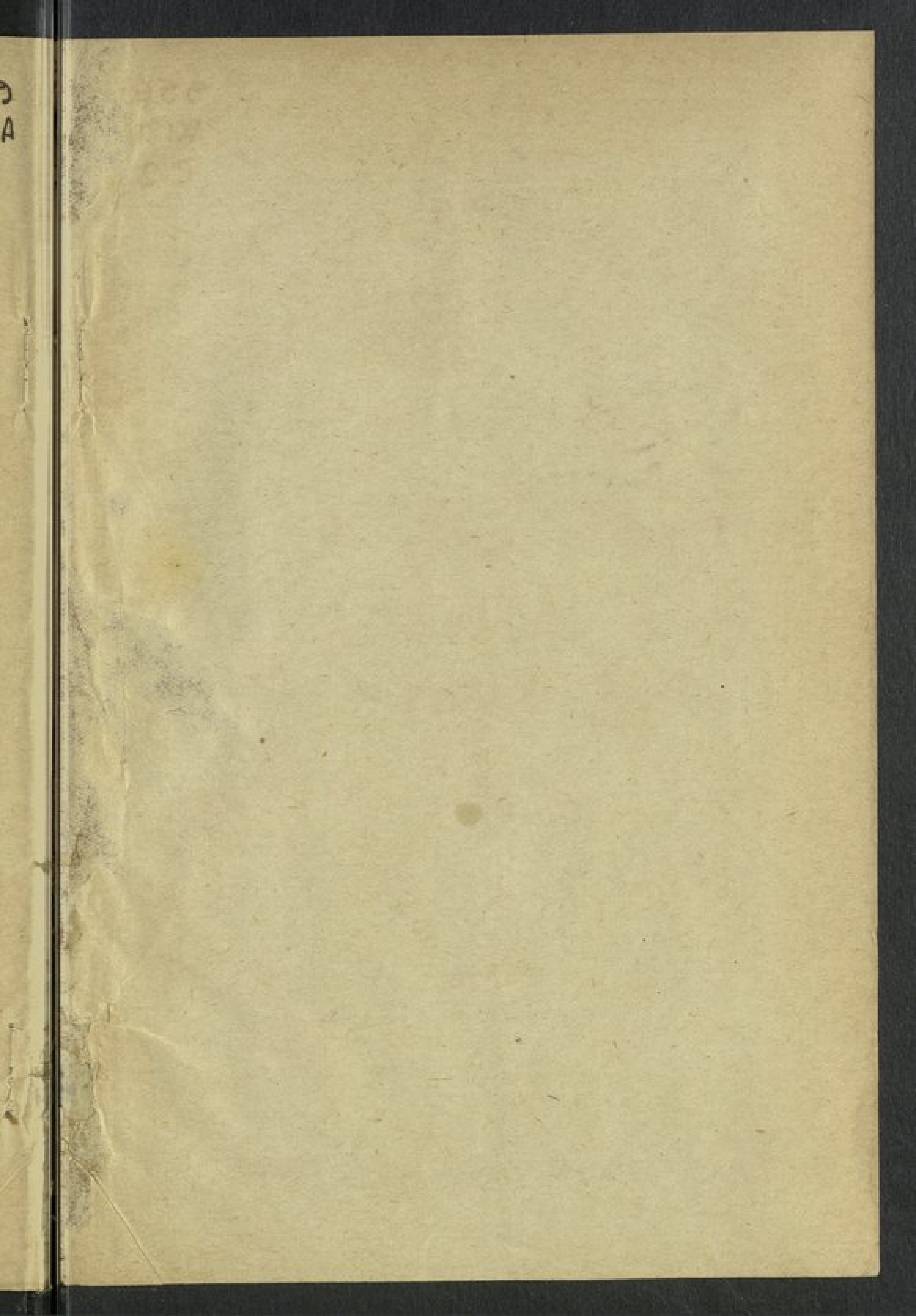
CA:956.9
K181kA
V.1 C.2

closed area

DE 14
JA 17
Jun 5 58
19 APR 1975







CA
956.9
K181kA
v.1 c.2

قلائد المرجان

في

تاريخ شمالي لبنان

وفي الثورات التي انتابت البلاد منذ القدم حتى اليوم

وبحث في الحماية والانتداب

لمؤلفه

بطرس بشاره كرم

—الجزء الاول—

58565

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

طبع في بيروت سنة ١٩٢٩

مطبعة الهدى اللبنانية — بيروت لبنان



ديباجة الكتاب

الحمد لله رب الارض والسماوات • سيد الكائنات والمخلوقات • تبارك سلطانه المطلق على الاوقات • وما العلم الا هبة من هباته الصالحات• اما بعد فان فنّ التاريخ روض زهره بهجة النفوس • وثمره زينة الطروس• وخبره يهب العقول نورا والمستضيء به في احداث حياته يحسن تدبيرا • فيبني له في منازل المجد قصوراً • ويسقيه من رغد الحياة نميراً • ويريه الطريق الى مـا ينتجعه يسوراً • فلا غنى عنه لكبير يرتشد باحكامه • ولا لصغير يمشي على اقدامه • فكل نفس لها بالتاريخ منفعة ظاهرة • وفائدة وافرة •

وقد ثبت ان عظماء الرجال كانوا يقبلون بقلوبهم على الشوءون التاريخية اقبال الظمآن على العذب الزلال• والهيمان على الدعة في وارف الظلال• فان الاسكندر الكبير المكدوني نابغة اليونان كان مشغوفا بالياذة هوميروس يصطفيها في حله وترحاله • وينسج على منوال ملوكها وابطالها في اقواله واعماله متشبهاً بما وُرد فيها عن حكمة نسطور ورئاسة اغاممنون وبأس آخيل ودهاء عولس فكان له ما كان من شأن باذخ وملك عظيم وذكر خالد• ومثله يوليوس قيصر نابغة الرومان فقد كان يكافح القبائل الجرمنية بياض يومه بالحسام والمران• مدوخاً

الاقطار ومسيطراً على البلدان . فاذا القى الليل ستار السواد انصرف الى المرقم والمداد يؤرخ بامانة ما قام به في حومة الجلاد . وليس نابوليون نابغة الفرنسيس الا درة من ذلك العقد الجميل عقد الآخذين عن التاريخ دروس حياتهم فكان كثير الولع بان يتبع المثال الشائق المبتدع ومشى على خطوات المكدوني في فتح الاصقاع وسيادة الشعوب والبقاع . حتى راعت فتوحاته كل ذي صولجان وتألبت عليه الشعوب مع روءسائها ارباب التيجان وضافرهم الدهر الخوان فكان من امره اخيرا ما كان .

وليس متابعة التاريخ شأن عظماء الغرب وحدهم فان عظماء الشرق لهم في هذه المتابعة ما فاح عطره ارجاً . وانبثق فجره منبلجاً . فجاء في تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني ان الشيخ عبد الغفار احد علماء الشام (دمشق) زار بيت سعد العمر فرأى اخاه ظاهرا وساله هل قرأت شيئا من التاريخ . فاجابه نعم . تاريخ الجاهلية والاسلام . قال الشيخ وماذا استحسنته منه . فاجاب : اجمله تواريخ ابي مسلم الخراساني في الشرق « عبدالله الشيعي وابن كيومرته في الغرب » .

ومن تصفح تاريخ ظاهر العمر يجده قد تحدى هوءلاء النوابغ في بنيانه مجده ومسيره في سبيل المعالي على اثره من رجل ذي سعة الى حاكم كبير حتى كادت يده تنشيء مملكة مستقلة في منتصف الاقليم الشامي وذاع اسمه فخطبت وده كاترينا الثانية امبراطورة روسيا نادرة الملوك وجاراها يوسف الثاني قيصر جرمانيا ولكن خروج ابنائه عليه ثغر في اساس بيته وكل مملكة تنقسم على نفسها تسقط

وقد وضعت الحكومات الراقية واجباً على ابنائها الذين تصطفيهم للمسير

بالامة الى امام الوقوف على انباء الشعوب والممالك ودرس اسباب عمران البلدان وبواعث تهدم الدول لما في عظات التاريخ من ايقاظ الهمم وحث العزائم على طلب المعالي واقتباس المتأخر عن المتقدم اسلوبه في عمله الناجح ومسعاه الفالح. فان كتشنر القائد رأى وهو على رأس الجيش الانكليزي الذي اكتسح بلاد الترانسفال (سنة ١٨٩٩ ب : م) ان دهاء دي ويت وبوتا القائدين الترانسفاليين يفت في ساعده . ويحول دون الفوز بمقاصده . فلاذ باسلوب الامبراطور افريليانوس الروماني في حصاره مدينة تدمر حتى تمكن من الاستيلاء عليها (سنة ٢٧٢ ب:م) وقضى على دولة زينب (زنوبيا) ولولا خبرته التاريخية لعاد من تلك الحرب بخفي حنين . فالتاريخ بطل لا يكهم سيفه الصارم . واستاذ مدقق لا تخفى عليه الحقائق وان طمست المعالم واظلها العفاء لسحق العهد المتقادم

وابناء بلادنا لهم من النباهة والذكاء . ما يوضح لهم فوائد التواريخ الحسناء فلا يرون عنها منصرفاً وهم يتحدثون في اسمارهم . ويتناقلون من شهي اخبارهم ولكنّ ألسنة الرواة ليست سواء في تلقين الحقائق بل الثقات في وقائع الايام قلال العدد ضعاف المستند . فتنوقلت الاخبار على غير حقيقتها في كثير من المباحث المنشورة . والفصول المسطورة . حتى دخلت الاساطير بين ما يجب تنزيهه عن الخيال والوقوف فيه عند حد الواقع واضرّت القصص المصطنعة . في صحة الحوادث الواقعة . ولما بدا لي ان اخدم قومي الذي اليه انتمي . ووطني الذي افديه بروحي ودمي . واقف على منفعته مالي ونشاطي وقلمي . بان ابرز الحقيقة التاريخية لمن يحب الوقوف عليها كالشهاب واكشف عن محياها الصبوح النقاب . شمرت عن ساعد الجد والكد . واقدمت على وضع هذا المؤلف ليكون اليفاً لناشئة الغد يبث فيهم روح الصدق والاخلاص ويغرس في نفوسهم

محبة الوطن وينير امامهم سبيل العمل للوصول الى الرقي العمراني على اقوم جادّة واصلح مادّة

ولما كان فحول المؤرخين غاب عنهم ذهولاً او تداهلاً الجلاء عن بعض احداث بلادنا التاريخية على حين لها منزلتها العالية في عالم الحضارة اقحمت نفسي على سد هذه الثلمة وايراد ما بين الاسباب والمسببات من متين اللحمة وبوّبت مباحث كتابي تبويباً واضحاً وعبّدت طرق البحث فيه على ما بدا لي انه ايسر تناولاً واصح اسلوباً . والله المسؤول ان يرشدنا في ما نتوخاه ويجعل الحقيقة منتجعنا في بداءة عملنا ومنتهاه .

=()=

— الفصل الاول —

كيف نبدأ بالتاريخ

كما يوضع الاساس اولاً بعدما يعد له ما هو في حاجة اليه مثل شق الثغر وتهيئة مواد البناء يوضع التاريخ من مهده الاول .

وكما يعمد الباني بداءة بدء على ما ظهر انه اساس اوثق نعمد في التاريخ الى ما هو اسبق الى الخروج من ظلام الجهل الى سناء العلم فان التاريخ المفيد ما ازدان بنور الحضارة الوهاج .

ومن القضايا المسلمة عند علماء التاريخ ان الشرق منبع الحضارة في العصور الخوالي فهو ولا مراء مهد الجنس البشري ومنه امتد الى اقطار المعمور وحمل ابناؤه مشعل الحضارة فطافوا في الارجاء الدانية والقاصية فهم رسل التمدن القديم . بل قيل ان ما يصدق على شعوب الشرق في العصور العريقة في القدم يغلب كله او معظمه على الشعوب الاخرى المنتشرة في بقية الاقطار

والعمران تقدم خطوة خطوة كما تراه اليوم يتقدم فينشأ الشيء بعد الشيء اما عن توالي ما تستثمره العقول مثل المخترعات العلمية او ما تستثمره الايدي العاملة او الثروة الموفورة مثل بناء الاسواق والشوارع الجديدة في المدن

فالانسان في بداءة وجوده كان خلواً من معدات العمران ولا شأن له في علم فالمعادن مجهولة لديه وادوات الصنائع غير خاطرة له ببال يأوي الى حيث يتقي الاذى كالمغاور والكهوف اي ثقوب الارض التي اعدتها الطبيعة من تلقاء ذاتها اما بفعل الطوارىء الطبيعية مثل الزلازل او بتأثير مجاري الماء التي تطغى يوم تمطر السماء وتتجمع وتصدم حجرا فتقلعه او تراباً في صخر فتجترفه

ويصبح الصخر الذي ذهب ما استقر بقربه من التراب كالانف البارز في انوجه فيستطيع الانسان ان يلجأ اليه ليقي جسده .

ولم يكن حينئذ لديه شيء من الادوات ليعالج بها قطع الحجارة وتشييد المباني الجميلة الفخمة ولا في طاقته ان يخترع ما يقيه ضير تلك الطوارىء فحار الموءرخون القدماء في افلاء هاتيك العصور المظلمة ولم يقووا على وصفها وصفاً جلياً مما قذف بهم في هوة المغالط والخلط في التسميات والمجـازفة في الحقائق التاريخية والخروج عن موضوع الى آخر له صلة بمباحث بعيدة عن الاولى فتتيه الافكار في بيداء تتخبط الالباب في تضاعيفها ويتشوش السياق فلا تبقى الروية منصرفة الى النقطة الاولى فضلاً عما يقع لهم من الذهاب الى الاطناب الممل او الاقتصار على الايجاز المخل

وموءرخونا المعاصرون يتجه عليهم لوم اشد مما يتجه على الموءرخين القدماء الذين لم تكن لهم هداية من قبل من اصابوا قسطاً كبيرا من الاتقان فعملوا مقتدين باسلافهم او مختطين سبلا غير معبدة . اما المعاصرون فقد وقفوا على التواريخ الفرنجية التي احسنت ترصيفها حكمة الوضع فاتت بها منتظمة اتم انتظام في اتقان التبويب واتباع الترتيب واستيفاء الفهارس والبيان عن مواقع كل بحث وما فيه من الادلة وهذه الفهارس غزيرة الفائدة جدا فمن يقف عليها يستطيع ان يعرف كل دقيقة من المباحث باقصر وقت حينما يلجأ اليها بعدما كان يصرف اياماً طوالاً مكباً على المطالعة حتى يعثر على ضالته المنشودة. فما بال موءلفينا العصريين يغفلون وضع الفهارس المطولة ولا يعملون بحسن التقسيم ودقة الترتيب ونحو ذلك مما ينجم عنه اقتصاد كبير في وقت المطالع وتشويق الى اقتناء الكتاب ومطالعته

منزلة علم التاريخ

التاريخ ولا ريب اسمى الفنون الادبية وله شأنه الذي لا ينوب عنه علم آخر في تدوين حوادث الايام وتمثيل ما كانت عليه شؤون الامم اولاً وما انتهت اليه اخيراً وتصوير ما ثبت عنها من عادات واخلاق وهمم ناهضة وعزائم واهنة وطموح الى عز وخنوع لدى ذل واعتزاز ببأس وانقماع بجبن وتفضيل حياة الشظف مع سناء المكانة او انقياد الى آمر مع عيش وادع وظل سابغ .

فالمؤرخ الصادق افضل مصور مدقق في جلاء هيأة العصور دون ان تعمل ريشة الاختلاق فيها فعنه يأخذ المؤلفون اقوالهم ومن معينه العذب يستقي الرواة اخبارهم . وباشعة نبراسه تستنير الاجيال المقبلة فيكون عاملا فعالاً في خدمة العمران محذراً من الشوائب محرضاً على الفضائل .

ولنا من هذا ان اصدق التواريخ ما كانت روايته عن شهادة العيان لان العين لا تغش صاحبها ثم ما جاء نقلاً عن ثقة بعيد عن التشيع يأبى له مبدأه ان يؤثر غرض على الحقيقة . فلا يتخذ التزلف خطة تنتهي به الى مأرب في نفسه وان لم تكن على شيء من الواقع

ومما يشترط في نزاهة المؤرخ ان لا يرهق عدواً ولا يجوز على خصم فما هو الا مصور امين فان لم يؤثر الاعتدال في روايته جاء ما عني به على غير وجهه وان لم يمحص آراءه ارتكب التزوير ونسب الى الكذب فلا بدّ للمؤرخ من ان يلجأ الى الروية والنظر في ما يسرده مرة بعد مرّة حتى يلين له متن الرواية السديدة فقد ظل المؤرخ غبون الانكليزي عشرين سنة عاكفاً على العمل في

وضع تاريخه « انحطاط الدولة الرومانية » حتى تسنى له ان يبرزه على ما احب من صحة رواية وحسن رصف مستخرجاً النتائج من مقدماتها .

وقال موتسكيو المشترع الفرنسي المشهور لمن تصفح احد مؤلفاته « في ساعات قليلة طالعت هذا الكتاب فثق انني انفقت عليه وقتاً لم اجتزه الا بعد ان اشتعل رأسي شيباً »

المثال الخالد للمؤرخ الصادق

ويصح لنا ان نتخذ النبي موسى اقدم المؤرخين مثالاً للمؤرخ الصادق فانه اورد اخبار قومه الاسرائيليين بلسان الحقيقة ولم ينكل عن ان يعرض عاداتهم واخلاقهم وآدابهم اهدافاً للنقد والنبي داود في مزاميره اعترف بما صدر منه على غير ما يجب واظهر التوبة عنه ومثله كثير من المؤلفين فانهم وضعوا باقلامهم سيرهم وذكروا حسناتهم وسيئاتهم تجنباً لنشرها بعد الوفاة على غير وجه الاستيفاء كأن تقتصر على المحاسن والمناقب اذا كتبها محب او على المغامز والمآخذ ان نشرها بغيض .

ولفلسفة التاريخ فضل عظيم لانها تمحص الحقائق بكير البحث والتنقيب وتدعم الروايات الصادقة بصحة التعليل ومن روى غلته بزلالها واستنار لبه بسناء مصباحها لا يرى بداً من الاعتراف بان ابن خلدون المغربي الذي اتى بمقدمته المشهورة اساساً شاد عليه تاريخه يعد بعدل فيلسوف المؤرخين لانه انصرف بداءة بدء الى وضع اسس عمرانية وشاد عليها بعدئذ الانباء فلما وقف مؤرخو الفرنجة على مبداه الفلسفي اخذوه عنه وقلدوه في مؤلفاتهم وعد العلم العالي في فن التاريخ حتى اطلق على الفيلسوف سبنسر الانكليزي الشهير اسم

« ابن خلدون المغرب » اعترافاً بان هذا الفيلسوف المتأخر متشبه بالفيلسوف المتقدم او منزلته بين مؤرخي عصره وبحاثهم منزلة من دعي باسمه .

ومع ان ابن خلدون المغربي وضع في مقدمته الاصول التي يجب الاعتصام بها ونهى عن الركون الى ما لا يتوائم معها لم يخلُ ما ادرجه في تاريخه من ان هفا قلمه في مزالق لا تخفى على اللبيب فسبق له في مقدمته انه حذّر منها واقام البينة على انها لا تطابق الحقيقة .

مؤرخو العرب

وفي القرن الاول من الهجرة شرع مؤرخو العرب يضعون كتبهم فكان هدفهم الجلاء عن المغازي والسير مفتتحين الكلام اما من عصر له مساس بالنبوة الاسلامية او منذ بعث النبي او منذ خلفه ابو بكر ومن اقدم مؤرخينا ابو جعفر الطبري من اهل القرن الثالث للهجرة (اي العاشر للميلاد) فقد تعمد ان يروي عن الفتوح في صدر الاسلام وعلى منواله نسج من جاء بعده من رجال التاريخ فانصرفوا الى ضبط تواريخ الفتوح والوقائع وتدويخ البلدان والمعاقل والاستيلاء على الاقطار وتحطيم الدول القديمة ثم توسع الخلف ففاق السلف بتدوين معاجم البلدان وركوب متن السياحات مثل البلاذري والمسعودي وابن الاثير وابي الفداء والنويري والمقريزي والهمذاني والاصبهاني وابن عساكر وياقوت وابن حوقل وابن جبير وابن بطوطة وابن خلكان ومن ضارعهم او جاء على اثرهم ممن اشتغل بالتاريخ العام او اقتصر على فريق من اهل الفضل كالثعالبي الذي وضع يتيمة الدهر في ترجمة ادباء عصره وكمن اختص الاطباء بالكلام عنهم .

وقد تفوق الكثيرون منهم بمتانة التراكيب ودقة التعابير وطلاوة

الديباجة وتحري النقل عن مصادر راهنة مع ذلك لـم يسلم ما اوردوه من المآخذ حتى عدّ على بعضهم هفوات زلت بها افلامهم منهـا اغفالهم ما يجب العناية بتعيينه كسني الولادة والوفاة. ويوم المناداة بولي الامر ملكاًاو يوم بدء الحادثة او تعيين سنتها او تركهم التبويب او ادراجهم الوقائع بغير ترتيب او انصرافهم الى الاسجاع واناقة اللفظ حتى خرجوا في كتبهم عن التاريخ المنشود او توغلهم في عالم الخيال او اختلافهم في ذكر الاسماء والاماكن والوقائع . ولعلّ هذا الاختلاف طرأ عن عدم الاعجام والضبط بادىء بدء .

=«»=

التاريخ والخرافات

دخلت الخرافات في التاريخ عن رغبة واضعيها في التقرب الى اولياء الامور وموافقة ما تخيله قرائحهم لما يود اولئك الاولياء انتشار خـبره بين جماعات الشعوب التي يسيطرون عليها او يجاورونها اما لتعمل الجماعات باوامرهم لان لهم حقاً في سيادة الجماهير لتسلسلهم من اصل متيح ان يتصل بالقوة العلوية من جانب الاب كما نسب هرقل سـيد ابطال اليونان الى رب الارباب زفس وروملس باني روما الى — المريخ — رب القتـال او من جهة الام كما نسب اينياس احد ابناء الاسرة التي كانت تسود في ترواده يوم حاربها اليونانيون تحت امرة اغاممنون الى الزهرة ربة الجمال واخيلوس اعظم ابطال اليونانيين في تلك الحرب الى ثيقيس بنت شيخ البحر احدى ربات الماء كما جاء في الياذةهوميروس الشهيرة .

وليست الخرافات مما تخصص به التاريخ قبل ان تستنير العقول بالمعارف وتنشر الحكمة رواقها وتأخذ الامم بها بل قد وجدت مجالاً فسيحاً والعلم زاهر والعقول راجحة والتاريخ ينطق بكلمته على مسمع في الامم ففي تاريخ اسكندر الكبير المكدوني انه لما افتتح القطر المصري ذهب الى هيكل زفس عمون في جرعاء عمون وكان ذلك المعبد له شأن عظيم عند المصريين فصرّح له كهان المعبد ان إلههم اعلن لهم ان الاسكندر ابنه فقبل المكدوني تلك الفرية لانها اتت على وفق ما يرغب في ان تعتقده الناس به فتذعن له كأنه اشرف من ان يقال انه من سلالة البشر فادعى لاهوته بعدئذ ولم يكتف بان يشيع ذلك الاعتقاد به بين العامة دون الخاصة بل اوجب على الخاصة الاقتناع بصحة ذلك او التظاهر بقبول ذلك . وحدث مرة انه اولم لكبراء دولته وكان في عدادهم القائد اكليتوس الذي انقذه من احد اساورة ملك الفرس في معركة غرانكوس حينما فاجأ هذا القائد اسكندر من ورائه ورفع سيفه فوق رأس المكدوني فاسرع اكليتوس وقطع يده (النهج القويم ص ٢٩١) ففي اثناء الوليمة اخذ احد المتزلفين الى الاسكندر يطرئه حتى انتهى به القول الى الغض من مكانة فيليب ابيه والمجاهرة بانه ابن رب لا ابن انسان فاستاء اكليتوس وردّ على المتزلف فقال ان فيليب كان ملكاً عظيماً اوجد لنفسه وامته مكانة عالية في التاريخ وان اسكندر وجد اساساً متيناً فبنى عليه فلا يحسن به ان ينسى امجاد ابيه اما انه ابن رب فدعوى لا صحة لها ثم التفت الى اسكندر وقال له اتزعم يا اسكندر انك ربٌ او ابن رب وانت تعلم ان يدي الضعيفة هذه صانت حياتك في معركة غرانكوس وانت على وشك ان تقتل فمن اين هبطت عليك الربوبية — فاغتاظ اسكندر غيظاً شديداً وتناول رمحاً وزجه به فارداه

لانه اعلن بصراحة ان ادعاءه بالربوبية لا صحة له ·

وما اجراه في حال الغيظ الشديد وهو ثمل قد ذهبت المدامة بنور عقله اجراه ايضا في صحوه فانه اوجب على الناس ان يسجدوا له كرب فاطاعه بعض اتباعه وابى ذلك بعض المكدونيين واليونانيين لان علمهم كان يصدهم عن ان ينقادوا الى الخرافات ومن هوءلاء الفيلسوف كلسثنيس ابن اخت الفيلسوف ارسطوطاليس مهذب الاسكندر فانه لما اوعز اليه ان يسجد امامه ابى وقال ان السجود للآلهة دون البشر وان اشراك البشر بهذا الغرض الخاص بالالهة يغيظهم فاستاء الاسكندر من قوله وامر فقتل ·

وكان اسكندر ممن لهم بصيرة في العلوم ورغبة في التاريخ وقد لقنه ارسطو الحكمة فآثر الوهم على الحقيقة في سبيل غايته وهي ان ينقاد الناس الى ما يصدره بملء الطاعة كأنه لا يهفو له رأي ولا يخطىء في حكم ولا يعروه ضعف

ولم يكن نيرون الطاغية الشهير باقل تثقيفاً من اسكندر ويقال انه كان من ابرع المغنين وامهر البارعين في الفنون والاداب اللغوية ولم يثنه علمه عن ان يدعي الربوبية لنفسه ولابنته وهي في المهد وكان العلم في عصره قد ارسل اشعته في قاصي الامبراطورية الرومانية فضلا عن دانيها ·

ولو رجعنا الى تاريخ العصور المتأخرة لرأينا الاختلاق يجد له مجالاً حتى في عهد الخلفاء العباسيين فان الاصمعي زعم بحضرة هارون الرشيد ان الشاعر العدناني الذي قال مفاخرا القحطانيين في عهد سابق الخلافة العباسية

اخذنا بآفاق السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالع

انه اراد بالقمرين ابراهيم ونبي المسلمين وبالنجوم الخلفاء العباسيين فقد قبل

الرشيد منه قوله واثابه عليه وقال له انشر هذا في القوم وكأنه غاب عنه انـه يضع ذلك الشاعر بين الاولياء لانه امتدح الخلفاء العباسيين قبل ان يكون لهم وجود واقعي . وذلك الرضى ثمرة معرفته ان الرعية متى لقنت هذا المذهب في كرامة بني العباس تكون اسلس قياداً واوفى طاعة لاسرة الخلافة العباسية

لذلك لا يحسن بالمؤرخ الذي يعمد الى الحقيقة فيثبتها وينشرها والفرية فيفندها ويطرحها ان يقبل قولاً روي دون ان يزنه بميزان العقل فيقبل ما يرى قبوله منطبقاً على نظام العمران ومدارك العصر الذي يروي ما يرويه عنه وينبذ ما لا يقوم الدليل على صحته

فللمؤرخ ان يتوقف عن قبول كل قول يرى ان للشك في صحته سبيلاً ولا يرفع اللوم عنه ان ذلك مما رواه عالم كبير او فيلسوف خطير لان بعض العلماء يقع منهم ان يسري عليهم خداع اما لانهم يرون في رواية يستقونها ما يوافق غاية يودونها او لانهم يعملون في سبيل مرضاة من تصيب تلك الرواية هوى في نفوسهم ففي ترجمة ابي اسحاق ابراهيم ابن هلال المشهور بالصابي رئيس قلم الرسائل في عهد بختيار البديهي الملقب بعز الدولة ان ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة البديهي لما ظفر بعز الدولة واستخلص من يده بغداد جفا كل ذي صلة بابن عمه فكان ابو اسحاق منهم ولما كان هذا نسيج وحده في بلاغةوتاريخ اوعز اليه ان ينشيء كتاباً في آل بويه يعود بنسبهم الى الاكاسرة فلبى الامر بالامتثال واخذ يضع فصول كتابه التاريخي مورداً من نفسهما يتراءى لهوحدث ذات يوم ان احد اصدقائه سأله ماذا تعمل فاجاب انساباً الفقها واباطيل انمقها . فوشى به الى عضد الدولة فامر بطرحه تحت ارجل الفيلة وشفع به فنجا بعدما سلبت نعمته منه . فالصابي روى في جوابه الحقيقة لان ما كان يجيء به لم

يكن له من اساس الا المخيلة ولكنه لم يجد بدا من الاختلاق ليصل الى رضى عضد الدولة صاحب الامر يومئذ . وكان عضد الدولة لا يجهل ان جده سمان ففاز ابوه وعماه بالامر عن طريق الغلبة بالسيف ولكنه رأى ان اشتهاره بهذا النسب يعيبه فآثر ان ينسب الى ملوك الفرس الاقدمين لان ابناء فارس يرون حينئذ طاعته واجبة عليهم ولا يأنف ابناء العرب من الرضى بسلطانه فهو ابن من كانت لهم سيادة عليهم قبل عهد الرسالة الاسلامية وقد اشتهروا بالعدل فقيل عدل كسروي

والتدقيق في الرواية حتى تطمئن اليها النفس قد جشمنا تصفح الكتب العديدة والتروي في نقولها والرجوع الى حال الزمان الذي يقال انها جرت فيه فلذلك يستطيع القارىء ان يثق بان ما نرويه له ثمرة مطالعات عديدة في مصادر كثيرة فاننا لم ندخر شيئاً من العناية حتى نرفع النقاب عن محيا الحقيقة والله المسؤول ان نكون في عملنا على هدى فنخدم التاريخ خدمة الامين الناصح بغير اثناء الى رأي جانح . وحسبنا ذلك ثواباً على العناء وافادة للقراء

=«»=

— الفصل الثاني —

الانسان ألاول مقلد او واضع

ما من ريب في ان الانسان نشاء بدءاً جاهلاً ثم اخذ نور العلم ينبثق له من وراء صفاء ذهنه فاخذ ذلك النور الضئيل يقوى حتى بلغ ما هو عليه الان

اما كيف اخذ النور ينبثق له فهو احد فرضين ٠ الاول ان الحاجة فتقت له الحيلة فجاء عمله على غير مثال تحداه وهذا الغرض يتعذر اقامة البينة عليه ٠ والثاني انه شاهد الحيوان والطائر فاقتدى بهما وكان مقلداً وفي كلا الفرضين لا بدّ من التسليم بان قوة الاستدلال وصحة قياس الشيء على الشيء وجدتا في الانسان من عهده الاول الذي ينسب وجوده اليه

ان كل حيوان منذ ولادته يظهر انه ذو غريزة فمن غير مثال سابق يتناول الطفل ثدي امه والعجل ضرع امه فما من حيوان خلا من الغريزة٠ والانسان مغروز فيه منذ تكوينه كيف يغتذي فانه وهو جنين يتناول من جسد امه ما يبني به جسده فتى تمّ له الزمن الذي ينحدر به من داخل احشائها الى الاستقلال عنها يكون ذلك تطورا في تغذيته ومباءته استعدّ له الاستعداد الكافي حينما كان في احشائها ٠

ويبدأ التقليد معه منذ الصغر فانه يشاهد ابويه يتناولان الطعام فيأخذ يطلب الطعام ويسمعها يتكلمان فيأخذ يتلقى الحروف واحدا واحدا مما يدل على ان ملكة التقليد موجودة في الطفل فبالأولى انها موجودة في البالغ

فالانسان رأى النحل يجمع من الازهار ما يصيره شهدا فتلقى منه ان يجمع

ما يذخره لاولاده وشاهد النمل يحرص على الحبوب ليقتات بها في شتاء سنتـه فاخذ عنه التموين ورأى الارنب يحفر في الارض ليتخذ له ملجأ فيها فحفر في الجبال المنيعة الكهوف ليتقي بها شر الحيوان المفترس او اذية اخيه المعتدي ورأى الطائر يصنع لنفسه ولبيوضه عشاً فجرى على مثاله في ان يوجد لنفسه ولعائلته مستقرا . وهلم جرا كتعلمه النسيج من العنكبوت كما سترى

وقد علل الكثيرون وجود النار بانه رآها لاول مرة مضطرمة في احدى الغابات التي كان يختلف اليها وقد اثارتها الكهربائية المندفعة مع الصاعقة او تراءى له لهيبها من بعيد منبعثا من فوهة بركان فخشي اذيتها الا انه رأى ان النار تأتي بفائدة متى خدمت رغبته فلما تمكن من ان يضرم النار بادارة عصاه بسرعة بعد تركيز طرفها الواحد في ثقب شجرة يابسة حسب نفسه اتى بامر عظيم خطا به خطوة مهمة في سبيل الرقي

واذا تسنى لنا وازيح الستار عن الظلمات الكثيفة المسدولة على حالة الانسان الفطرية الاولى والتي لم يسترشد حتى الان اليها اعظـم البحاثون يترأى لنا خلال اسجافها انه لم يكن لدى الانسان الاول سفن يقطع بها البحار تاجرا او سائحاً ولا يستطيع ان يصنع مركبة لانه لم يقم قبله من اخترع دولاباً او من راض فرساً برياً ولا كان لديه ادوات معدنية اذ ان المعادن كانت مجهولة فلم يتمكن انسان ذاك الزمن البعيد ان يقطع الحجارة ويشيد المباني الجميلة الفخمة ولا ان يكتب كلمة لانه يومئذ كان لم يهتد الى صناعة الكتابة فعاش والحالة هذه بلا كتب ولا مدارس ولا علوم ولا شرائع ولا معابد ولا مستشفيات .

وقد اخذنا على النفس عناء البحث والتنقيب والاستقراء والتمحيص حتى تخرج لمن يتصفح هذا الكتاب سفرا نافعا يهدي المستهدي به الى البواعث التي

ساقت الانسان الى معرفة امور بسيطة من تلك الاشياء وكيف تآلف الناس بعدما وجدوا بتلك الادوات سبيلا الى الاستفادة بها فما لبث تآلفهم ان انشأ منهم شعوباً فأمماً فازدادت خطوات الناس في عالم العمران وهي تتمشى الى ما هو اعلى درجة او درجات في الرقي العمراني وحدث ما حدث من احتكاكات، نشبت في سبيل دفع مغرم او جلب مغنم فكان عن الاحتكاك نزاع على الرئاسة وعن النزاع ان حشد كل شعب لواحد او اكثر ومن فاز بالغلبة خولته القوة ان يكون سيدا مطاعا ثم تعارضت قوى الدول فكـــان بعضها اقوى من البعض الاخر فبطش القوي بالضعيف او لجأ احد العدوين الى ما امده بالقوة ففاز وما برحت الدول منذ ازمنتها القديمة تختلف في القوة كما تختلف في كثير من المبادىء والاراء ووسائل الارتزاق

ان عدنا الى مفتتح عصر البشر بلغنا زمناً لم يكن فيه للانسان ما يدافع بـه عن نفسه سوى يديه فكان ناطقا بالقوة لا ناطقا بالفعل فلا يفهم ولا يفهم ولا يعي شيئاً من اسرار ما حوله ولكن رغبته في الحياة وحاجته الى صيانتها اوجبا عليه ان يعتمد على ذاته ويتعلم كل شيء عن طريق التجريب فكانت في نفسه نزعة الى الاجتهاد وفي قواه البدنية استطاعة على المزاولة وفي قريحته العقلية ميل الى استنباط الحيلة للفوز بما هو محتاج اليه ولما رأى الطائر يحمل بمنقاره الحشيش وخراطين الارض لصغاره ادرك ان الواسطة تعاون على العمل · وما الواسطة الا معين نافع يقوم بواجب المساعدة على مقدار ما فيه من القوة ولا ريب في انه شاهد الخروف والثور والماعز في حال البحث عن الاعشاب للاغتذاء بها فاقتفى اثرها واخذ يتناول ما تنبته الارض عفوا فعرف ان منه ما يلذ طعمه ويستمرأ مذاقه فاقبل على ملاحظته وتمييزه ورأى بعض الحيوانات كيف تحطم الاشجار

او تتسلق عليها لكي تغتذي بجناها فاخذ عنها ذلك وقادته بداهة الفطرة الى اشياء كثيرة الفائدة في صون حياته فعن النمل تلقى كيف يحتفظ بما يدخره من فصل الى فصل فكان ما في الطير والحيوان بالسليقة دروساً للانسان تلقاها بالملاحظة وملكة القياس عليها

ويذهب المؤرخ براستد الامير كاني الى التدليل على صحة هذا الرأي في بداءة وجود اسلافنا الاوائل الى انه لا يزال في بعض ارجاء المعمور قبائل ما برحت حتى الان في عهد خشونة الحياة وتتبع في طرق معيشتها الهمجية التي سبقت عهد الحضارة ويقول ان من اولئك القبائل اهل تسمانيا (١) فان جماعة من سياح الانكليز عثروا عليهم منذ مئة سنة فالفوهم عراة ولا مأوى لهم فهم لا يعرفون كيف ينشئون مأوى من حجر ولا من شجر ويجهلون الصيد كل الجهل حتى لا يعرفون صيد السمك ولم يكن عندهم غنم ولا ماعز ولا بقر ولا خيل ولا كلاب ولا ادنى معرفة بالزرع والانتاج ولا يقتنون آنية من خزف فلا جرار ولا اباريق ولا صحاف ولا معرفة لهم بان النار تشوي الطين فيقسو ويصلح لخدمة الانسان ٠

على ان مادة الاقتباس كانت موجودة فيهم فانهم تعلموا بعض اشياء من اولئك السياح فانهم ولا ريب رأوهم كيف يوقدون النار و كيف يجمعون البقول و كيف يغسلونها ويعدونها لكي يتخذوا منها طعاما و كيف يستدفئون بحرارة النار ٠ فما اقتبسوه ولو كان طفيفاً دفعهم الى تحسين في شؤون حياتهم بل تعلموا كيف يصنعون حراباً خشبية حادة بغير اسنة لانهم يجهلون المعادن وبعدئذ فتقت لهم الحاجة او الحيلة تركيب الحجارة في مكان الاسنة ٠ وبما انهم كانوا يحسنون الرمي استطاعوا ان يقنصوا الوحوش ويصطادوا الطيور ويتخذوا لحومها

طعاماً ٠ ولما اضطرتهم الحاجة الى سلخ جلود الحيوانات عن لحومها فتقت لهم الحيلة اتخاذ السكين من حجر الصوان لانهم رأوه اصلب من الخشب فجعلوا يصطنعونه باخذ قطعة منه بيد والطراق على جانب منها بقطعة آخرى مثلها حتى تطير منها الشظايا شيئاً فشيئاً فترق ٠ وهم يثابرون على هذا العمل حتى يروا ما تمّ من الترقيق كافياً للغاية المنشودة فيستعملون ذلك الحجر وان شئت فقل السكين الحجرى اداة لسلخ جلود الحيوانات وتقطيع لحومها ٠

على انهم مع ما هم عليه من الهمجية ثبت ان لهم مهارة في ان يقشروا لحاء الاشجار ثم يعملونها كالشريط وبعدئذ يحيكون بمهارة آنية لحفظ الماء او لحفظ ثمار الشجر او سلالا يذخرون بها ما يظفرون به من صيد ٠ فنقيس ما كان في خوالي العصور على ما تأكد حدوثه في عهد غير بعيد ٠ وللموءلف المذكور كلام مسهب نكتفي بما اوردناه عنه نقلا وتلخيصاً

=«»=

فائدة — تسمانيا التي ورد ذكرها آنفاً جزيرة صغيرة بجوار قارة استراليا يفصلها عنها مضيق باس ويقول الموءرخون ان عدد سكانها ١٥٠٠٠٠ نسمة

كيف تحضر الانسان

ان البحاث الذين استنطقوا المباني الباقية آثاراً عن العصر الحجري المتأخر تثبت لهم حقيقة وجود اقدم مدن العالم . فأن كل مقبرة دليل قاطع على ان بالقرب منها مدينة او قرية عمد سكانها الاحياء الى احلال من ينتهي اجله في اضرحة اما لان وجود الجثث في البيوت له التأثير على صحة الاحياء او لان ذلك الدفن دليل على احترام المتوفى . وقد كشف لنا الزمان على يد الاثريين الغطاء الذي كان يحجب عن العيون بقايا بعض تلك المدن والقرى والمعاقل والكهوف والاجباب التي دفنتها الطوارىء من زلزال ونقمة عدو و كادت الايام بما يحدث فيها من عوامل متعددة تمحوها . وقد تمكن اهل العلم ان يستوضحوا تلك البقايا فهداهم الامعان في شأنها الى ان المدن كانت في قديم الازمنة تكتنفها الاسوار من اجر في اعلاها — على الارجح — عوارض خشبية عدت جزءاً من تلك الاسوار ومن وراء الاسوار خنادق

وقيام الدليل القاطع على وجود المدن في هذا العصر الحجري بينة لا مرد عليها تنبىء بان سكان المدن كثيرون وعن اجتماع الحشد الكبير في مكان واحد ضرورة التسليم بانهم كانوا يتعاونون في اعمالهم ولا سيما ما يستلزم كثرة الايدي ويعجز الفرد او الجماعة الصغيرة عن اجرائه كنقل الصخر الذي لا يستطيع ان يزحزحه الا قوى مئات او الوف من البشر

ومما لا مرية فيه ان بناء تلك الاسوار العظيمة استلزم ان يكون على العمل زعماء واتباع واحسان ادارة فنقل حجارة ضخمة لبناء ضريح زعيم لا يتم بغير التعاون وان يتولى المشارفة على ذلك النقل ذو رأي وتدبير فيعهد الى كل

عامل بموقفه وبما يديه ولا ريب في ان قيام الجماعات بالعمل وقتاً قد يكون اياما عديدة لا بدّ ان تصحب باعداد الطعام ايضا ولا بدّ ان يلي هذا الاعداد اشخاص منهم من يستورد المادة الغذائية ومنهم من يتولى معالجتها حتى تصير طعاماً ولا بدّ من ان يكون كل من عليه اجراء عمل مما ذكر مسؤولاً فكانت هذه الاعمال جرثومة الحكومة التي اخذت تنتظم اما لدوام الحاجة اليها او لان ثمرتها نالت استحسان اولئك العاملين من رؤساء ومرؤوسين

وفي العصر الحجري المتأخر كان في كل مدينة حكومة مستقلة عن سواها تستولي على مدينة بل كانت المدينة او القرية الواحدة ذات احياء متعددة و كل حي مستقل عن الاخر في سيادته القومية ومتى حدث نزاع بين شخصين من حي واحد تولى النظر في شأنها زعيم ذلك الحي اما متى حدث بين شخصين كل منها من حي خاص فكان في فجوة مكان خاص يجتمع فيه كل من زعماء ذينك الحيين ويحلان الخلاف بالقضاء كما يتراءى لهم انه حق · وعن تلك الحكومات الصغيرة نشأت حكومات امم الارض الكبيرة

وكما اخذ يتدرج في شؤونه الاجتماعية اخذ يتدرج في معـداته للاعمال الصناعية فان مواد الحضارة اخذت كل واحدة منها تستلزم الاخرى وبـدأ الانسان يتدرع الى الاعمال العمرانية بالمعدات التي هي اسهل اليه تناولا فاحدث اولا القدوم والازميل والسكين والمنشار والمسن والمثقب من الحجر الصواني او من الحجر الاصم · ويخطىء من يحسب ان هذه الادوات عديمة الهندام او كليلة المضاء فان التمرين على استعمالها له تأثير كبير في احكام عملها ونجازه في الزمن القصير ودليل ذلك ان احد الصناع الدنمركيين عثر على احد الفؤوس الحجرية التي عثر عليها البحاث المتأخرين واحب تجريبها على غير سبق العادة

في استعمالها فاذا به يقطع خلال عشر ساعات ستاً وعشرين شجرة صنوبر ثخن كل منها ثمانية قراريط ثم شذب غصونها قطعاً صغيرة فكم تكون مهارة من عالج العمل بها مرارا عديدة

فمشى الانسان في الحضارة خطوة اثر خطوة فكان في بدء الامر زارعاً ثم صانعاً ثم تاجرا ثم تشعبت صلاته مع ابناء جلدته فاهتدى الى التدوين بالرمز اولاً ثم بالحرف اخيرا فصار كاتباً وقارئاً ثم حاكماً وسياسياً فمخترعاً حتى انتهت حضارته الى عصرنا الحالي الذي نطلق عليه اسم عصر العلوم وهو في نظر العلم الصحيح الغاية القصوى من رقي الانسان في الحضارة ولكن اطراد الرقي العمراني يرينا ان الانسان لا يزال يرى انه يستطيع ان يوالي الرقي والله ادرى بما سيصل اليه في الغد في مأكله وملبسه ومرقده وانتظام مجالس حكوماته واصول احكامه وحقوق افراده وجماعاته وعلومه المتعددة النتائج والمنازع .

=«»=

الطبيعة تعلم الانسان

مأخوذ عن دائرة المعارف الفرنسية وغيرها

يبدأ الطفل يراقب ما يجري امامه من الحركات من الانسان او من الحيوان او من الطبيعة فيقلد ما يمر به من الاصوات والاحوال المختلفة

روى ابن خلكان (٢ : ٢٧٥) وغيره من المؤرخين ان بطليموس صاحب المجسطي في الفلك عرف الاسطرلاب (كلمة يونانية تعني مقياس الفلك) بالصدفة لانه كان راكباً وبيده كرة فلكية فسقطت منه وداستها دابته فخسفتها فصارت على هيئة الاسطرلاب وكانوا يظنون انها لا ترسم الا في جسم كروي على هيئة الافلاك فعرف بطليموس انه يمكن رسمها في السطح ويكون بنصف دائرة الى غير ذلك مما يدل على ان التدرج الطبيعي ينتج عن الانتباه والمراقبة.

سأل رجل الفيلسوف اسحق نيوتون الانكليزي عن اكتشافاته فاجاب الفيلسوف : « هي ثمرة التأمل الدائم » وعرف بستور مبدأ الاختبار والنقاعيات وتولد الجراثيم « المكروبات » فيها من مراقبته للدباغة التي كانت صناعة والده فانقذ العالم من فتك الامراض العضالة كالكلب والخناق والبثرة الخبيثة والتيفوس البقري وامراض دود الحرير حتى قال هكسلي : « ان اكتشافات بستور تساوي المليارات الخمسة التي دفعتها دولة فرنسا غرامة لالمانية»

ومن اقوال بستور المبنية على اختباراته « يستطيع الانسان ان يمنع تفشي داء السل الذريع بحفظه للقواعد الصحية والوصايا الطبية » وفي القرن التاسع عشر اكتشف الورق المصاص « النشاش » واليك الخبر : نسي احد العملة في

معامل الورق ان يضيف الى المزيج الورقي ما يحتاج اليه من الغراء فحنق منه المدير وامر بطرده ولكنه لاحظ من هذا النسيان ان ذلك الورق يمتص الرطوبة فعرضه للبيع على علاته فكان ذلك بدء اكتشاف عمل الورق المصاص

واخترع المرقب « التلسكوب » من لعب ولد بزجاجات كانت امام عامل نظارات « عوينات » ارشدته اليه وعرف الانفجار الذي غير هيئة العالم بسقوط المطرقة من يد سكورز واتخذ التلقيح « التطعيم بالجدري »واقيا منها لملاحظة ادورد جنر ان النساء الحالبات للابقار لم يجدرن فانتبه ان صديد الجدري دفع عنهن العدوى فجربه سنة ١٧٧٦ وعم استعماله سنة ١٨٠٠

واكتشف سبك المعادن بمراقبة سيلان النحاس والحديد عند احتراق جبل ايد في جزيرة اقريطش (كريت) سنة ١٤٠٠ ق م.

وعرف شربنتاي العصر الجليدي من مشاهدة حجر جليدي ضخم في سوسرة اخبره بعضهم ان الثلج حمله الى ذلك الوادي فلما ذاب الثلج بقي في محله والف امام الفقهاء الشهير ابو حنيفة النعمان كتاب « اللقطة » في الفقه اذ انه كان ماراً يوماً في شارع فرأى منديلا ملقى على الارض فالتفتت اليه امرأة من نافذة بيتها وقالت له « خذه واحفظه » فالف كتابه المشهور

فطن اديسن الكهربائي الاميركي الى اختراع الحاكي « الفنغراف »عجيبة القرن التاسع عشر بمراقبته اهتزاز قلم دقيق كان متصلا بسلك التلفون المتكالم به فادنى منه ورقة وهو يلفظ كلمة «هاللو مرحبا» فاثر فيه ولما اجرى الورقة ثانية امام القلم سمع الكلمة معادة

واهتدى رنتجن الالماني سنة ١٨٩٦ م الى التصوير الباطني المعروف «باشعة رانتجن » من مراقبته ان تعريض زجاجة صورة شمسية « فتغرافية » للنور

الكهربائي اظهر عظام المصور

واكتشف بنيامين الشاري « قضيب الصاعقة » سنة ١٧٧٢ بواسطة الطيارة التي يتلعب بها الاولاد

ارشد صموئيل برون الى طريقة بناء الجسور الطويلة على الانهر بسلاسل حديدية من خيوط العنكبوت التي تعبر عليها من شجرة الى شجرة

واكتشف غاليلو الرقاص بملاحظته قنديلا معلقاً يترجرج في الهواء

واهتدى المركيز ورستر الى قوة البخار بمراقبته لغطاء القدر المتحرك عند فورانها .

ارشد كلفني الى سر الكهربائية بمشاهدته اشلاء الضفدعة تتشنج عندمسها .

وارشد بن الى انحلال النور بالمواشير الزجاجية « الموشور مجسم من بلور تكون قاعدته مثلثة الاضلاع » لما رأى انحلال نور الشمس في فقاقيع الصابون

واكتشف كولمبوس ان الكرة الارضية لن يزال نصفها مجهولا بمراقبته المصوّر « الخارطة » ونقصان الكرة نصفاً آخر اذ ان اليبس والبحر المعروف آنئذ لم يكن كرة . وروى البعض انما جعله يتشبث بنظريته هذه هو مراقبته بعض نباتات اجنبية حملتها الامواج من الشواطىء السحيقة فتنبه الى اكتشاف اميركة نصف العالم الجديد الكثير الفوائد

واكتشف الفيلسوف اسحق نيوتون الانكليزي سر الجاذبية بمراقبته تفاحة ساقطة من الشجرة

واهتدى الراعي الى المغنطيس بجذبه لعنزة عصاه الحديدية (العنزة هي الحديدة في اسفل العصاة او الرمح) فعرف انه يجذب الحديد وبعض المعادن الاخرى وسمي بذلك نسبة الى مغنيسية (مدينة في اسيا الصغرى) حيث

روقب ذلك اولاً

تعلم الفينيقيون صبغ الارجوان الذي تفوقوا به من ملاحظتهم كلباً يأكل محارة « صدفة بحرية » صبغت فمه بذلك اللون الرائع

عرف الانسان فن الصقل لما سقطت قطعة فخار صيني في مزيج قصديري وصقلت .

ولما رأى الانسان دجاجة وطئت طين الصلصال ثم داست السكر اكتشف ان تبييض السكر يتم بالصلصال

من مراقبته حركات الاطيار اكتشف فن الطيران والمناطيد وغيرها

ومن مراقبته الظل اكتشف الانسان الساعات الشمسية اي المزاول

ارشد الانسان الى فن التصوير بالالوان من مشاهدة الطبيعة وزخارفها الربيعية

ولما عرف الزجاج اتخذ المرايا منه واصطنع الاباريق على شكل الاثداء يلبلبها والطاسات على شكل قحوف الجماجم وجوز النارجيل التي كان يستعملها في اول امره

رأى الانسان صورته في الماء ففطن الى طبع مثاله فيه ثم في التجربة اكتشف الوذائل « المرايا المعدنية الصقيلة »

واكتشف الفراء لدفع البرد من انتباهه الى جلود الغنم الصوفية الواقية اياها منه

وبنى السفن على اشكال الطيور المائية اذ رآها تسبح في المياه بحركات معلومة وادارها بسكان «دفة» اشبه بزمك الطائر «منبت ذنبه»

ثم رأى مناسر الطيور ومخالب الوحوش فاتخذ اسلحته الدفاعية على صورها من عيدان فحجر فمعدن كما مر

نظر الانسان الخنزير يحفر الارض بفنطيسته (خطمه المحدد) فاتخذ

المحراث من الخشب ثم الحجر فالحديد فالفولاذ. واستخدم اولا حيوانا واحدا لجره ثم قرن اثنين بالنير لمضاعفة القوة واذا اراد زيادتها قرن اكثر منهما .

ولاحظ اللواقح (اهوية التلقيح) تنقل الطلع من شجرة الى اخرى فنقله هو بذاته كما يفعلون الان بالنخل . فمن هذه الملاحظات اتخذ مبادئاً عرفته فن الزراعة والحراثة والبذر والطمر والتلقيح والابر (التطعيم) فامرعت ارضه لا سيما بالمحراث البخاري وادوات الدياسة والتذريه والطحن والعجن وغيرها .

وارشد المرء الى ان الريـــاح تحرك النباتات والاشجار فتفرق بزورها في الارض ثم رأى البزور لا تنبت الا اذا بللها المطر وتناولتها حرارة الشمس . وشاهد الاطيار تأكل البزور فاكتشف طمر الحبوب في الارض قبل نزول المطر في اواخر الصيف

ولما رأى العنكبوت تستخدم قوائمها عند النسج لتنظيم خيوطها اتخذ للنسج قضبانا كانت مبدأ لاختراع النول. وبتسريح بصره في المروج المدبجة بالازهار الملونة بابدع الالوان اتخذ الرقوم ونحوها فوشاها برودا بديعة الى ان اتقن الخياطة والحياكة على الازياء المتفنن بها حتى يومنا . واخترع تيمونيه المخيطة سنة ١٨٢٩ م وصنع هوف الاميركي اول مخيطة سنة ١٨٤٦ م.

قلد الانسان الهدهد بغطاء الراس وخفاف الحيوانات وحوافرها بغطاء رجليه. ثم اتخذ الشوكة ابرة ولن يزال نبات شائك الى يومنا (ابرة الراعي) لان فيها مسلات من ذلك النوع ثم اتخذ الحرير والكتان لمنسوجاته

راقب الانسان العنكبوت ودود الحرير وسواهما في النسج فاعد الخيوط من الشعر والصوف والوبر وفتلها ونسجها. خلق الانسان عريانا فرأى الاشجار مكسوة باوراقها وازهارها والاطيار بريشها وزغبها والحيوانات بصوفها وشعرها

ووبرها فخصف اوراق الشجر واتخذها كساء ولما صار قناصاً اتخذ جلد الحيوانات والاطيار لباساً

ثم اخترعت الاصوات بمراقبة الحيوانات التي تتعارف بذلك ثم تألفت جملا ولن يزال التحسين في ارتقاء اللغات الى يومنا هذا وهكذا الكتابة فانها كانت في اول عهدها باقامة نصب يدل على الحوادث ثم تبدلت بالنقش في اللبن والحجارة واول ادوارها التصويري ومنه القلم الهيروغليفي المصري والمساري البابلي ثم صورت الحوادث لتعرف من رسومها وقد رمز المصريون بفم وعصفور الى الغناء وبعين على حائط المعبد الى الحضور الالهي وبسيفين متخالفي الوضع كصليب الى الحرب ثم انتقلت الى حروف فتراكيب اصطلح عليها ويعزى ذلك الى مواطنينا الفينيقيين ولن تزال اللغات يتسع نطاقها مجاراة لحاجات المدنية

اغتذى الانسان اولا بالبقول التي احضرتها له الطبيعة ثم تسلق الاشجار واكل ثمارها نيئة ثم لاحظ الحيوان يأكل لحم رفيقه فاهتدى الى اكل اللحم نيئاً ثم رأى الشمس تجففه فأكله قديدا فطبوخاً ولما شاهد مناسر ومخالب وانياب الكواسر والضواري تمزق اللحم اصطنع الخناجر والمدى والسيوف على اشكالها من الخشب والحجارة فطارد الحيوانات وقتلها وأكل لحومها ثم اكتشف نصب الاشراك والاوهاق والشباك بمراقبة صيد العنكبوت للذباب بشبكتها ثم عرف القسي والنبال بمراقبة القنفذ الذي يرمي اشواكه ليدافع عن نفسه فاتقن الصيد ثم دجن الحيوانات ليستكثر من لحومها ثم اهتدى الى طبخ النبات واللحم بعد ان اكتشف النار بمراقبة البراكين او متفجرات المعادن والاحتكاك فاورى نارا بحك خشبتين كما مرّ بك لعلمه ان حك يديه في ايام

البرد يدفئها بايجاد حرارة ثم اهتدى الى الزناد لما كان في طور الظران او العصر الحجري الذي فيه اتخذ ادواته واسلحته من حجارة الصوان لانه بينما كان يكسر بعضها ببعض قدحت نارا ثم اكتشف المعدن واتخذ الزناد من الصوان والفولاذ ثم اكتشف عيدان الكبريت سنة ١٨٣٤ م فاتقن الطبخ وعالجه بالتوابل والمحسنات حتى بلغ فيه غاية التأنق

سكن الانسان اولا العراء ثم لجأ الى محل خاص واضطر الى الاستظلال اما من حرارة القيظ او صبارة البرد فاستذرى بظل الاشجار اذ رأى الاطيار والوحوش تأوي اليها ثم فطن الى اتخاذ الخيام من الشجر من بنائها الاوكار ولن تزال بعض قبائل استرالية الجبلية تتخذ اكواخاً كاعشاش الطيور ولما رأها لا تقيه من المطر في فصل الشتاء احتفر حفرا كالنمل والخلد او آوى الى الكهوف كما تفعل الحيوانات الضارية ثم ابتنى كالمنونو بيوتاً من الطين ثم من الحجارة كقلعة بعلبك الى ان بني برج ايفل في باريس من الحديد

فاتضح من ذلك ان الانتباه والمراقبة كانا مرشدا الانسان في كل ما اكتشف واخترع ·

فما الطبيعة اذن الا المدرسة الكبرى للانسان فلذلك قال برينت : اخرج الى العراء واصغ الى تعاليم الطبيعة · وفي قول عامتنا « العالم مدرسة كبيرة » · لنعم الدليل وما الظواهر الكونية والحوادث البشرية الا مجلدات اعتبار ضخمة يقلب الانسان صفحاتها كل يوم فاذا تدبرها وامعن النظر في نتائجها افلح سعياً ·

اخترع الانسان في فطرته الاولى الاشارات للتعارف لانها مخلوقة فيه طبعاً والتمايدة وكثيراً ما كانت حركات الايدي لغة كثير من القبائل حتى يومنا

والدليل القاطع على ذلك تقسيم العدد الى عقود كالعشرات فما فوق لان اول عقد من الاصابع هو مجموع ما في اليدين وهو عشرة والمائة عشر عشرات الخ.

اللغة والرموز

كل شأن من شؤون العمران بدأ اولاً في ابسط مظهر من مظاهره ثم اخذ يتدرج باتقان على مقتضى الحاجة او حسب الرغبة او ثمرة استنارة القوى المدركة فوصل الى ما وصل اليه .

وقد كان الانسان في العصور الاولى يجد حاجته الى الاستعانة باخيه قليلة ولكن هذه الحاجة اخذت تتزايد حيناً بعد حين فكما اعان سواه اضطر الى ان يستعين بسواه وكما جنى سواه عن معونته فائدة اراد ان يجتني هو فائدة

فقد كان الانسان يقتات بما يظفر به من صيد الحيوان البري او البحري فلو قذف البحر اثناء هياجه سمكة كبيرة تزن ارطالاً ثم ارتد بجزر وتركها على صخر في سيف البحر فمرّ بها احد القوم فجاء بها الى قومه فانه من الممكن ان يوزع اجزاء منها على اهله وجيرانه على شريطة انه يسترد ممن اعطاه جزءاً بمقداره مما يغنمه فقادت الحاجة الى تعيين ذلك الجزء والى اتخاذ رمز يذكر بالجزء المعطى وبما اعطيه

وكان يقتات ايضا باثمار الاشجار نظير الصنوبر والنخل وبعض من هذه الاشجار شامخ ليس في وسع كل واحد ان يتسلق للوصول اليه ومن يتسلق

يعاني من التعب مالا يعانيه من يجمع الثمار المقطوفة ملقاة عن رأس الشجرة فلا بدّ من علامة لمعرفة من يجيء دوره في التسلق او من يستحق من المجتنى نصيب اكبر بالنسبة الى عنائه

وقد اهتدى الانسان الى ان الماء تحت الارض وان الحفر يخرجه فحفر واوجد بئراً فمن حفر بئراً كان احق من سواه بالاستفادة من ذلك الماء ومن يأخذ جرة من تلك البئر يجب عليه ان يؤدي عنها بدلاً فما من شيء تمس الحاجة اليه الا بات مادة تباع وتشرى او سلعة لا يستطاع الحصول عليها بغير مقابل بل لو اشترك رجلان فحفرا بئرا فانهما يضطران متى كان ماء البئر شحيحاً وحاجتهما الى الماء شديدة كأن يكون لكل منهما قطيع من الغنم او الماعز الى ان يعمدا الى اقتسام الماء على وجه المساواة فيملاء هذا جرناً او جرنين لقطيعه ويملأ الآخر مثله ولا يتجاوز واحد منهما عن شيء بمثابة علاوة لئلا يحتاج فيما بعد الى تلك العلاوة فلا بد من اتخاذ رمز على المأخوذ

ويحدث ان تجدب ارض احد الفلاحين وتخصب ارض جاره فيقترض من اجدبت ارضه ممن اخصبت ارضه على انه يعيد اليه المقترض بقدره او بزيادة فيعطيه . فلا بدّ من ان يتخذ كل منهما رمزا يعين ما وقع القرض به ان قمحاً او شعيرا ومقداره قليلا او كثيرا فكل من هذه الاسباب دعت الانسان الى خلق الرموز وتنويعها فيكون رمز الشعير مغايرا رمز القمح ورمز مقدار عشر حفنات مغايرا الرمز عشرين حفنة واذا كان يستعمل آلة للكيالة فلا بدّ من ان تتعدد بالنسبة الى الحجم وان يكون لكل آلة رمز

ولما كان شيخ كل قرية يضطر الى الدفاع عن ابناء قريته فينفق من وقته او من قوته او من وساطته في سبيل مصلحة ابناء القرية كان من الطبيعي ان

يضع على كل فرد من تلك القرية ان يوفيه لقاء ذلك الدفاع كأن يفلح في ارضه بلا مقابل او يؤدي شيئا من الحبوب ولا بد لكل من الشيخ والتابع من الرمز الى ما تم الاتفاق عليه حتى يعرف كل منهما ماله وماعليه

وما هو الان لا يزال عند الشعوب التي ما برحت في درجات الحضارة السفلى انما هو على مثال ما كان عند الشعوب الراقية الان في الحضارة حينما كانت في تلك الدرجات في العصور السابقة ٠

ذكر الدكتور برستد مؤلف العصور القديمة (ص٢٦) انه كان في كل قرية مصرية منذ ستة او سبعة الاف سنة شيخ او زعيم يسيطر على الترع التي تروى منها الاراضي في ناحيته فكان على كل فلاح ان يؤدي للزعيم حصة معينة معلومة من غلة الحنطة والكتان والا فالزعيم يقطع عنه الماء الضروري لارواء ارضه ويجبره على تأدية المطلوب بلا رحمة ولا امهال وهذا هو اقدم انـواع الضرائب ٠ فاضطر الفلاح بسبب هذه المعاملة ان يرسم على جدار بيته المطين صورة ساذجة لمكيال الحنطة وخطوطاً معلومة للدلالة على كمية المكاييل التي اداها من سنة الى اخرى

وقد اغفل هذا المؤلف تعليل سبب وضع تلك الضريبة على الاراضي فلعل ذلك الشيخ شق مجرى الماء الى الترعة فهو يتقاضى عن ذلك العمل او لعل صاحب السيادة على الاقليم وضع ضريبة على ارض تلك القرية واوجب على الشيخ تأديتها فالشيخ يجمع من ابناء القرية تلك الضريبة سهاما ٠ او لعل الشيخ يتعهد لابناء قريته ان يضمن لهم سلامة مواسمهم فلا يقدم لص على سرقة حقل احدهم الا استرد المسروق او غزا جيرانهم ارضهم فيقف في وجه الغزي ويصدهم وهذا العمل المهم الذي ربما اودى بحياته لا يؤديه بغير مقابل فانه

يتعرض لوقوع الغرم عليه فلا بدّ له من طلب الغنم لقاءه

وبدأت الكتابة رموزا واصطلاحات من عصور قديمة فكانت بداءة تصويرا لمفاد لا تصويرا لكلمات اي ان الرمز يوءدي معنى معيناً اما التعبير عن هذا المعنى فتعدد من ذلك لو رسم رجل يلطم يداً بيد وامامه حقل فيه سنابل وقد وقع عليها رجل من الجراد فان مفاد هذا الرمز ان الموسم ضاع على صاحب الحقل الاسيف . واما اللفظ فيصح ان يكون داهم الجراد الزرع فعاث فيه وغادر صاحبه حزيناً او تقطعت نفس الزارع حسرات لما رأى زرعه غنيمة للجراد . او نكبة الفلاح باتلاف الجراد زرعه صيرته كمداً

واقدم الرموز كما اقر علماء الاثار الرموز المصرية المسماة بالحروف الهيروغليفية وهي في الاصل رسوم صور لحيوانات او لازهار او مصنوعات وقد قال برستد ان تلك العلامات التي تشكلت منها الكتابة المصرية ست مئة علامة بعضها كان يقتصر على حرف واحد وبعضها كان يشمل حرفين . فاسم الرغيف في اللغة المصرية تا فوضع له رسما على شكله ولما كانت الالف في تا حركة صار رسم الرغيف كناية عن حرف التاء وحده

وهكذا رسم المصري ٢٤ شكلا لاربعة وعشرين حرفاً من حروف لغته . كما سترى في الجزء الثالث من هذا الموءلف

وما من ريب ان رسم الكلمات كان بان يأتي الحرف تلو الحرف دون ان يقع فاصل بينها فكلمة بحر مثلا يأتي رسمها برسم الباء ثم برسم الحاء ثم برسم الراء كما سترى

ثم نشأ عنه حرف آخر اسمه « الهيراتيك » وهذا هو الذي شاع استعماله وبه كانت تجري الكتابات العادية وسترى رسمين من الجمل المكتوبة بالحروف

الهيروغليفية والهيراتيكية

اما البابليون فانهم ابتدعوا رمزا على اسلوب اخر يدعى الحرف المسماري كان يطبع على اللبنة الطرية بواسطة قصبة ذات رأس مربع كالـ" ٠ فحين الكتابة يأخذ الكاتب بيده القصبة (القلم) باستقامة واللبنة بيده الاخرى ويطبع على اللبنة ولان اللبنة مائلة كان كل خط عليها اعرض عند الطرف الواحد مما عند الطرف الاخر فيأتي الخط على هيئة مثلثات او اسافين ٠ وكل صورة او علامة تتألف من عدد من هذه الخطوط الاسفينية ويقال ان هـــذه الرسوم يبلغ عددها خمس مئة رسم (تاريخ برستد ص ١٤٨) لذلك صارت قراءتها من المطاليب العسيرة جداً وقد اهتدى روبنصن الى قراءتها

=()=

اللغة الهيروغليفية

كان الشعب المصري في نحو اربعة الاف سنة قبل المسيح شعباً متمدناً ٠ وكانت الهيروغليفية لغة كهنتهم فاخفاها هؤلاء عن الشعب وظلت مجهولة سحابة اجيال طوال الى ان ازاح الستار عن وجهها شمبوليون الفرنسي سـنة ١٨٢٢م بقراءة حجر رشيد الذي كان في متحف باريس وهو عامود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني وبامعان النظر بذلك الاثر التاريخي العظيم تحقق ان تلك الاقلام الثلاثة بمعنى واحد فعارضها ومحص قراءة الحروف

الهيروغليفية ووضع لها روابط وقواعد وضوابط والف معجم « قاموس » لها٠ ولكن الموت عاجله قبل اتمامه فانجزه ابنه غوسطاف

وقد درست اللغة الهيروغليفية في القطر المصري نحو سنة ١٨٧٠ وهي لغة صورية فاذا ارادوا التعبير عن القوة مثلا رسموا اسدا برأس انسان ٠ وعن الانتحار رسموا رجلا يضرب رأسه بفأس او عن الامانة صوروا جثة انسان برأس كلب او عن الصدق رسموا ريشة طاووس او عن الابدية رسموا دائرة او عن البر بالوالدين صوروا كركياً او عن العقوق بهما رسموا سمك الحيات او عن الصوت الطيب رسموا عصفورا وفم انسان والخ٠

واهاب بماريت باشا الفرنسي الى البحث في اثار مصر ما رآه في متحف بولون (فرنسة) وهو تابوت مصري عليه كتابة هيروغليفية قديمة ونقل ذلك التابوت الى المدينة الفرنسية المذكورة من مصر سنة ١٨٣٧

فلما جاء ماريت المذكور مصر مع لجنة البحث الانكليزية كثر ولعه بالبحث في آثارها فاسس المتحف المصري في بولاق واكتشف كثيرا من اثارها الرائعة ولا سيما هيكل سيرابيون مدفن الاله ايس ٠ والكرنك وسقارة وتمثال ابي الهول ٠ ثم خلف ماريت باشا العلامة الفرنسي مسبرو فدرس تلك الحقائق ووضع كتاباً مطولا في (تاريخ شعوب المشرق القديم) واكتشف سنة ١٨٨٣ مقابر وكتابات واثار بديعة وبقي التنقيب متواصلا الى ان اكتشفت اثار تل العمارنة قرب المنية في الصعيد سنة ١٨٨٨ وهي مكتبة من الاجر عليها كتابات بابلية نقل ثمانون منها الى المتحف البريطاني وستون الى المتحف المصري ومائة وثمانون الى المتحف البرليني وخطوطها مسمارية تحوي سجلات الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتها في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس الرابع وفيها ذكر مدن قديمة سورية

مثل عكا وصيدونا (صيدا) وصوري (صور) وبيروتا (بيروت) وجبلة جبيل وارواد ودمسقا (دمشق) وقطنا (وهي بهذا الاسم قرب الشام) واميا (ويرجح انها اميون في لبنان) ونخاسة (ولا يعلم موقعها الان) وقيل ان فيها كثيرا من الاعلام اللبنانية مثل شكا والبترون وجونيه في لبنان الشمالي وشتوره ومكسة في لبنان المجوف (البقاع)

واكتشف الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ قرب الاقصر عند ثيبة حجرا عليه كتابة هيروغليفية معناها (ان النيل لم يفض ماؤه سبع سنوات)

المتحف المصري غني بهذه الاثار وعلى درج نهر الكلب بعض آثارهم وكلها تبين دياناتهم وعاداتهم · وتمدنهم وفتوحهم ·

في القرن الخمسين قبل المسيح تأسست اول حكومة نظامية وقبلها كان الشعب المصري مقسم الى قبائل تحت سلطة الكهنة ومما لا ريب فيه ان وادي النيل كان مهد القوانين الادارية والاحكام المدنية والنظامات العسكرية بل مهد العلوم والاداب والمعارف والشرائع والمكاتب ·

=«»=

العاديات ومنزلتها في التاريخ

ارقى علم عكف على تأصيل قواعده بنو الانسان في كل عصر ومصر علم الشريعة لان الحضارة لا ينمو لها غرس الا متى كان التآلف ناشرا اعلامه ولا تآلف الا ان يحرز كل ذي حق حقه مطمئناً الى انه ثابت له لا يخرجه من يده الا حق آصل من حقه وتعيين وجوه الحقوق ودرجاتها وتقديم الراجح على المرجوح وما هو اصل وما هو فرع ومقدار امتداد كل حق وعقوبة من يتجاوز عليه هو الشرع او الشريعة ويسمى علم الحقوق ايضا

والشريعة رافقت الانسان منذ نشأته وكلما زاد رقياً زاد هذا العلم توسعاً وتفرعاً وكان مقياسا للعلوم التي يستلزمها العمران فما يصح في الشريعة يصح في العلوم الاخرى حينما يراد اقامة الدليل على امر ما ايجاباً له او نفياً لوجوده.

وفي الشريعة نصاب الشهادة اثنان ولا خروج عن هذا الاساس الا في قضايا معدودة يكون اطمئنان الضمير الى الشاهد الواحد كافياً لاصدار الحكم كما لو شهد رجل على نفسه انه قتل او سرق ولم يكن هنالك مدعى عليه آخر

وهذا هو شأن التاريخ يطلب في كل قضية لاثبات صحتها شاهدين الشاهد الواحد ما روته صحف التاريخ المدونة في شأنها والاخر شاهد الاثار القديمة التي عاصرت تلك القضية وهذا الشاهد يعد اوثق من الشاهد الاخر اذا جاء على وجه الصحة فانه قد يقع الخلل فيه من جهة الخطأ في تعيين وقته . ومثال ذلك ان ينسب الاثر الى زمن سابق للزمان الذي وجد فيه فقد حدث ان بعض الماهرين في صناعة الزجاج سبك مواعين من زجاج وعليها خط باحرف قديمة تعلن انها من الادوات التي تخصصت للملك العادل الايوبي وعين سنتها على

وفق التاريخ الذي كان فيه ذلك الملك وليا للامر ثم حفر في الارض واخفاها مقدار عشر سنوات ثم اخرجها وزعم انها من الاثار القديمة وباعها من احد تجار الاثار القديمة بمبلغ طائل ·

لذلك وضع العلماء الاثريون علماً للآثار القديمة دعوه علم العاديات نسبة الى عاد احد روءساء القبائل العربية البائدة وقد سبق للعرب ان يطلقوا اسم عادي على كل شيء ذهب زمانه ولم يعرف صاحبه قال قيس بن سعد بن عبادة الانصاري :

اردت لكيما يعلم الناس انه ‏ ‏ سراويل قيس والانام شهود
وكي لا يقولوا غاب سعد وهذه ‏ ‏ سراويل عادي نمته ثمود

روى صاحب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ان قيصر الروم بعث الى معاوية رجلا طوالا وقال له أله نظير في شعبك فارسل معاوية وراء قيس المذكور وكان طوالاً (اي مفرطاً في الطول) وساءله ان يواقف الرومي ليتبين من منهما اعلى قامة فابى قيس والقى سرواله وقال ليلبس سراويلي فيظهر من منا امد قامة فلما لبس الرومي سراويل قيس وصل الى ثندوته فظهر قيس اطول فقال البيتين المذكورين · ومراده بعادي الرجل القديم العهد

فالآثار اي العاديات افاضت لعلماء التاريخ تحقيقات لم يكن لهم سبيل الى الوقوف عليها بوسيلة اخرى وكشفت حقائق كان العلماء لا يعرفونها من ذي قبل لان كتاب التواريخ لم يرووها او رووها ولم تحفظ العصور كتبهم

فالعاديات اثبتت ان بعض الصناعات التي نحسبها مما اهتدى اليه الانسان في العصور المتأخرة كان له اساس او مثال في العصور المتقدمة فمن طب الاسنان العصري الذي اخذ يصوغ الاسنان الصناعية من ذهب وفضة ومعادن اخرى

كان عند القدماء معروفاً بدليل ان المحنطات المصرية تشهد شهادة لا مرد لها بان الاسنان كانت يومئذ تسبك من الذهب او قطع من العاج (سن الفيل) قطعة تعمل على مثال السن وتربط بسلك ذهبي وتوضع في الفم مكان السن التي آفت فقلعت . كما شهدت الخواتم التي في اصابع المحنطات ان ارباب صناعة الحلية عرفوا كيف يتخذون الحجارة الكريمة كاليشب والزبرجد والفيروز والعقيق والزمزد والياقوت فصوصاً . بل شهد ما دفن مع المحنطات انهم كانوا يعرفون البر (الحنطة) فقد وجد في بعض المدافن بر زرع فنما وجاء بغلال

وهذه الاثار القديمة اثبتت ان ابنــاء فينيقيا حملتهم سفائنهم الى الجانبين الشرقي والغربي من جنوبي قارة اوربا فحملوا بضائعهم الى اغريقيــا (بلاد اليونان) وايطاليا والنمسا واسبانيا واستقروا في شمالي افريقيا في الاقليم المسمى بقرطاجة المدعو اليوم تونس وكانت لهم جوالي بلغت من القوة مبلغــاً عظيماً فنشرت الحضارة ورفعت المباني ونقلت الحبوب والتحف من مكان الى آخر .

وكل اثر تمكن ارباب العاديات من تعيين زمنه ونسبته الى الامة التي صنعته يعد شاهداً غير مدفوع ينقض كل دعوى تعارضه ولو صدرت من ذي علم غزير او خبرة ناضجة

واذا جاء التناقض بين شاهدين عاديين فلا بد من التوفيق بينهما او يكون احدهما مما اختلقته مخيلة بعض الذين يذهبون الى رأي فانشأ قطعة عادية ودفنها ثم استخرجها او اخطأ في تعيين زمنها فان بعض المنقبين في اثــار مصر عثر على عادية حسب ان زمنها يمتد الى ما وراء عشرين الف سنة فلما فحصها احد الثقات المتخصصين بالعاديات وجدها مما صنع في عهد محمد علي باشا جد الاسرة المالكة في مصر الان اي منذ مئة او مئة وعشرين سنة

والاندفاع في التاريخ الى العصور العريقة في القدم مصدره ان للدين صلة بالقدامة فان الالوهة من شأنها ان تستمد لها من توغل العهود في الوجود مجالاً رحباً لتسلسل الارباب اباً عن جد حتى يصح التعدد في صفوف المؤلهين فان قصر الوقت لا يتيح هذا التسلسل

فتاريخ كل امة يتواءم مع معتقداتها وهذه المعتقدات لم يذهبوا اليها اعتباطاً بل جاءت عن المؤثرات التي رافقتها فكان لها ان تستولي على عقولهم ولكل ارض مميزات فهذه المميزات اوجدت المؤثرات وعن المؤثرات نشأت الديانات فكل من رآه ذا سلطان عليه دان بالعبودية له اما حباً به واستمداداً لعطفه عليه او خوفاً من نقمته وتجنباً لاستيائه

فمصر مثلاً حياة سكانها بخصوبة ارضها ولا خصوبة الا بان يروي النيل ثراها فان نضب امحلت التربة وعن المحل المجاعة فالموت فلذلك لاذ المصريون بعبادة النيل وعدوه الرب المحيي والمميت وقربوا له القرابين حتى كانوا يطرحون كل عام فتاة استعطافاً له واستمدادا لفيضانه

ولما وجدوا فيضان النيل لا يكفي لتجود ارضهم بالنتاج ولا غنى عن شق الثرى لطرح البذار في اعماق التربة وان هذا الشق يتم بالمحراث مشدودا على ثورين تصوروا في الثور مقدرة ربانية فالهوه وانشأوا له عبادة حتى تظل رعايته محيطة بهم عاملة مع رعاية النيل في سبيل بقائهم وهناء معيشتهم ولو كانت ارضهم في غير حاجة الى النيل ليجود لهم بمائه لما رفعوا اليه عبادة ولا عرفوه رباً ولما سخوا بفتاة يقدمونها كل عام ضحية ولما خنعوا امام العجل آبيس

اما الكلدانيون فكانت ارضهم كما يظهر خصيبة جدا فاستقرت بها الوحوش واخذ قويها يبطش بضعيفها فاقتبسوا منها احراز الغذاء عن طريق البطش فلذلك

ألهوا القوة البدنية ولما كانت الوحوش الضارية متفاوتة في القوة وكل منها يفتك بشلة كثرت عندهم الالهة ولعل قيام نمرود الكوشي هنالك واستخدامه القوة في اخضاع الناس لمشيئته فولي امرهم مرغمين على طاعته اثر على عقول رعيته في حياته فعدوا القوة الوهية والقوي رباً لا مهرب من طاعته ولعله عدّ الهاً بعد وفاته فباتت العبادة عندهم لكل ذي قوة

ولما كانت القوة تستلزم الحيلة حتى يتسنى للقوي ان يفوز بغرة من الضعيف فيبطش به وراُوا سباع الارض تغتنم نهزة الليل حتى تقع الوحوش الضعيفة في قبضتها وكان للكواكب اثرها في الجلاء للاهتداء الى الظباء والاوعال وامثالها فلا تحسن الفرار عدوا النجوم آلهة عليا تدين لها الوحوش وهي الهة دنيا فنشأت عند الكلدانيين عبادة الكواكب وعدوا الشمس كبرى الالهات لانها اشد نورا من السيارات والنجوم

والفينيقيون لم يخرجوا عن متابعة جيرانهم في العبادة من باب الاحتياج الى جلب معونة او دفع اذية فقد عبدوا ادونيس وما ادونيس على زعمهم الا شاب جميل بطش به اله غار منه لانه سبى بحسنه فؤاد ربة كانت حبيبة للاله الاكبر وهذا الاعتقاد يدلنا على ان الفينيقيين من اسبق الامم الى الشعور بتأثير الجمال الجسدي ولعل ذلك ثمرة جودة تربتهم فكانوا يقتاتون بما ينمو في الحقول من بقول ويرون الحيوانات يبطش قويها بضعيفها فألهوا القوة وحبب اليهم جمال الطبيعة ورخاء العيش جمال الجسد فكانوا اسبق الامم الى تأليه الجمال واقامة الهيا كل له

ومن المعلوم ان كل شيء وجد له اصل لا بدّ من ان يقوم واحد او اكثر على صيانة ذلك الاصل واستثماره على وفق ما يراه مناسباً لمصلحته فلما وجد

للدين اساس قام على حياطته من هم الكهان وهؤلاء وجدوا ان يستغلوا الدين على وفق رغائبهم الخاصة فنشأت الطقوس والعبادات واخذت الكهانة على عاتقها سياسة الامم في سلم وحرب والتسلط على عقولها في خصب وجدب وصار كل جيل يزيد عن الجيل الذي سبقه في عداد الالهة واعمال وقصص ما حدث وما يحدث منها وبات الكاهن ان عرض عليه مشكل يستلزم حلاً يعود به الى الرب الذي يزعم انه نجيه ويخلو بنفسه فان كانت مخيلته ضيقة زعم ان ربه ناجاه بكلمات قليلة متقطعة يوردها ثم يشرحها على ما يحسن عنده ان يكون مفادها ويجعل ذلك المفاد قضاء ربانياً وان كانت مخيلته واسعة النطاق اختلق رواية عن رب او ارباب وجاء بحادث ضاف ويصدر به حكماً ممن ألهتهم مخيلته ينطق بما يوافق مشيئته ٠ ومن الطبع ان هذه الروايات يعود بها الى عهد تقادم فكانت اختلاقات الكهان تفسح في مدى وجود الالهة والناس و كلما رحل قوم من مكان الى آخر كانوا يستجدون آلهة لكل ارض او يستجد الكهان آلهة تناجيهم وتقيمهم في محارس خدمتهم

ولما وجد العمران اشعة شمسه في البقعة الارامية التي يعد لبنان رجاً من ارجائها كان المأهول منه ما جاور السهول لان كلأه انمى وفاكهة اشجاره اكثر وهو احب الى الطير والحيوان الضعيف وهما من مواد غذاء الانسان القديم واضف على ذلك اسماك البحر فكان بدء العمران في الشطوط وما يدانيها واما الصرود واعالي القنن فقد لاذ بها الناس بعدئذ اما فرارا من حكم جائر او تسترا من الوقوع في قبضة الحكومة اثر ارتكاب جريمة لا تصفح عنها ثم طاب المقام للاجئين ووجدوا من عذوبة الماء وجودة الهواء وقوة البنية ما سهل عليهم التغلب على قساوة الهواء

وما استنتجه البحاث في الاثار القديمة يتضمن ان الذين عمروا البقعة الارامية كانوا من سلائل متعددة والاستدلال على ذلك اما من ان في الالوان والعادات تغايرا او في العادات والطقوس اختلافاً او في اساليب المعيشة ومناهج التآلف تبايناً فكل نحلة وفدت الى البقعة الارامية تبعت بداءة بدء ما كانت عليه في موطنها الاول

والمشهور عن السلائل التي اقبلت الى القطعة الارامية فتبوأت في ارجائها ان الفينيقيين اقبلوا من الخليج العجمي فاستوت بهم سفنهم على شط البحر الرومي (المسمى في عرفنا بالمتوسط ويدعوه آخرون بالابيض) وكانوا رجال سفن وقد امتدوا على مدى فسيح ويقال ان منهم الصيدونيين والصوريين وسكان عكاء واقبل آخرون يدعون العرقيين فاناخوا في المكان المدعو بتل عرقة وهو الى الشمال

وتاريخ العصر الحالي مرتبط بتاريخ العصور التي تقدمته ارتباط الشجرة الضخمة الأرومة الباسقة الاغصان في الاوج بالحبة التي القيت بداءة بدء في الثرى فعلاها التراب وسقاها السحاب فاخذت تنمو مرسلة اعراقها في جوف الارض رافعة هامتها الى ما فوق الثرى فاذا بها غرسا توالى نموا فصار شجرة تدرجت رويدا رويدا حتى صارت على ما هي عليه اخيرا

فكل مؤرخ يريد ان يأتي باحكامه التاريخية ورواياته عمن يؤرخ حضارتهم يحتاج الى ان يعود الى العصور القديمة ويقرر عنها تقريراً يعتقد انه جاء به على الحقائق الراهنة بدون تحيز ويجعل تقريره توطئة للدخول في ابواب البحث التي تعمد ان يطرق اليها او دفعته الحقائق التي اوصله اليها اجتهاده الى ان يقف تلقاءها

وقد ثبت عندي وانا ابحث في الاحداث التاريخية في شمالي لبنان انه ما من مندوحة لي من ان ادرس بادىء بدء العصور القديمة فاتخذ منها تمهيدا للكلام عن العصور المتأخرة فعكفت على تصفح ما كتب عن تلك العصور وما وصلت اليه ايدي المنقبين عن عادياتها فكان طريق بحثي وعراً جدا تجشمت في متابعته مشاق تنوء بها الهمم ولكن المثل القائل — دون الشهد ابر النحل — كان يعيد الي بعد الكلال نشاطاً وبعد السكون نهوضاً وهون على ان اغامر فلا اعود الا والحقيقة كعرق الزيتون تبشرني بان سفينة بحثي رست على يبس

وقد اضطررت ان التمس الحقيقة من موءلفات علماء اوربا واميركا لانهم اعطوا تلك العصور ما تستحقها من العناية واستنطقوا العاديات عنها ودونوا بعناية تامة ما انبأتهم به فكانوا المرجع الذي لا بد من الائتمام بهديه . اما موءرخو بلادنا فانهم ذهلوا او تذاهلوا عن البحث في تلك العصور القديمة واغفلوا الوقوف لدى اثارها الرائعة وكأنهم لم يعرفوا الوسيلة التي يستنطقون بها اولئك الشهود العدول الذين لا يقولون باطلاً ولا يعرفون زيغاً عن محجة الواقع التاريخي

وقد ارتأت طائفة من الباحثين ان اهم اسباب تنكب موءرخينا عن الأخذ بما تمليه العاديات عن عصورها ميل المتطرفين من اخواننا المسلمين الى عد كل ما سبق عهد صاحب الرسالة الاسلامية ما يجب التنكب عن العناية بشأنه كأنه مختص بعالم لارباط له بعالمنا الحاضر فلا يجدر بنا ان نأبه له كثيرا وهذا مبدا لا يصح عند المنصفين لانه يلقي غشاء مظلما على تاريخ اصول الشعوب التي اعتنقت الاسلام فلا يستطاع فهمه ولا تتعين منزلته في الحضارة . وما من

ريب في ان التاريخ خادم امين للعمران وان العمران سبق عهد الرسالة الاسلامية فكان سناوه ساطعا عند امم الغرب كاليونان والرومان وامم الشرق كالهنود والفرس واذا كانت معرفتنا بعمران امم الغرب اوفى من المامنا بامم الشرق فلأن احتكاكنا بالغربيين اعظم من احتكاكنا بالشرقيين والمعرفة ثمرة الاحتكاك الطويل

ومهما كانت التطورات التي طرأت على احوال الشرق بعد ظهور صاحب الرسالة الاسلامية فما لا ريب فيه ان اسس عمران الشعوب ومبدأ الحكومة المسيطرة على الرعية واصول الشريعة التي يجب على الشعب ان يوفق عمله بمقتضاها وتمشي على سننها — كل هذه وكثير غيرها من العلوم الرياضية كالحساب والفلك مما هي من ملابسات حياة الحضارة الشرقية مما سبق التمدن الاسلامي وانضم اليه بل كان العامل الاولي في رقيه انما هو متحدر من ازمان قديمة سبقت ظهور الاسلام ولكن كل عصر لاحق يؤثر على ما يتناوله تأثيرا عظيما او ضئيلا وهذا ما حدث ايضاً في العهد الاسلامي فوقع تعديل طفيف فليست الحضارة بالخلق الجديد بوجود الديانة الجديدة

وصفوة القول انه ما من سبيل الى الوقوف على تاريخ الشرق الادنى منذ ظهور الديانة الاسلامية وامتدادها في الحجاز فالاقطار التي تتاخمها ما لم تنجل حقائق تاريخ تلك الاقطار قبل نشأة العهد الاسلامي وتتعين تعييناً واضحاً وذلك لان تاريخ كل شعب يحوي في نفسه وحدة من وحدات سلالة البشر او يستقل بنفسه كحلقة من حلقات سلسلة تاريخ المعمور

وتلك الاحول التي تمتد في تربة التاريخ العمراني امتداد الاعراق في جوف الارض قد اعجزت العوادي التي استخدمتها رغائب دينية او سياسية عن

ان تقتلها فان دماء الذين اوجبت عليهم القوة القاهرة ان يدينوا بطاعة سلطان الفراعنة وملوك بابل واشور والحثيين وامراء الحكومة في سوريا واقطاب الفلسطينيين لا تزال تجري في عروق الشعوب الذين ما برحوا يقيمون في تلك الاقاليم التي كانت دول تلك الاقيال العظام تسيطر عليها وتضع شريعة واجبة الخضوع لهم

=○=

العصور القديمة

ان الباحث في احداث شمالي لبنان التاريخية لا مندوحة له عن ان يبدأ بدرس في العصور القديمة يجعله تمهيداً لما يؤلفه لانني على ما رأيت بالاستقراء والتنقيب ان لشمالي لبنان علاقة وثيقة بتلك العصور وقد تجشمت في هذا السبيل مشقات لا توصف في البحث في ما خلفه لنا علماء اوربا ودونوه في مؤلفاتهم النفيسة ٠ لان مؤرخي البلاد قد ذهلوا او تناهلوا عن البحث في تلك العصور وآثارها الرائعة ٠ وارتأت طائفة من الباحثين ان من اهم تلك الاسباب هو انه يميل المتطرفون من اخواننا الاسلام الى حسبان كل ما سبق مجيء النبي محمد كانه مختص بعالم آخر غير عالمنا الحاضر فلا يستحق ان يؤبه له كثيرا ولا يخفى ان ذلك قاتل لفهم تاريخ الشعوب الاسلامية فهما صحيحاً لان العمران والحضارة لم يبتدئا من عصر النبي ٠ ومهما كانت التغيرات التي طرأت على احوال الشرق بعد ظهور النبي فان اسس الهيئة وفكرة الحكومة الاساسية واصول الشريعة — جميع هذه وكثير غيرها من مظاهر الحضارة الشرقية قد دخلت

التمدن الاسلامي متحدرة من ازمان قديمة سبقت ظهور الاسلام بعد تعديل طفيف طرأ عليها فالحضارة ليست خلقاً جديدا وجد بوجود الديانة الجديدة. وبالاختصار لا يمكن فهم تاريخ الشرق الادنى منذ ظهور الاسلام فهماً حقيقياً ما لم يرتكز ذلك على فهم تاريخ البلدان التي نشأت قبل زمان النبي فهماً جيداً لان تاريخ كل شعب من شعوب الارض هو وحدة او حلقة من سلسلة تاريخ السلالة البشرية .

وليس من دعامة تفضل علم الاثار في تحقيق التواريخ وتصحيح الاخبار واقرار الحوادث في نصابها بل ليس من ذريعة تسمو على التدقيق والبحث في اسباب انحطاط الامم وارتقائها وما فاجأ الكون من الفواجع والكوارث التي ارهقت المجتمع الانساني وما عقبها من عوامل الوثبة بعد الرقدة والترقي بعد الانحطاط .

اما مؤرخو عصرنا فيؤاخذون اكثر ممن سبقهم لانهم رأوا التواريخ الفرنجية وحسن تبويبها وترتيبها ودقة فهارسها حتى ان الواقف عليها يستطيع ان يعرف كل دقيقة من المباحث بتقليب صفحات الفهارس فقط دون ان يصرف اياما في المطالعة ليعثر على ضالته المنشودة فما بالهم يغفلون وضع الفهارس وحسن التقسيم ودقة الترتيب ونحو ذلك مما فيه اقتصاد وقتي على المطالع وترغيب لاقتناء الكتاب

آثرنا ان نتبع خطوات الانسان في الترقي وان نبتدئ بسكان الشرق الاولين لانه مهد الجنس البشري بلا مراء وهو مطلع نور العلم والعرفان وفيه ذر قرن الحضارة الانسانية . وعلى الغالب ان ما يصدق على شعوب الشرق القديمة يصدق على الشعوب الاخرى في بقية البلدان .

العصور القديمة والمعتقدات

بدأ انسان العصر الحجري المتوسط يعتقد ان كائنات الهية تسيطر عليهوا من على ما كان له من فطنة ساذجة ان النفس لها حياة بعد ان تنفصل عن الجسد وانها ستعود في زمن عتيد غير معين فكان من مات يدفنونه تحت الموقد حيث كان يجتمع بعائلته كلما عاد مرة من الصيد ويدفنون مع جثته ادوات زينته وآلات صيده وقد عثر البحاث عن الاثار كثيرا من رفات الاسلاف مطمورا في طباق الكهوف وبعضها منضود فوق بعض بحسب مرور الزمان عليه

ومع استمرار ابناء العصر الحجري المتوسط على الصيد والقنص ظفروا بموارد اخرى للارتزاق فبعد ان بقيت نساؤهم حقبة من الزمن لم يتعين حتى الان مداها يجمعن البزور والحبوب من رؤوس النبات البري ويجرشنها ما بين حجرين ويصنعن من دقيقها ما كلا خطر لهم ان في المستطاع ان يساعدوا الطبيعة في انماء ذلك النبات سواء كان مما ينشأ في الغابات ذات الاشجار الباسقة او في السهول المجاورة لضفاف البحار او البحيرات

وهذه الخطوة في الزراعة كانت العمل الاول في الفن الزراعي الحقيقي فاخذوا يأتون بالبزور والحبوب ويلقونها في الثرى بعدما اعدوه لقبولها ولا ريب في انهم لاحظوا ان بعضها نما وبعضها لم ينمُ وبالاستدلال بالبصيرة عن النمو وعدمه اهتدوا الى ان بعض الحبوب لا نمو له في ابان القيظ وبعض آخر لا يوافقه زمهرير الشتاء فاهتدوا الى ان للحبوب اوقاتاً صالحة لزراعتها واوقاتاً غير صالحة فصاروا يلقون البذار في الوقت المناسب ويبذلون عناية في صيانتها من اطيار السماء ووحش البر واليد المختلسة حتى تدرك فيحصدونها ويجمعون غلالها

وكان القيام بهذه الاعمال منوطاً في الغالب بالنساء فكانت الانثى السابقة في فن الفلاحة والزراعة ولا تزال الانثى محتفظة بهذه المزية المتصلة اليها من امهاتها في العصور الاولى فترى القروية تعنى بالذهاب الى حقل زوجها وتزرع فيه البصل والثوم والبطاطا والكزبرة والبقدونس والخس ونرى المدنية تعنى بالقرنفل والنرجس والنسرين والحبق وامثالها في أصص تصفها على ابواب مسكنها

والحبوب التي كانت المرأة القديمة تزرعها هي البر والدخن والشعير وامثالها مما نشأ من طبيعة الارض واهتدى الانسان اليه . وكن يزرعن الكتان ايضا ويستخرجن من نباته خيوطاً يصنعن منه نسيجاً يخطن منه ملابس بدلا من الجلود التي كانت ملابس الانسان بادىء بدء

وكانت هذه الحقول الداعي الاول للاستقرار في مكان واحد بعدما كان الانسان متنقلا وراء مرتزقه من مكان الى آخر فان الحرص على استثمار ما زرعوه اوجب عليهم المكوث بالقرب منه لدفع غاشية من يعيث به فسادا ان بعدوا عنه ولتسهيل مشقة العمل على النسوة العاملات اللواتي عليهن ان يقمن باعداد الطعام ونسج الملابس علاوة على حفظ المزروعات . ونشأ عن البقاء في جانب الحقل والمثابرة على استغلال تربته حق الملك بوضع اليد وان شئت فقل ببذل الجهد فكل اسرة اكبت على استثمار حقل سنين متتالية كانت تدعيه انه لها بوجه الاختصاص وعن هذا الاساس نشأ حق التملك الذي صار فيما بعد مصدرنزاع وخصام بين الناس ولا سيما بين الاغنياء والفقراء او بين الاقوياء والضعفاء .

وبدأ الحيوان البري المكتفي بالغذاء من عشب الارض يدجن لان قناص ذلك العصر الحجري المتوسط الذي كان يطارد هذا الحيوان في الغابات والجبال

لما رآها لا تسيء الى زوجته وصغاره وانه يستفيد من وجودها في حوزته طفق يبحث عنها ليستولي عليها ويقودها الى مقر اقامته ويأتيها بغذائها من كلاء رطب او يابس فاطمأنت الى عنايته بها وجادت له بما يتحلب الى ضروعها من اللبن وهو لا يجهل ان اللبن غذاء جيد . واستولد الانسان هذا الحيوان فكان الابن آلف من امه وابيه ولانت عريكته لمالكه حتى بات لا يعرف ان اباه كان يلي شأنه بنفسه فصارت سياسة هذا الحيوان سهلة المنال حتى امتنع الانسان عن ان يقتاده بزمام لانه وجدان العصا والصوت بها كفاية لقياده فألفه كما الفه الكلب

ومضى على انسان العصر الحجري امد طويل وليس لديه حيوان يحمل عليه اشياءه وكان اسلافه يطاردون الحصان البري لاصطياده وتناول لحمه مأكلا ولم يدر في خلدهم تربيته وتدجينه ليصلح لخدمتهم ولكنه ما لبث ان اهتدى الى انه يستطيع ان يستفيد من وجوده عنده فان القوة المدركة في الانسان تنبعث من تلقاء نفسها الى التعرف بما لا تعرفه اما من باب التجربة او من باب الحدس او من باب مشاهدة وقياس عليها . فلعله رأى بداءة بدء ان يصطاد الحصان ليستبقيه فيكون طعاماً لغده ثم ظهر له ان ظهر الحصان مركب موافق فامسك عن ذبحه الى استخدامه .

=«»=

الاثار القديمة

آثار الكلدانيين والاشوريين والبابليين

انه لدى البحث عن اثار الامم المذكورة عثرنا على الجزء الثاني عشر من السنة الاولى من مجلة الاثار لصاحبها العلامة النحرير الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف فعارضناها بما لدينا من المعلومات عن تلك الامم فآثرنا تدوينها

« لقد شغلت هذه الممالك الثلاث المتعاقبة غربي اسية في العراق العربي وكردستان وما بين النهرين وما يليها وكانت صحائفهم الغضاء (اللبن) المشوي بالنار والمجفف بالشمس وذلك لان تربة اودية الرافدين (دجلة والفرات) موءلفة من رواكد طميها فليس فيها حجارة فاتخذوا الغضاء وكتبوا عليه طريئاً بالمسمار فعرفت كتاباتهم بالمسمارية واقدم من كتب بها الكلدان واول من حل رموزها كروتفند الالماني سنة ١٨٠٢ اذ وقف على ما نقله نيابهر الدنمركي منها فقراً بالمقابلة والمعارضة كما فعل شمبوليون الفرنسي في قراءة الهيروغليفية المصرية وكان الضابط هنري روبنصن الانكليزي قد عثر على صخرة بستون المسمارية الكتابة في كردستان سنة ١٨٣٧ م فحل رموزها بالمراجعة واجمع الاثنان مع تباين محلها على قراءة هــذه الكتابة التي هي شقيقة الهيروغليفية ولكنها تخالفها بان لها علامة تدل على الفاظ كثيرة وتلك لا تدل علامتها الا على لفظة واحدة

ومن اقدم المشتغلين بحفر هذه الاثار بوتا قنصل فرنسة في الموصل فانه نقب في اطلال خرستاباذ . « دور سارجينا اي دار سرجون » سنة ١٨٤٤م فكشف

قصر سرجون الاشوري الذي سميت المدينة باسمه وحرفت وهو شمالي قيونجك (نينوى) الواقعة في الشرق الجنوبي من الموصل ·

ثم اخرج فلندين الفرنسي من تلك الانقاض تماثيل بديعة بعضها يمثل ثيرانا بروءوس بشرية والاخر ادميين بروءوس نسرية ونقلت جميعها الى متحف اللوفر في بارس

اشتهر اوستن ليرد سفير الدولة الانكليزية في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠ في مدينة نمرود جنوبي الموصل (كالح) حيث وجدت مكتبة اشور بنيبال فنقل منها نحو عشرة الاف آجرة الى المتحف البريطاني في لندن فاكب العلماء على قراءتها وبرعوا بحل رموزها·وقرأوا فيها قصة الخلق وكثيرا من العلوم والفنون في الدين والنحو واللغة والفلك وسواها وانتبهوا الى ان بعضها منسوخ عن صحائف كلدانية اقدم منها

وكان ابرع قارىء لها اوبرت· الذي اجازه بولن ناظر المعارف الفرنسية بعشرين الف فرنك فألف كتابيه (الدروس الاشورية) وتاريخ ممالك الكلدانيين والاشوريين بحسب الاثار ·

ومما اكتشفه ليرد ايضا قصر سنحاريب وطول احدى غرفه ٢٢٠ قدما بعرض مائة · وفيه وجد تماثيل ثيران مجنحة واسود بروءوس بشرية وصورة سنحاريب على عرشه وغير ذلك مما نقله الى المتحف البريطاني ·

وسنة ١٨٤٥ وجد رولنصن في عقرقوف (برج نمرود) قرب نهر الفرات ناجودين (قنينتين) من الخزف البابلي عليها اسم بختنصر « نبوخذ نصر » وعبادة مردوخ وصورة هيكل سبعة انوار المسكونة

فنقلها الى المتحف البريطاني والف كتابه « الممالك الخمس العظيمة

الكلدان وبابل واشور ومادي وفارس» وفي تلك السنة اظهر نوفتس الفرنسي اطلال قصر سردنابل الخامس المعروف باشور بنيبال فنقل بعضها الى اللوفر والاخر فقد عند نقله .

وفي سنة ١٨٦٦ اكتشف جورج سمث الانكليزي من مشاهير الاثريين كتابات من عهد شلمناصر الثاني تنبيء بمنازلته لحزائيل ملك الشام وفي السنة التالية اشترك بجمع كتاب للمتحف البريطاني في الكتابات المسمارية الباقية من آثار غربي آسية واكب على درسها فقرأ فيها اشياء كثيرة مثل كسوف ١٥ حزيران سنة ٧٦٣ ق م بعهد الملك اشورديان الثالث الاشوري ورواية الطوفان وتقويم ديني اشور وفتح العيلاميين لبابل سنة ٢٢٨٠ ق م

وفي سنة ١٨٧٣م جمع الاثري المذكور من نينوى ثلاثة الاف قطعة من اثار الكتابات وغيرها مما له شأن كبير في معرفة تاريخ هذه القبائل وسنة ١٨٧٥ وضع بيانا وافيا في اكتشافاته المذكورة ونشر تاريخا لاشور ورواية الكلدان في التكوين وقصصاً مسمارية عن التوراة .

وفي سنة ١٨٧٦ م ذهب الى جرابيس « كركميش » وهي في الفرات على بعد ست ساعات عن بيريجيك وحقق اكتشاف وطنيه شاد بسكون سنة ١٨٧٤ لهذه المدينة الحثية فوافقه في رأيه .

كانت كركميش عاصمة الحثيين ومعناها مدينة الاله كمش فتحها سرجون سنة ٧١٧ ق م واستولى عليها وسميت (هيرابوليس) اي المدينة المقدسة وحرفت هذه الكلمة الى جيرابوليس فجيرابيس .

وسنة ١٨٧٩ اكتشف بسكون المذكور اثاراً اشورية وصفها بخطاب القاه في كلية الامريكان في بيروت اذ ذاك قال فيه :

« لقد كانت في بابل امة عظيمة راقية في القرن العشرين قبل الميلاد وكانت في نينوى مدرسة كلية سنة ٦٠٤ ق م تدرس اللغات والتاريخ والجغرافية وفيها معجمات وموسوعات ومن ذلك وصف حروب شلمناصر الملك» فنقلها جميعها الى المتحف البريطاني .

وسنة ١٨٩٤ اكتشف سرزيك قنصل فرنسة العام في بلاد الكلدان نحو ثلاثين الف آجرة في محلة « التله » وعلى معظمها صور صكوك ومعاهدات دولية ينتهي تاريخها الى القرنين الثلاثين والاربعين قبل المسيح حين لم يكن اسم بابل معروفاً على احد الاقوال

واكتشف ايضا القنصل المذكور سنة ١٩٠٠ صفائح اشورية احداها ذهبية مخطوطه وهي اول اثر لهم من هذا النوع لان صفائحهم كلها غضارية وقليل منها شبهيه (برونزيه) .

وفي سنة ١٩٠١ اكتشفت البعثة الاميركية هيكل مدينة نغفر (نيبور) عاصمة البابليين وفيه مكتبة في نحو ثلاثين الف صفيحة بالقلم المسماري مختلفة المواضيع ووجد سيف الملك بنيرار الاول في ضواحي ديار بكر وهو الذي غزا سورية في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد

وفي سنة ١٩٠٢ اكتشف دي ميلي شيئاً عن برج بابل في القرن الرابع بعد المسيح وذلك بعد ان رممه بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد وهو مبني قبل ذلك العهد باثنين واربعين قرنا وطول اساسه من جهة واحدة ٢٨٦ متراً وعلوه ٢٢٥ يصعد اليه بسلم ذات ٣٦٥ درجة وهو على مقربه من طيسفون (المدائن)

وفي تلك السنة امعن الدكتور روبرت كورلدوي مدير « الجمعية الشرقية

الالمانية » بالتنقيب فاظهر ما كانت عليه بابل منذ ٢٨٠٠ سنة ويروى انه عثر على نحو اربعمائة حجر الماسي معظمها خام (خشن بدون صقل) وظهرت له اطلال قصر بختنصر اعظم ملوك بابل وهيكل البعل وباب عشتروت (الزهرة) وذلك في بابل على بعد بضعة اميال من بغداد ومن اهم مكتشفاته حدائق سميراميس المعلقة ثم وجدت بعض اثارهم في جهات شتى ففي الشوف (لبنان) صنم اشوري وعلى درج نهر الكلب كتاباتهم قرب صورة اسرحدون ملكهم وفي العريمة قرب منبج صنم اشوري عظيم ·

واستدل من الاثار المذكورة ان هذه القبائل بقيت سحابة قرون طويلة اهم الشعوب في اسية الغربية وان كانوا لم يبلغوا مقام المصريين في التمدن ·

ودعت كتاباتهم الحثيين باسم (حاتيس) وهم الذين سماهم العبرانيون (حتي وحيتس) وكانوا يدخنون بانبوبة تنتهي الى اناء صغير مستدير اشبه بالنرجيلة « الاركيلة »

وعرفوا الختانة وحفر الترع والتحنيط بالعسل وتفوقوا بعلم الطب والهيئة والرياضيات والصناعات لاسيما الزجاج الشفاف والظليل والعدسيات المجهرية·

« من خطوطهم ما لا يقرأ الابـهـا » وعملو الخزف بايديهم اي بـلا دولاب وعرفوا التطريز والتمويه « الطلي بالمعادن » وصقل الحجارة الكريمة الى غير ذلك

=«»=

سفينة نوح

انه لما كان اهم الاهداف التي ارمي اليها بموءلفي البحث في العصور القديمة للاستثبات في كون البشر الاولين سكنوا شمالي لبنان فدونت اولا زبدة اراء الباحثين بمكان الفردوس الارضي وها اني مدون زبدة ارائهم في المكان الذي صنعت فيه السفينة والمكان الذي استقرت فيه · فالبحث في اثار شمالي لبنان هو اذاً محوري وحيزي ومغيا غايتي ولهذا اسميت موءلفي تاريخ شمالي لبنان ·

نقل الى متحري امر هذا الفلك السائح مرسيون الذي ارتاد الشرق في القرن السابع عشر تقليدا وطنياً منطوقه ان الجبل الشرقي هو المكان الذي صنع فيه نوح سفينته

وهناك المولعون بعلم اللغات وبالبحث عن كل مسألة وعرة المسالك طمحا الى اكتشاف جديد يمزق حجب الريب عن الحقائق التاريخية ام يزيدها جلاء ونوراً فاقبلوا منكبين على التنقير والتنقيب عما اذا كانت الدروس اللغوية توءيد في شيء التقليد النبناني المنوه به · فاجمع ائمة التاريخ وجهابذة البحث ان الخشب الذي صنع منه الفلك هو الارز وان السفينة استقرت على جبل حرمون واقاموا على ذلك الادلة الراهنة والحجج القاطعة منها : ان الاب بيريه اليسوعي بمجرد افادات نص الكتاب المقدس توفق الى اثبات كون السفينة الطوفانية وقفت على قمة لبنان الشرقي · واليك فقرة مما قال في هذا الصدد : « ان هذه الجبال كانت بين شمال شرقي فلسطين صوب نبع الاردن وقد سموها مدة طويلة بجبال ارمينية نسبة الى آرام بن سام · وانك لاتجد

في الكتاب المقدس اسم ارمينية بل تجد « اراراط » تكوين ٨ : ٤ والحال ان تسمية احد جبال ارمينية باراراط هي تسمية جديدة وفلاف يوسف يقول ان الجبل المعين في التقليد اليهودي كان يسمى ابوباتريون (اي الخروج) وقال استرابون ١١ : ١٢ : ٤ وكان الجغرافيون المقبولون في المدارس يسمون اعلى سلسلة في ارمينية المدعوة الان « اراراط » « نفاتس » او « ماسيوس » كما سماها اهل البلاد الاقدمون ٠

واليك ما قاله الاب مرتين اليسوعي في تاريخ لبنان ص ١٦٣ وما يليها ندونه بالحرف « وان الارمن يسمون بلادهم هيسدان ولا يسميها بارمينية الا الاغرار منهم وهم لا يدعون انفسهم بهذا الاسم (والاباء اليسوعيون اصحاب الكعب المعلى وذوو الشأن في هذه المباحث المتخصصون بها) « ومع هذا فان اسم جبل اراراط ولو كان قد اطلق على هذه الناحية من عهد قريب نظير اسم ارمينية ينبغي ان تعرف ان اطلاقه عليها مبني على اساس مكين لما نعلم من الكتابات المسمارية ان غارة الارمن على البلاد التي تسمت باسمهم انما كانت في القرن السادس قبل يسوع المسيح وهذا الامر لا بد ينقض نمام النقض جميع ما كتب في شأن الجبال التي استوى عليها فلك نوح باستناد الى لغة الارمن وتسليماتهم ٠ غير ان الشعب الذي كان اتخذ سكناه اولاً في هــذه البلاد ونقش الكتابات الدالة على آثاره في مدينة وان ثم اصابه النفناء او ولى مدحورا الى جبال القوقاس من سطوة هؤلاء الغزاة (الارمن) الذين غلبوه على بلاده كان يسمى بالاسم الذي يقرأ «اوراردس او اورارتي» في الكتابات الاشورية والذي يفطن به هيرودت عند اتيانه على ذكر شعب « الارودين » في ارمينية ولا غرو ان جميع هذه الاسماء هي قريبة من اسم اراراط بحيث يصح التوفيق

بينه وبين هذه القبيلة التي نزلت في ارمينية الاصلية • ومع وجود هذه الافادة التاريخية والجغرافية نظن انه لا يبعد عن الاحتمال ان سفر التكوين عنى باراراط جبال حرمون لا جبال ارمينية فان ارتفاع سطوح اراراط وجبال ارمينية بالاجمال لا يساعد شجر الزيتون على النمو بسبب البرد الشديد الذي يدوم جميع السنة• ولكنه ما من احد يرتاب في كون الفلك استقر في امـا كن الزيتون وبالتالي بعيدا عن ارمينية وجبالها التي لا يكاد ينبت فيها العشب الا اشهرا قليلات »

قال احد السياح المحدثين « من الامور الغريبة التي ينبغي العلم بها هو ان اخبار فلك نوح هي مجهولة بالتمام عند النصارى المتوطنين في جميع الكورة المحيطة بجبل اراراط • واما الاتراك فمن المعلوم انهم يعزون هذا التقليد الى جبل قريب من اماسية (في برّ الاناضول) ولكن اهم هذا التقليد اي ذكر الحمامة والغصن الزيتون امر لم يمكن ان يتم في هذه الجهة بما ان الحالة الجوّية هناك لا توافق الزيتون مطلقاً على النشوء » • فان كان يجب اطراح التقليد الذي يلاحظ بلاد ارمينية بسبب هذه الافادة الاكيدة الثابتة من نص الكتاب المقدس لزمنا ضرورة ان نرجع الى التقليد الملاحظ حرمون فانه منازع للتقليد الارمني قوة وشهرة اما اكبر صعوبة تعترض التقليـد الاخير فانما هي كلمة « اراراط » • غير ان الاسم الواحد لاسيما اذا اعتراه التغيير كهنا عند نقله الى لغة اجنبية ألا يمكن ان يصدق على ناحيتين مختلفتين ? ولو سلمنا ان ارمينية كانت تعرف قديما باسم اراراط افلا يمكن التخمين مع هذا اتباعـاً للتقليد اللبناني ان هذا الاسم كان يراد به ايضاً سلسلة جبل حرمون ? ولنا في الاسم نفسه ايضاً دليل ذو اهمية يبين ان للتقليد الاخير وجهاً من الصحة •

اعلم ان اسم اراراط اذا غيرت حرفه الاخير في العبرانية تغييرا خفيفاً

دلّ على نفس ما يدل عليه اسم حرمون اعني اللعنة والحرمان والكراهة وعليه ان اراراط مشتق من (ارار) ومعناه كره ولعن

واذا تذرع البعض بالحمام الزاجل المعد لابلاغ الرسائل في الازمات فان هذه الطريقة مستحدثة . والحمام المذكور يقلد الرسالة اي يحملها بعنقه لا بفمه كما جاء عن حمامة نوح ومن ثم ثبت ان لا زيتون في ارمينية واستحالة نقل غصن الزيتون بفم الحمامة الى مسافات بعيدة . وهذا دليل واضح ان السفينة رست على جبل حرمون المحاط باشجار الزيتون لا على جبل اراراط

قبر نوح

ذكر لولدف السوخني الذي جال هذه البلاد في القرن الرابع عشر ان وادي سورية المجوفة كان يسمى في ايام مروره بتلك الارض باسم نوح واليك تعريب كلامه : « فلما كنت آتياً من لبنان الشرقي مارا اي جهات الزبداني انتهيت الى وادي البقاع الذي يسمى اليوم سهل نوح »

وقال الاب مرتين اليسوعي في تاريخ لبنان ص ١٧٠ : «اما هذا السهل فلم يزل الى ايامنا هذه مشهورا بقبر نوح ومركزه فيه قريباً من زحلة فوق رسوم حصن الكرد القديم ولما ان خرج تيمورلنك من دمشق عرج عليه في طريقه قصد الزيارة

وقد تشرف هذا القبر ايضاً بزيارة كثير من عظماء الارض اما بنايته على ما هو عليه في هذا الزمن فهي من آثار بيبرس البندقداري الذي رقي عرش الملك سنة ١٢٥٨ ملقباً بالملك الظاهر . فهذا جعل طول الضريح وفقاً لاعتقادهم في عصره واحد وثلاثين مترا . ولكن هذا المقدار ليس بمواجه لاعتقاد البعض

فهم يزعمون ان ليس في القبر غير ساقي نوح لانهم يقولون انـه كان عظيم الحجم جدا بحيث اذا مشى وضع احدى رجليه على لبنان الغربي والثانية على الشرقي ٠ومن الراجح ان القبر قبل ان رممه بيبروس الملك كان اشد قرباً من الجبل كما تشير الى ذلك خرابات الحصن ٠ غير ان الملك المذكور استخدم اذ ذاك قناة العين العامة فبنى عليها هذا القبر الطويل ٠ واما الآن فقد انقطع الماء عن القناة ولا تزال من فوقها البسط العتيقة المفروشة بامر السلاطين اكراما للنبي نوح »

ان اهل لبنان الشرقي وسورية المجوفة حافظوا اكثر من جميع من سواهم على تقليد اسم نوح وذكره ولا يزال هذا التقليد حياً مستمرا الى الآن عندهم كما وانهم حافظوا على تقليد رسو الفلك الطوفاني على جبالهم ٠ ذكر الربي بتاشيا ان قبر سام موجود فيما حوالى دمشق واتفق سائر الربيين على ذلك وعلى ان ساماً كان مدرساً للدين في جبل طابور او حرمون

قال الاب مرتين اليسوعي في تاريخه لبنان ص ١٧٣ « وهذه التقليدات العديدة تبين لك شدة اعتقاد النصارى والمسلمين في ان لبنان وطنهم هو مركز البشر قبل الطوفان ومن بعده ٠ فهم يظنون انهم السكان الاصليون في تلك الجهات لم يرحلوا اليها من بلد آخر وانهم مقيمون في نفس الاماكن التي حلت عليها اولا بركات الرب ولعناته ٠ وهناك نشأ تحت حماية الله اولاد نوح ٠ ومن هنالك رحلوا نحو المشرق وسكنوا ارض شنعار (تعريب شنعار : بين النهرين) او بابل ثم ان الاسماك الحفرية التي راقبوها قديما في جملة اماكن من لبنان منذ اوائل التاريخ المسيحي قد اضافت الى جميع هذه التقاليد قوة جديدة فوق قوتها ٠واتخذ الكل منها برهاناً بيناً على ان الطوفان اوضح اثرا في لبنان منه

في غير الجهات » هذا ما رواه المؤرخون . وعندنا انه لما كان وجود التوراة ثابت والدلائل الموجودة في لبنان على ان الطوفان جرى فيه وهي غير موجودة في اماكن ثانية لا تزال ثابتة الى اليوم ، يمكننا القول انه خامر الشك بعضهم في كون جنة عدن كانت في لبنان فانه من المؤكد ان اباءنا الاولين سكنوا لبنان ومنه تفرقت سلالاتهم الى انحاء المعمور وقد اتفق على ذلك جميع المؤرخين القدماء والمتأخرين

=«»=

النقود القديمة

اقتطفنا ما ندونه من تاريخ سورية للعلامة المطران يوسف الدبس وعن العلامة جورج بوسط وعن البحاثة الكبير الدكتور جايمس هنري برستد وعن دائرة المعارف الافرنسية

عرفت النقود النحاسية سنة ١١٨٤ ق م وقبل ذاك العهد كان الناس يتبادلون في مبايعاتهم عينا بعين وكان فيدون ملك ارغوس اليوناني الذي وجد في نحو سنة ٧٧٠ ق م اول من ضرب النقود في بلاد اليونان ورتب الموازين والمكاييل وتبين لنا بالبحث والتمحيص انه اخذها عن الفينيقيين الذين اخذوها عن البابليين

يؤيد ذلك قطع النقود النحاسية التي عثر عليها في حفريات ترسيس تمثل الها يسمى في لغتهم باسم (سنداس او سندن) وهو الاله الشمسي الحثي

في كيليكية وانه لامر ثابت اتصال الحثيين بالبابليين وما اخذوا عنهم اما النقود التي اكتشفت في افاميا من فريجية في اسيه الصغرى فقد ضربها كهنة افاميا في القرن الثاني للميلاد منقوشا عليها صورة السفينة لانهم زعموا ان سفينة نوح رست في مدينتهم التي كانت تسمى قديما (كبوتوس) اي السفينية والنقش على النقود المذكورة يمثل صورة سفينة مفتوحة ورسم نوح الذي نجا من الطوفان مع زوجته وهو يتناول حمامة تنقل اليه غصن الزيتون وعلى الصفحة الثانية من تلك المسكوكات رسم شخصين خارجين من السفينة ليمتلكا الارض وهناك اسم نوح باليونانية مما تلقوه عن النسخة السبعينية وهكذا تدرجت النقود اليونانية من الخشونة وعدم الاتقان الى ان صارت بديعة الصنع سكاً ونقشاً كنقودنا الحالية ولاسيما في العصر المكدوني كنقود فيلبس وابنه الاسكندر ذي القرنين

وفي زمن سلوقس زعيم قواد الاسكندر الشهير واكبر خلفائه الذي حكم بعده بلادنا والملقب بنيقاتور (اي الظافر) وهو اول من صور رسمه على النقود واقتفى اثره خلفاؤه الذين اتقنوا نقودهم وضربوها في اهم المدن السورية كانطاكية واورشليم وبيروت وصيدا وصور وعسقلان وعكا وطرطوس وطرابلس بعضها من ذهب ومعظمها من فضة او نحاس . (سلوقس تولى الحكم في سورية من سنة ٣١١ ــ ٢٨٠ ق م) فالذهبي منها صور على جانبه رأسه بقرنين وعلى الثاني رأس عجل رمز البعل و كتب حوله باليونانيه (الملك سلوقس)

وضرب نقدا فضياً نقش عليه رأسه بخوذة ذات قرنين واذن ثور وعلى الجانب الثاني مثال الظفر واقفاً الى اليمين رافعا يديه على خوذة ودرع وترس وحوله اسمه كما مرّ .

اما نقده النحاسي فعلى احد وجهيه رسم رأسه كتب حوله باليونانية

(سلوقس الظافر) وعلى الثاني صورة هيكل المشتري (جوبيتر) وحوله اسم الهيكل ٠

واذ كان ملوك المكابيين اليهود قد نشأوا بين الدولتين اليونانية والرومانية وقد تنازعتاهم واضطرب حبلهم في اثناء دولتهم من زمن انطيوخوس ايفانيوس سنة ١٧٥ ق م الى سنة ٧٠ م اذ نكل بهم نيرون فتشتتوا في الارض ومن نقودهم التي ظهرت في ذلك العهد شاقل (نوع من النقود) (شقل الدراهم اي وزنها) يظن انه من ايام سمعان المكابي وقطعة نحاسية من سك هيرودوس الاكبر (٤٠ ــ ٤ ق م) الذي ولد المسيح في السنة الاخيرة من ملكه لان التاريخ المسيحي متأخر عن وقته الاصلي باربع سنوات ووجدت قطعة من نقود هيرودوس اغريبا الاول (٢٧ : ٤٤ م) وهو ابن ارستيبولوس ٠ ووجد نقد آخر من مسكوكات اغريبا الثاني المعروف بالصغير وهو ابن اغريبا الاول (٥٠ ــ ١٠٠ تولى امارة كلشيس (عنجر) ومعنى كلشيس او خلقيس مدينة النحاس) في بقاع العزيز وصار سنة ٥٢ ملكا على الربع الذي كان لفيلبوس وهو الجولان والجيدور واللجاه وحوران ثم ضمت اليه ولاية ابليه ليسينيانوس وهي (ابل السوق) المعروفة الان بسوق وادي بردى على طريق الخط الحديدي بين رياق ودمشق. فعلى احد وجهي نقده رأس اغريبا وعلى الثاني مرساة وعلامة تدل على السنة العاشرة ولعلها من تاريخ كليشيس وهي توافق سنة ٥٨ م وكان لاغريبا هذا شقيقة اسمها (برانيكي) ذهبت مع شقيقها المذكور عند اعتزاله الى رومية التي توفي فيها ٠

اما النقود الرومانية المضروبة باسماء ملوكهم وصورهم فمنها دينار سك بزمن السيد المسيح (كلمة دينار لاتينية) عليها رسم الملك طيباريوس قيصر

تعادل قيمته اربعة قروش وهي اجرة العامل في يومه في ذلك العهد وبزمن المسيح • ومنها قطعة سكها كلوديوس قيصر (٤٤ ــ ٥٤ م) الملقب بالاعرج خليفة كايغولا • ومنها نقد لفينيسيان (٦٩ ــ ٧٩ م)

ومن القطع التي ضربها تيطس فسبسيان (٧٩ ــ ٨١ م)ما يمثله وبيده الصولجان وامامه امرأة جالسة على الارض متكئة على نخلة تمثال المرأة اليهودية وفي الصفحة الثانية اسير اسرائيلي واقف مكتوف اليدين ينظر الى امرأتين اسيرتين احداهما ورائه بجانب نخلة ايضاً والثانية امام تيطس وفي ذلك اشارة الى سبي اليهود الذي صار بزمنه والنخلة رمز اليهودية والكتابة رومانية •

ومسكوكات انطيوخوس الاول (٢٨٠ ــ ٢٦٠ ق م) (ملك سوريا الملقب بالمنقذ) الفضية تمثل على جانب رأسه متوجا وعلى الثاني هرقل جالساً على صخرة مغشاة بجلد اسد وفي يمناه حربة ويسراه ملقاة على الصخرة وحوله كتابة معناها انتيوخوس المنقذ (هرقل الاول امبراطور الشرق من ٦١٠ ــ ٦٤١) هرقل مركبة من كلمة (ركل الفينيقية بمعنى جال او طاف ومنها سموا اله التجارة عندهم هرقل) ونقود انتيوخوس الثاني ٢٦٠ ــ ٢٤٦ ق م الفضية على وجهها صورة الملك وعلى الثاني رسم ابولون جالس وبيمينه سهم وبشماله قوس وحوله كتابة معربها (الملك انتيوخوس) (ابولون اله يوناني وروماني اله الوحي والطب والشعر والفنون والسائمه والنهار والشمس)

اما نقود سلوقس الثاني (٢٤٦ ــ ٢٢٥ ق م النحاسية على جانب ملتحياً وعلى الآخر تمثل الحصان المجنح وقد كتب فوقه وتحته الملك سلوقس •

ومن مسكوكات تغرانوس (٨٢ ــ ٦٩ ق م) درهم فضي عليه رسم الملك متوجاً وفي الصفحة الثانية مثال الظفر بيده سنبلة او غصن نخل رمز

الخصب وكتابة هي (الملك تغرانوس) (تغرانوس ملك ارمينيا العظيم ٨٩ــ ٣٦ق م)

فانتشرت النقود المضروبة في كل بلاد اليونان وكانت انواعاً كثيرة ولقد نقشوا عليها رموزاً مختلفة للالهة والالعاب الاولمبية ونحوهـا ثم رسموا صور الملوك والقواد العظماء بكل اتقان وحفروا عليها اسماء وعبارات عززت التاريخ وصححت كثيرا من اغلاطه ولا سيما في عهد خلفاء الاسكندر المعروفين بالسلوقيين ٠

ذهب البعض ان الرومان بدأوا في اواسط القرن الرابع قبل المسيح يسكون نقودا غير منتظمة الشكل من البرونز (الشبه) ثقل كل منها رطل (١٤٤ درهماً) وعلى احد وجهيها رأس (جانوس) (اقدم ملك روماني تعزو اليه الخرافات امورا كثيرة منها ان الماضي والحاضر كانا سيان بنظره وكان له هيكل عظيم في رومة) وعلى الاخر مقدم سفينة ٠ ثم قسموها الى انصاف واثلاث وارباع واسداس واجزاء من اثني عشر ثم اخذوا يصغرون حجم تلك القطع الى حيث لم يتفاوت ثقلها ٢٤ درهما وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد

ظهرت قطعة نقود رومانية عليها صورة التوأمين والذئبة رمز رومية ضربت قبل الميلاد بسبع مائة سنة وهي الآن في مدينة سـان فرنسيسكو (اميركا الشمالية) في مجموعة نقود قديمة ثم استعملوا الفضة في نقودهم وعادوا فصغروا حجم نقودهم الشبهية ايضاً

واكتشفت نقود ضربت في سورية وحمص وسلوقية (السويديه) والرها (اودسه) وغيرها نقشت عليها صورة حجر حمص (المشهورة عبادته حتى عهد الرومان)

ومن نقود الملك ادريانوس ما كتب عليه (لمصلح العربة) وبعضها نقش عليه اسمه في نقود جرازا (جرسه) واما نقود دمشق فكتب عليها (الى الاله ادريان) تزلفا اليه ورسمت على احدى صفحتيها صورته وصورة الملكة زوجته ومن هذه المسكوكات ما هو مؤرخ بسنتي ١٢٧ و ١٢٩ م .

وكانت حكومة الرومان تضرب نقودها في سورية والكبادوك (ولاية في اسيا الصغرى)على مثال النقود الفارسية وهو مخالف لسكتها الملكية المضروبة في اوروبة وذلك ترويجا لتجارتها في بلاد الشرق

وبعد استيلاء الرومان على سورية سنة ٢٤ ق م سكوا نقودهم في اهم مدنها القديمة واكتشفت قطعة سكت في جبيل سنة ٢٦٧ م نقش عليها معبد جبيل الفينيقي ممثلا بسور يحدق بحجر مقدس كان تمثال الاله او مسكنه قائما على قاعدة حجرية ومدخله باب يصعد اليه بدرج

وهكذا كانت النقود الرومانية مختلفة الاشكال والرموز والاوزان والمعادن ولم تتوحد نقودهم في كل مملكتهم حتى على عهد الملك ديوكليسيان لان كل اسرة كانت تسك نقودها بحسب شهرتها ونفوذ كلمتها .

ولقد قسم الاثريون النقود الرومانية الى ثلاثة انواع مهمة اولها نقود جمهوريتها ومعظمها من الشبه وهي تدل على الحضارة الرومانية الاولى وثانيها نقود اسرها (عياليا) كان يرسم عليها اهم الحوادث التي تجري للاسر وهذه ظهرت سنة ١٧٠ م ثالثها نقود امبراطوريتها وهذه سكت من الفضة والذهب وبلغت اتقانها في عهد اوغسطوس قيصر ونيرون وتفوقت على غيرها اتقانا في عهد كومودوس اما النقد الفضي المغشى (المطلي) بالذهب فهو من اختراع كالينوس وكانت نقود مستعمرتي الامبراطورية الرومانية بعهد تراجان (٩٨ـ

١١٧م) ومرقس اوريليوس (١٦١ــ ١٨٠ م)على طراز النقد اليهودي وتغير شكلها بانقضاء حكم هو ستيليانوس سنة ٢٥١ م

وفي ايام سيتيموس ساويروس الاخير سكت قطع نحاسية في افاميا على احدى صفحتيها رأس الملك وعلى الثانية صندوق طافٍ على المياه وفي نافذتيه رأسا رجل وامرأة والى يسار ذلك امرأة بثوب طويل ورجل بلباس قصير يرفعان ايديهما الى السماء وعلى غطاء الصندوق حمامة جاثمة وفوقه حمامة تحمل غصن الزيتون باظافرها وهناك اسم نوح باليونانية ٠

ووجدت مسكوكات باسم ديمتريوس السلوقي تمثل امرأة قائمة على مقدم سفينة وفي يمناها بوق تنفخ فيه وفي يسارها راية الانتصار وهي ذكرى ظفره وهكذا عرفت الدراهم المكتوبة المصورة عند اليونان في القرن الخامس قبل المسيح٠ وكان سكان ليدية في اسيا الصغرى اول من استعمل نقود الذهب والفضة المزوجين (الالكتروم) في نحو القرن السابع قبل المسيح وهي كتل بيضية الشكل على جانبها طابع وعلى الآخر شكل (مربع) ورأس اسد مما يؤيد ما ذهبت اليه طائفة من المؤرخين الثقات انهم اقتبسوا ذلك عن البابليين والحثيين والمصريين الذين تبادلوا المدنية والحضارة ٠ وفي بعض المتاحف قطع من نقود الليديين تاريخها سنة ٧٠ ق م فولية الشكل فيها كثير من الفضة ٠

وقال بعض المؤرخين ان اول من ضرب النقود في اوربة فيدون ملك اجينة (بلاد يونانية) الذي اوجد العيارات والاقيسة ايضاً ومن اقدم نقود الاجينيين قطعة في المتحف البريطاني في لندن نقشت عليها صورة سلحفاة وهي رمز لالهة البحر عند الفينيقيين ٠

وتدوج الرومان في سكتهم مثل غيرهم من الامم حتى اقتبس عنها كثير

من تاريخهم واخبارهم وعرفت البلدان التي افتتحوها واسماء مفتتحيها وعمران مستعمراتها وما شاكل ذلك

ان نوما اوسرفيوس نليوس هو اول من ضرب النقود النحاسية الرومانية ثم صارت تضرب من فضة سنة ٢٦٩ ق م ومن ذهب نحو سنة ٢٠٩ ق م

واول نقود الامبراطورية الرومانية ضربت في السنة الثانية قبل الميلاد باسم اوغسطوس قيصر وكانت من الفضة والذهب منقوشاً على احدى صفحتيها رأس الامبراطور المالك او احد اعضاء الاسرة المالكة وعلى الوجه الآخر رمز حادثة تاريخية مشهورة او رسم بناء مشهور مع رقم السنة التي ضربت فيها

ووجد في عمان (ربة بني عمون) نقود الملك مرقس او ريليوس الفيلسوف في القرن الثاني للميلاد نقش عليها هذه العبارة (فيلادلفيه هرقل البقاع) ففيلادلفيه اسم عمان القديم وهرقل مربك تفسير اسمه .

ووجدت نقود رومانية عليها صورة (سومياس) ممثلة بالزهرة (فينيس) كوكب الصبح والهة الجمال وسومياس هذه ام افتيوس باسيانوس المعروف باسم (اليوكبل) وابنته ذمية الحمصية امرأة سبتيموس ساويروس وام كاراكلا

وكانت كتابة المسكوكات باللغة اليونانية في بصرى (حوران) على عهد الملك تراجان فصارت بعيد ولاية ساويروس تكتب باللغة اللاتينية

ومن النقود العمومية التي شاعت في عهد المسيح (الاستار الروماني) وقيمته نحو اثني عشر قرشاً و« الدينار الروماني » وقيمته نحو عشر بارات وهكذا تطورت النقود ورسمت عليها رموز كثيرة دينية وتاريخية وتجارية ومنها نقد رسمت عليه صورة التوأمين والجوزاء وهي في الاساطير القديمة توأما زفس (المشتري) اللذان تعلق بهما نصيب بحرية تلك الايام ولهذا اتخذوا علامة

الجوزاء سمة لسفنهم يتيمنون بها

وقد تطورت اشكال النقود وماشت ادوار المدنية وكانت حسب الادوار مختلفة الاشكال والمعادن والرموز

ان ممالك اوربة الغربية نقلت سك النقود عن الدولة البيزنطية خليفة الدولتين اليونانية والرومانية فشاعت بينها الى اوائل القرن التاسع للمسيح بزمن شرلمان العظيم ملك فرنسة وهرون الرشيد خليفة العرب العباسي واهم ما شاع من نقود الدول العربية هو الدينار الذهبي والدرهم الفضي ·

وكانت النقود العربية في اوائل سكها غير متقنة ولا منظمة واقدم المسكوكات المسبوكة سبكا هي الايطالية · وكانت اكثر المسكوكات تنقش اولاً على صفحة واحدة الى منتصف القرن السادس ثم صارت تنقش على الصفحتين كما هي الان واكثر اتقانا واشدها انتظاما ما سك في القرنين الاخيرين

اما طريقة سك النقود فكانت على وتيرة واحدة تقريباً في جميع العصور واهم ما اشتهر منها سبك المعدن في قوالب بشكل اقراص ودوائر بثقلها المطلوب ووضع تلك الاقراص على سندان فوقه الطابع المراد نقشه وضربها بالمطرقة التي فيها نقش الصفحة الاخرى وهكذا تخرج النقود من بين هاتين الآلتين صالحة للاستعمال والتداول ·

تفسير أسما النقود المتدولة

١ً ــ الليرة كلمة ايطالية (ليرا) من اللاتينية (ليبرا) بمعنى الرطل وكانت اولاً اسما لنقود فضية افرنجية صغيرة القيمة ثم نقلت الى اكبر نقد ذهبي معروف عند الامم اليوم بهذا الاسم الافرنجي والعربي ·

٢ ـ الليرة السترلينية محرفة عن (ايسترلنغ) وهي اسم التجار الجرمانيين ومجاوريهم الذين كانوا يتجرون في جزر بريطانيا و كانت نقودهم من الذهب الابريز وموقع بلادهم شرقي بلاد الانكليز فسموا باسم الشرقيين وحرف الاسم الى ما هو عليه الآن

٣ ـ الجنيه (بلغة مصر) مشتق من جينيه او غينية · وهي مقاطعة على سواحل افريقية الشرقية اكتشفها البرتغاليون سنة ١٤٤٦ م وسارت اليها شركة انكليزية سنة ١٥٨٨ م فارسلت منها الذهب وسكت منه نقوداً ذات قيمة كبيرة فنسبت اليها ثم استعيض عنها بالليرة الانكليزية الحاضرة سنة ١٨١٧ وبقي الاسمان القديمان لها ·

=()=

— الفصل الثالث —

اسم فينيقية وتجارتها

اشتهر هذا الاسم قديماً اكثر من سائر الاسماء وقد حرفه اليونان كغيره من الاسماء او استنبطوه · وسبق لليونان ان حرفوا اسماء فينيقية مثل صور توروس وصيداء صيدون وبيروت بيروتوس وجبيل بيبلوس والبترون بوتريس ولبنان ليبانوس والدامور تاميراس ·

وكانوا يطلقون على عامة ساحل لبنان اي على الساحل الذي تذكره الاثار المصرية عادة بين نهر النعماني والنهر الكبير او بين عكاء وارواد كما ذكرته الجغرافيات ولكن بعض المؤلفين وسعوا هذه الحدود الى اكثر من ذلك حتى اوصلوها الى ما بين مصر وكورة انطاكية ·

وقد جد علماء التاريخ وتضاربت آراؤهم في اشتقاق هذا الاسم من اصل سامي فلم يفز احد بنتيجة تقصيه عن حقيقته ·

وادعى العالم بوشار انه اهتدى الى حقيقة هذا الاسم وانه مشتق من لفظة « بنوعناق » ولكن العموم نبذ رأيه ·

وزعم البعض انه مشتق من لفظة « فنك » التي تأويلها عاش عيشاً ناعماً او من « فينيم » ومعناها الحجارة الكريمة والمرجان ثم استعملت بالاتساع بمعنى الاحمر · ولكن هذين الرأيين هما كذلك غير مقبولين عند جمهور العلماء اذ ان الفينيقيين كانوا كبقية القبائل السامية في الشرق فاما ان يسموا نفوسهم كنعانيين باسم وطنهم العام او يتخذوا اسماء خصوصية منسوبة الى

قبائلهم او مدنهم لا غير وهذا نقض كل قول باشتقاق هذا اللفظ من اصل سامي

وقد ورد هذا الاسم في كلام الشاعر اليوناني المشهور هوميروس و كلام ابي التاريخ هيرودوت ولكنهما جرياً على عادة تلك العصور المتقدمة ما كانوا يفسرونه الا بخرافة فقالوا ان هذا الاسم مشتق من فينقس ابي الفينيقيين .

ولكن لما ظهر في اليونان الفلاسفة والحكماء فسروا ذلك الاسم بتفاسير اخرى فزعم ارسطو ان الكنعانيين سموا فينيقيين لسبب قساوة التجار الاولين منهم .

وزعم البعض ان اسم الفينيقيين مشتق من فينقس اي النخل باليونانية وهو اقرب احتمالاً لان فينيقية كانت مشهورة في القديم بالنخل ولان هذا الشجر الجليل يجد الارض صالحة لمنبته في سواحل لبنان واول ما ينبت في جهات طرابلس ويقوى في بيروت وصور ويجد مكانا مريعاً في ارض عكاء ومما يؤيد هذا الرأي هو ان اخص المستعمرات الفينيقية نظير قرت حدست « قرطجنه » وعتيقة « اوتيكه » وقادش وغيرها كانوا يصورون النخل على مسكوكاتها .

ويوجد ايضا لاسم فينيقية معنى آخر اصلي واكيد في اليونانية وهو فينقس فقد يراد به ايضاً الاحمر والقرمزي او الارجوان

ويحتمل ان تكون صنعة الارجوان التي تفرد بها الفينيقيون في العالم القديم سبباً اوجه لهذه التسمية اذ لا يبعد ان يكون منظر الطيالس القرمزية التي كان يلبسها هولاء التجار مع النسائج الارجوانية التي كانوا يحملونها الى مدن الغرب للاتجار بها شده عقول اليونان والرومان على قلة تفقهم في ذلك العهد فلقبوهم بنفس اسم اللون الذي كانوا ينظروا اليه متعجبين

وذهب البعض الى ان اليونان كانوا يعدون المشرق منبع النور والنار وكانوا يلقبونه ببلاد الفجر وهو ميروس وهسيود وغيرهم من موءلفي اليونان واللاتين يوصفون النور بالاحمرار وهو معنى الفينيقيين

واخبر اغاثر سيد ان اليونان كانوا يعتقدون ان الشمس عند شروقها تبعث في جهات فينيقية اشعة شبيهه بالدم

وقد اثبت سنكن بتن الموءرخ البيروتي الكنعاني وهو اقدم الموءرخين ان اليونان سموا اولاً كنعان فنقس من غير ان يظهر انها اسمان مفترقان وزد على هذا ان اسم الفينيقيين كان يطلق على جميع القبائل الكنعانية كما وان فينيقية كانت تتناول كامل ارض الكنعانيين من البحر الاحمر الى النهر الكبير وهذا الرأي الاخير على ما ارى واتحقق هو الرأي الاثبت والاصح

الآثار الفينيقية

انه قد اشتهر بكشف الاثار الفينقية المسيو ارنست رنيان الفرنسي

جاء هذا العلامة لبنان سنة ١٨٦٠ م وسكن قرية عمشيت في كسروان نحو سنتين وطاف سورية فعثر على هيكل ادونيس او تموز في جبيل ومعابد الزهرة في اليمونه وآثار طرطوس وارواد وغيرها ودون كل ذلك واجاد بوصفه في كتابه المشهور باسم (بعثة فينيقية) . ولكن الذين جاءوا بعده من الباحثين خطأوا ارائه في كثير من المواضع

وقد نقل هذا الاثري كثيراً من الاثار التي اكتشفها في لبنـــان الى متحف اللوفر في باريس

ثم كثرت الاكتشافات الفينيقية بعد ذلك ومنها ما عثر عليه الدكتور

جول روفيه الفرنسي في ارواد وعرقا والبترون وجبيل وبيروت وقد كتب في ذلك رسالات ضافية .

والاثار المكتشفة والتي ستكتشف تدل على ان الفينيقيين وان لم يكونوا شعباً عظيماً فانهم شغلوا بلامراء جزءاً عظيماً في تاريخ التمدن القديم

ان الفينيقيين استعمروا سواحل سورية اتم استعمار فابتنوا مدينتيهم العظيمتين صور وصيدا وهم هم اول من شادوا المدر وبنوا الحجر .

اشتهروا بالملاحة وطافوا جميع انحاء بحري الروم والاسود وامتدت مستعمراتهم الى الجهات البعيدة والجزائر السحيقة واعظمها قرطاجنة في الغرب

وقد نقلوا اصول التمدن الى الانحاء التي نزلوها ووصلوا سكان شواطىء البحر الرومي بالامم الاخرى فالعالم يقر بفضلهم الى يومنا .

والحروف الهجائية التي اخذوها من مصر وحولوها الى شكل مختصر مفيد هي اليوم ام حروف لغات اوروبا والشرق

اكثر اثار الفينيقيين في متحف اللوفر الباريسي والمتحف العثماني في الاستانة ومن الاثار الناطقة لفضلهم في البناء حصن سليمان في بلاد النصيرية وهيكل تاووس في شمالي لبنان المعروف باطلال عقريم (عين عكرين محرفة عن عين عقريم) وسور البترون ،

ومن كتاباتهم ونقوشهم اثاردرج نهر الكلب والغينة والمشنقة في كسروان

تجارة الفينيقيين

لما كانت التجارة من اكبر اسباب العمران وجب علينا ان نفرد لها بابا في مؤلفنا لنثبت لقرائنا الكرام ما بذله اجدادنا الفينيقيون من الجهود لنيل

قصب السبق في مضمارها فكانوا اربابها وحملوا لوائها عالياً في انحاء المعمور فاقتطفنا زبدة مما اسهب به اقدم المؤرخين الثقات . واتضح لنا ان للتجارة اللبنانية تاريخاً مجيداً خليقاً بالاعجاب والمفاخرة وحقيقاً باستقراء كل باحث ومدقق في تاريخ الامة اللبنانية .

كان العصر الفينيقي ازهر العصور تجارة في التاريخ اللبناني ومن استقصى ابناء ذلك العصر واستنطق اثاره ملكته الدهشة لما اتصف به ابناؤه من الحذق والذكاء ومضاء العزيمة وما بلغوا اليه من الرقي والعمران

كان الفينيقون من حيث مهارتهم بالصناعة ونقل مصنوعاتهم الى الافاق ونفوذهم في الشؤون البحرية واتساع معاملاتهم التجارية اشبه بالانكليز اليوم ولو توفرت لديهم ذرائع النقل توفرها بالاختراعات المدهشة لدى تجارنا لفاقوا الاواخر كما فاقوا الاوائل في وفرة مواد تجارتهم وانبساطها ولما كان لهم من ند لا قبل ولا بعد في توفر غناهم ونشاط تجارهم وبعد همتهم .

احاطت بالفينيقيين شعوب ناصبتهم العداء فحصرتهم في مدنهم الساحلية وما يحيط بها من السهول اليسيرة والهضاب المرتفعة ووقع بين تلك المدن من التنافس والتقاطع ما ادى بها الى ان يستقل بعضها عن بعض واودى بسكانها الى العجز عن شن الحروب والتعيش من الاسلاب شأن مجاوريهم من ابناء زمانهم ووجدوا في ارض ضيقة النطاق قلت فيها البقاع الخصيبة الصالحة للزراعة

فقضت عليهم تلك الحال ان يكبوا على اتقان الصنائع والحرف وان ينقلوا مصنوعاتهم الى اقوام عديدين كان اكثرهم قليلي الالمام بها لسيطرة الجهل والانحطاط عليهم وقد ساعدهم على نجاح امرهم موقع مواطنهم المتوسط بين الشرق والغرب في شبه محطة تجارية مقطوعة النظير تلتقي بها طرق العالم المعروف

حينئذواستنباطهم الملاحة وعنايتهم بتحسينهاوترقيةشو ونها وتسخيرها لمواصلاتهم البحرية واتخاذهم القوافل البرية لحمل متاجرهم الى اقصى البلدان المعروفة وقتئذ فضبطوا بايديهم معاملات عصرهم برا وبحرا وسموا بحق اساتذة التجارة وقادة الملاحة ورسل الحضارة والعمران في عصرهم ٠

كانت مدن فينيقية في ذلك العهد زاهية زاهرة كثيرة المصانع حافلة بالسكان وافرة الغنى واسعة النطاق تغص موانئها بالاساطيل التجارية القوية الحسنة البناء المجهزة بالدفات والمجاذيف والاشرعة ولها طبقات تبلغ خمسا احيانا يديرها مهرة الملاحين من عامة انحاء البلاد يجوبون بها الاقطار وعليها كثير من الصادرات بين محاصيل ومصنوعات لاستبدالها بما يحتاجون اليه او يبيعونه بربح اوفر

اما مخازن التجارة في المدن الفينيقية فكانت في الغالب صغيرة واطئة تخترقها شوارع ضيقة بعضها مسقوف ومرصوف بالبلاط و كان الفينيقيون اول من عمدوا الى تبليط الشوارع ٠

اما المصنوعات التي اتجروا بها فقد اخذوا اصولها عن مصر منذ خضوعهم لها في سنة ١٧٠٠ قبل المسيح واخص هذه المصنوعات استحضار الزجاج وسبك المعدن وتطريقه ونقشه وصنع الخزف ونسج الكتان وصبغه على انهم قد جهدوا في تحسين مصنوعاتهم واتقانها مما اكتسبوه في مهاجرهم المختلفه من الاختبارات ٠

اما الرسوم التي استعملوها في الحفر والتصوير على مبيعاتهم فلم يأخذوها عن امة واحدة بل عن امم متعددة لذلك كانت فنونهم مركباً شرقياً عناصره الاصلية بلاد النيل وبلاد ما بين النهرين

واشتهر من مصنوعاتهم التجارية التي كانوا يحملونها الى الافاق البسط الزاهية الالوان ومسبوكات الشبه (البرنز) المزينة برسوم نصفها انسان ونصفها حيوان او برسوم السفنكس المصري (ابو الهول) او الحية الرمزية المعروفة باورواداي او برسوم اسود ونباتات رمزية وبعض الالهة كالبعل وملوخ وعشتروت وادونيس او برسوم فرس ذي جناحين ·

اما طريقة اداء الاثمان في التجارة اللبنانية فقد كانت في مطلع عهد الفينيقيين القياض والمبادلة شأنها عند بقية التجار في الشرق القديم ولما وضعت المعادن الموزونة موضع التداول كان الفينيقيون في جملة من بادروا الى التعامل بها ولا سيما في بذادرهم الكبيرة ولما كان وزن هذه المعادن في المبايعات باعثا على الارتباك واضاعة الوقت كان الداخل الى الاسواق التجارية في ذلك الحين يرى التجار قد اعدوا اكياساً في اوقات فراغهم ضمنوها من تلك المعادن مختلف الاوزان وعلى كل كيس كتابة تشير الى موزونه فاذا شاؤوا تأدية ما عليهم دفعوه من تلك الاكياس ذات الوزن المعلوم وقد جرى الفينيقيون على هذه الطريقة ولكنها ما كانت لتعفيهم من اصطحاب الموازين لزنة تلك الاقياس فيما لو خامرت عملائهم ريبة في صحة وزنها ·

وقد استمر بعض اللبنانيين يجرون على هذه الطريقة الفطرية في معاملاتهم على تتابع الايام فقد رأيت ان الفينيقيين ابدلوا زيتهم في ترشيش بمقدار من الفضه وباع حيرام ملك صور من سليمان ملك اسرائيل اخشاباً من ارز لبنان بعث اليه بها اطوافاً في البحر قياضاً بعشرين الف كر من الحنطة وعشرين الف كر من الزيت (الكر ٤٠ اردب والاردب ٢٤ صاعاً والصاع مكيال)

وبدأوا اسفارهم البحرية في سبيل التجارة بقبرس واكريت وجزائر

البحر الرومي ثم تبعها اسفار من نوعها في الدردنيل ومرمرا والبوسفور انتهت بهم الى البحر الاسود وما يقع ورءها من المدن وكانوا من جهة ثانية قد اخذوا يقومون باسفار الى شمالي افريقية وجنوبي اوروبا فطرقوا مصر وتونس والجزائر واليونان وايطاليا وفرنسة واسبانيا ثم اجتازوا بوغاز جبل طارق واتجهوا جنوباً الى شواطىء البرتوغال ثم ظلوا يمعنون في ابحارهم حتى بلغوا انكلترا وروى بعضهم انهم توغلوا في الاوقيانس الاتلانتيكي وسبقوا كولومبس الى كشف اميركا وكانت كما تبين لك البلدان التي اتجر معها الفينيقيون كثيرة قد بين المؤرخون ما كانوا يصدرون اليها ويستوردون منها وينشئون فيها من الملاجىء والمواقف والمخازن والمعامل والمستعمرات

وما كان الفينيقيون وقد عرفوا ببعد الهمه ليتأخروا عن تسيير سفنهم التجارية في البحر الاحمر فان احد ملوكهم في صور المدعو حيرام انشأ مع معاصره سليمان الحكيم ملك اورشليم اسطولا تجارياً كبيرا بناه صناع فينيقيون من اخشاب لبنان في «عصبون جابر» وهي مدينة كان موقعها تجاه ترعة السويس الى الشرق في محل القرية المسماة الان «عقبة» فكان تجارهم يسافرون منها مع عبيد لسليمان الى اوفير وهي جند من اجناد الهند على ما يذهب العلماء الثقات موقعها عند مصب نهر الهندس فكانوا يصرفون في كل سفرة نحوا من ثلاث سنين ذهاباً واياباً وفي جميع اسفارهم كانوا لا يأتمون بغير الكواكب لمعرفة الجهات الاربع واستمرت هذه الطريقة في الابحار شائعة حتى اخترع الحك او الابرة المغناطيسية واولى اسفارهم التجارية البرية كانت في اسيا فجابوا خلالها مدن سورية وشرقي الاردن والحجاز ونجد واليمن والعراق والعجم وكيليكية وبر الاناضول وبلاد الكرج وغيرها

واخذوا بعد حين يتجشمون الاسفار من هذا النوع في اوربة وافريقية فينقلون بها على القوافل مفرغات سفنهم من الموانيء الى البلدان الداخلية ثم يعودون من تلك البلدان بحواصل وموارد يعرضونها للبيع في مخازنهم بالثغور او يحولونها الى مصنوعات في مالهم فيها من معامل او يشحنونها على سفنهم من فينيقية الى بلد آخر وفقاً لما يرونه اجدر لهم واكثر عائدة عليهم ·

على ان ما جمعه الفينيقيون في مدنهم واسواقهم ومنازلهم من اموال ونفائس اهاج عليهم مطامع الملوك الاقوياء الذين عاصروهم من مصريين واشوريين وكلدان وفرس وغيرهم فهاجموهم وفتحوا بلادهم ولكن هؤلاء الغزاة كانوا يرون انفسهم بحاجة الى من غزوهم للاستعانة بمعارفهم في كثير من مهامهم الحربية والاجتماعية فخولوهم امتيازات كثيرة من مثل اعطائهم حرية الاتجار واصدار الاوامر بتأمينهم وحمايتهم وتخفيف المكوس عن تجاراتهم فكان ذلك مما نشطهم على مواصلة التعامل وسهل امامهم المصاعب وبلغ بتجارتهم مبلغاً رفيعاً

ومما اشتهر به الفينيقيون في اسفارهم البحرية القرصنه او لصوصية البحر فكانوا يغيرون بسفنهم المتينة على ما كانوا يصادفونه في طريقهم من السفن الضعيفة للامم الاخرى فيسلبونها مشحوناتها ولكن ذلك عاد عليهم بالوبال لان اولئك المعتدى عليهم بعد ان حسنوا ملاحتهم وتقووا بما تعلموه من المعتدين اخذوا يعاملونهم بالمثل ولم يلبثوا ان ضعضعوا متاجرهم واخذوا ينتزعون ما كان في ايديهم من المستعمرات والمعامل ·

اما مواد تجارتهم فكانت اكثر من ان تعد نقتصر على ذكر اشهرها : كانوا يصدرون من بلادهم البرفير والارجوان ومنسوجات الصوف والكتان

وخشب الارز والاسماك المقددة والحلي وانواع المعادن وتماثيل الآلهة والخزف كالجرار والقدور والصحاف والكؤوس وماشا كل ٠

و كانوا يستوردون من مصر وبلدان افريقية البز الموشى والمعادن والاخشاب الثمينة ومن جزر الارخبيل والبلدان الاوربية النحاس والحديد والشمع وقصب الذريرة (من انواع الطيوب) والعسل والزفت والكهرباء ومستخرجات المعادن كالذهب والفضة والرصاص والقصدير الذي كانوا يستخدمونه في ما يصنعون من الصفر (اى النحاس الاصفر) ومن فلسطين الخمر والصوف والحنطة والحلوى والعسل والزيت ومن بلاد العرب المرّ والبخور والطيوب والكباش والتيوس والجمال مع ما كانوا يصادفون فيها من بضائع الهند والحبشة كالعاج والاخشاب ذات الرائحة الزكية والذهب والآبنوس وريش النعام ٠

ومن بين النهرين وبابل الوشي والكتان والياقوت والمرجان والخمر والانسجة الفاخرة والحلي والاثاث والعطور المستقطرة ٠

ومن ارمينية وبلاد فارس والانحاء الشمالية الرقيق وآنية النحاس والخيل والبغال وبزر الحرير ٠ ومن الهند الذهب والطاووس والصندل والقردة ٠

وفي ايام الدولة اليونانية بلبنان ذلت صور بعد ان دمرهـا الاسكندر ووقفت تجارتها ولكنها لم تلبث ان نهضت وشاركت زميلاتها الفينيقية بمسابقة الامم في التجارة طيلة الحكم اليوناني

وانشأ اللبنانيون على عهد الاحتلال الروماني عهد الانعاش في ايطالية وافرنسة واسبانية وجرمانية محلات وجمعية تجارية هامة وتاجروا بمصنوعات ومحاصيل شتى و كتب احد المؤرخين عن صور انها كانت اعظم محطة تجارية في الشرق في عهد الرومان ٠

ومن متاجرات اللبنانيين في هذا العصر منسوجات الصوف والكتـــان والحرير والارجوان والخمر والغراء والطيوب والبهار والنحاس والرصاص والحديد والزجاج وضروب الحبوب والفواكه ·

ولم يزل بعض تجارنا يجري على هذه الطريقة ويستبدلون بضائعهم بالحنطة والزيت والسمن والخ · واخترع المصريون بعد حين حلقات معدنية اشبه بالخواتم ذات اوزان محدودة مرقومة عليها بحروف محفورة ويرجح ان هذه الحلقات اتصلت بالفينيقيين لكثرة المواصلات بين البلدين فتعامل هؤلاء بها وروجوها في بلادهم ومستعمراتهم

ثم اصدر القرطجنيون الفينيقيو الاصل نقودا من جلد عليها خاتم المملكة ضماناً لقيمتها ويرجح ان فينيقيي لبنان لم يترددوا عن التعامل بها بسبب جامعة الجنس وتوافر الصلات التجارية بين الشعبين · ومما نلاحظه هنا بالفخر ان تلك النقود الجلدية كانت راشدا للنقود الورقية العظيمة الرواج في هذا العصر لسهولة التداول بها وان اسلافنا الفينيقيين كانوا السابقين الى هذا الاكتشاف والعلة الاولى في تنبيه الافكار اليها ونشرها ما نلمسه في هذا العصر من جزيل فوائدها

وحوالى القرن السابع قبل المسيح ظهرت النقود المسكوكة في ليديه احدى الممالك اليونانية في بر الاناضول لمخترعها الذي على ما يرجح اسمه فيدون من ارغوس

فلم تلبث ان اتصلت بالفينيقيين فتعاملوا بها ولما سيطر خلفاء الاسكندر على فينيقية اذنوا لاهلها بسك نقود وطنية فاصدروا لكل مدينة من مدنهم نقودا خاصة عليها تاريخ ضربها بالتاريخ الفينيقي واسم المدينة المضروبة فيها مع رموز وشعارات فينيقية

وسك الرومان والبيزنطيون والعرب والصليبيون ومن قام من بعدهم من الدول التي سيطرت على لبنان كالفاطميين والايوبيين والمماليك والدولة العثمانية نقودا تعامل بها اللبنانيون مع ما اتصل بهم من مسكوكات الدول التي اتجروا معها في سياق الاجيال فكادت بلادهم تكون معرضاً لنقود العالم قديماً وحديثاً اما المعدودات التي استعملوها في التجارة ولا سيما المكاييل والموازين فقد اتخذوها بادىء بدء عن المصريين ثم استعملوا المعدودات الاشورية فالفارسية فاليونانية فالرومانية فالعربية فالاوروبية ولم تكن لهم معدودات خاصة .

اما المدن التي كان لها السبق على سواها في المعاملات التجارية فاولها صيدون التي جاب تجارها البحار وضربوا في الآفاق فاحرزوا شأوا بعيدا من الثروة والسبق في مضمار التعامل وبعد ان سقطت صيدون في السنة ١٢٠٩ قبل المسيح بسبب تدمير الفلسطينيين لها تلتها صور وبلغت صور من امتداد التجارة وسعة الثروة مبلغاً عظيماً حتى قال فيها الكتاب : صور تتوج الملوك وتجارها امراء ومكتسبوها كرام الارض قد بنت لها حصنا فكثرت فيها الفضة كالتراب والذهب كطين الشوارع .

ومن اثار تنشيط الرومانيين للتجارة والمعاملات اللبنانية ما انشأوه او اصلحوه في لبنان من الطرق المتينة لسير القوافل .

واخص هذه الطرق اثنتان احداهن في الجبل والاخرى في السواحل اما طريق الجبل فكانت تمتد من جبيل الى بعلبك مخترقة ما بينها من المرتفعات مارة فوق العاقورة وعلى مقربة من بركة اليمونة (اليمونة اي البحر الصغير) وقد اقام الرومان المخافر على تلك الطرق بين مسافة واخرى لتأمين القوافل وحماية ابناء السابلة وعززوها بالجند وبنوا قربها الخانات ومرابط الخيول ومحطات

البريد ونصبوا بين كل ميل وآخر انصاباً من الحجارة عليها ارقام تدل على البعد عن المدن وترشد الى المسافة الواجب على المسافرين اجتيازها للوصول الى حيث يقصدون ٠

اما طريق الساحل فكانت تمتد على شاطئ البحر من الجنوب الى الشمال ويظن ان الفينيقيين سبقوا الى فتحها وجعلها في حال تمكن مركباتهم وقوافلهم من السير عليها فلما احتل الرومان البلاد ونرّوها على الطراز المعروف بهم ففرشوها بالحصباء وكسر الخزف والآجر المعجون بالملاط الشديد ورفعوها من الوسط وحدّبوها من الطرفين واقاموا الى جانبيها رصيفين من الحجارة الضخمة

وفي اوائل القرن السادس لعهد الدولة البيزنطية اثار كسرى انوشروان سنة ٥٤١ م حرباً زبوناً على لبنان جرت عليه ويلات فادحات واسر من اسر وانهظ عاتق من لم يؤسر باثقال المظالم والمغارم ٠ فانحطت التجارة اللبنانية من جراء ذلك ولما اصاب مدنه من الزلزال ٠ ولبثت التجارة اللبنانية في خمول وانحطاط على عهد العرب لان الفاتحين من الامويين الى العباسيين الى الفاطميين حصروا همهم في تحصين سواحل لبنان وتحويل مدنه الى فرض حربية وتخصيص اساطيله التجارية بالمهام والنقليات العسكرية فشحنت تلك الاساطيل بالمقاتلة الذين كانوا يجندون للدفاع عن الثغور ورد هجمات الروم عنها فعم الخراب تلك المدن وخيمت فوقها سرادق الفاقة والشقاء ولم يبق فيها من التجارة الا حوانيت صغيرة كانت تستورد من الداخلية حاجاتها من السلع وهي دون الطفيفة ٠

وقد زادت تلك الحال سوءا الزلازل التي حصلت في الجيل العاشر والحروب التي شنها على سواحل لبنان ملك الروم نيقوفور في سنة ٩٦٨ م وغزوة

الملك زيميس الذي يدعوه العرب بـابن الشمشقيق (سنة ٩٧٥ م) وغزوة الحاكم بامر الله الفاطمي لصور في سنة ٩٩٨ ومما يذكر عن هوءلاء الجنود انهم نهبوا ما وجدوه في المدينة من اموال واسروا واليها العلاقة مع كثيرين من رجالها وحملوهم الى مصر حيث قتلوهم وسلخوا العلاقة وحشوا جلده تبناً .

وفي ايام الصليبيين استعادت مدن لبنان شيئاً مما كان لتجارتها من العز السابق فأنشأت المواصلات التجارية مع الحواضر الجنوبية من ايطالية وفرنسة فكانت مراكب الفرنجة تأتي من البندقية ومرسيليا وجنوى في اوقات معينة ناقلة البضائع الغربية الى الشرق وتعود منه حاملة مرافقه الى مرافيء اوربة حيث كان يحملها التجار من هناك وينشرونها في المدن الداخلية الاروبية حتى لم تك مدينة واحدة من تلك المدن تخلو منها وقد وصف رحالة فارسي اسمه نصري خسرو مدن لبنان اثر زيارته لها في عهد الصليبيين وصفاً دل على انها كانت عظيمة الازدهار كثيرة المرافيء رائجة التجارة .

فمما قاله عن طرابلس « ان اسواقها كانت كالقصور » وقال عن صيدا انه دخلها فرأى اسواقها حسنة ومخازنها مزدانة بالحلي فظن ان اصحابها كانوا بانتظار احد الملوك فسأل عن خبر ذلك فاجابوه « ان المدينة هي ابدا على تلك الصورة » ثم تقدم الى صور فقال عنها : « انها اغنى مدن لبنان واسعدها » ومن وصفه هذا لتلك المدن وقد رآها مرأى العين . يستدل على ان حالها التجارية كانت مرضية وان اهلها كانوا قد عادوا الى الكسب من مزاولـة المتاجرات جرياً على آثار الفينيقين الذين تقدموهم في سكناها .

ولما غلب الصليبيون على امرهم في الشرق وطردوا منه مالت التجارة في لبنان الى الوهن لان هوءلاء لبثوا مدة يشنون الغارات المتتابعة على مدنه

الساحلية ويفتكون باهلها وينهبون اموالهم على ان تلك الغارات لم تلبث ان قلت ثم انقطعت واخذت مراكب الافرنج بعد انقطاعها تتوارد حاملة المتاجر مدة بعد اخرى واكثر تلك المراكب كانت بادىء ذي بدء للبنادقة (الايطاليين) فكانوا يقفون بها في قبرس وكان صاحب قبرس يبعث بيضائعه في شونتين له الى بيروت نقلة اثر نقلة (الشونه المركب المعد للجهاد في البحر) مع تجار من القبارسة انشأوا لهم في بيروت الخانات والحمامات والكنائس

ثم دأب امراء لبنان من التنوخيين الى المعنيين الى الشهابيين في عضد المعاملات التجارية واجراء التسهيلات اللازمة لها فازدهرت في عهدهم المتاجرات وعقد الامير فخر الدين الكبير معاهدة تجارية مع امراء اسرة المديشيس اصحاب توسكانا على يد الدوقين فرديناند الاول وقزما الثاني في سنة ١٦٠٩ م راعى قواعدها ومقاصدها ومما يؤثر عنه انه مكن بعض التجار الفرنسيس والفلمنكيين في صيدا من بعض الفنادق والخانات (المباآت) واخذ بيدهم وحافظ على مصالحهم وسننهم فراجت في ايامه تجارة لبنان البحرية واخذت المرافىء اللبنانية تغص في المراكب فكان ما يرسو منها في الثغر الواحد لا يقل عن مائة وخمسين مركباً . وكانت تلك المراكب تقلع من الشرق شاحنة منه اصناف المحصولات ولا سيما القطن الذي كان يزرع في عكا وضواحيها وكان اكثر المرافىء خطورة لذلك العهد بالحركة التجارية مرفأ بيروت ويليه مرفأ صيدا فمرفأ صور .

ولم تذهب عناية الامير فخر الدين بالتجارة سدى فانه جمع مالا وافرا من المكوس التي ضربها على الصادرات والواردات فبلغ دخل خزانته السنوي منها نيفاً وتسعمائة الف ليرة ذهبية .

والمكوس التجارية قديمة العهد في لبنان ترجع الى العهد الفينيقي فقد

ذكر عن ملوك فينيقية انهم ضربوا المكوس على الصادرات والواردات وكان للرومان مكوس منظمة بدواوين وعمال وفي ايام التنوخيين اعيد تنظيم تلك الدواوين فاقيم على كل من ابواب المواني، عامل وناظر وشاد ومشارف فكان هؤلاء الموظفون يأخذون المكوس على كل ما يصدر ويرد من البضائع ويرفعونها الى خزانة الحاكم المسيطر على المدينة وحافظ خلفاء فخر الدين من اقاربه المعنيين والشهابيين على معاضدة التجارة فاستمرت تتقدم مزدهرة في ايامهم ثم بدأت الدول الاوروبية تسعى في عقد معاهدات تجارية مع الشرق ولا سيما مع مصر وحكام سواحل لبنان وحينئذ اخذ الافرنج يتوافدون الى بيروت وجلهم من اهل ايطاليا لذلك ترى اكثر الكلمات الوضعية للتجارة التي ما زال يجري عليها تجارنا من ذلك العصر ماخوذة عن الايطالية مثل بروتستو وفاتورة وبوليسة واسكونتو وماركة ودوبيا وما شاكل .

وفي اوائل الجيل السادس عشر عقد العثمانيون مع ملوك فرنسة معاهدات تجارية لمصلحة الدولتين فصارت السفن الافرنسية تقصد لبنان وعليها ضروب التجارات من محصولات الغرب ومصنوعاته وتعود ناقلة اصناف السلع الشرقية فراجت المعاملات واخذت التجارة اللبنانية تتجدد وتسير في سبيل الفلاح والترقي .

ومن اهم التجارات اللبنانية في ذلك العهد تجارة الحرير العربي الغليظ واشهر من زاولوا هذه التجارة آل مشاقة الديريون (من دير القمر) فاطلق عليهم اسمها وتجارة الحنطة والحبوب وكانت تزاول مع حوران وحمص وجبل القلمون وتجارة الغنم والصوف واكثرها كان رائجاً مع الموصل وبغداد وارضروم واشتهر منها ايضاً القوارير الزجاجية التي تلوح منها الوان قوس قزح

والصيني والازرق الفاخر والامشاط العاجية الجميلة المحفور فيها اسود بطريقة التخريم والتفوير وسرج الاستصباح وانواع الحلي من الذهب والفضة والنحاس كالقلائد والاساور والخلاخل والدمالج والاقراط والمكاحل والخواتم وما شاكل والاثاث المرصع بالعاج ترصيعاً انيقا والكؤوس المنقوشة نقشاً يبهر الابصار والاطباق الكبيرة المستديرة المصنوعة من الشبه او الفضة المنقوشة عليها ازهار من الخندقوق او مشاهد صيد على ضفاف النيل او رسوم شجرة الحياة ٠

ومنها انواع الملابس (كالكيتون) الذي قيل ان لباس الكهنة اللبنانيين الكنسي المسمى (الكتونة) متفرع منها وكالحلل الارجوانية الفاخرة التي كانوا يبيعونها من الملوك والعظماء باثمان باهظة تعود عليهم غالباً بربح لا يقل عن ٣٠ الى ٥٠ بالمائة ٠

والارجوان كان احمر بنفسجياً او ناصعاً او يخالطه نوع آخر وفاقاً لخاصة الصدف البحري المأخوذة الصبغة منه وافضل صباغ كان ما أُخذ من الاصداف العائشة بجانب صيدا وصور وكان للفينيقيين مصائد لهذه الاصداف في كثير من الشطوط خارج بلادهم فكانوا يصطادونها بآلات يضعون فيها نتفا من اعصاب الضفادع فاذا امسكوها انتزعوا منها اكياس الصباغ بعد اماتتها تدريجاً لان اماتتها دفعة واحدة كانت تؤذي الصباغ وتقلل من بهائه وثمنه وكانت دكاكين صباغي الارجوان بعيدة عن المدن الفينيقية بسبب ما كانت تنشره حولها من الرائحة الكريهة المنبعثة من تلك الاصداف بعد موتها ٠

ونالت بيروت في ايام الرومانيين امتيازا خاصاً فازداد عدد التجار والاغنياء بين أهلها ولكنها لم تصل رغم ذلك الى مثل ما سبقتها اليه صور في ايام سؤددها على ان عطارد (اله التجارة عند الاقدمين) نظر الى بيروت

بعين الرضى في الايام الاخيرة فآلفها السعد وازدهرت تجارتها ووفرت ثروتها فلقبت بعروس الشرق ولوءلوءة البحر المتوسط ٠

ومما مهر به اللبنانيون في العصور المتأخرة عمل الاجراس وحياكة الديبا وحل الحرير وتوليد بزور الحرير ورسم النقوش وتصوير الملامح البشرية على القماش ٠ واستخراج العرق والخمور وتجهيز لفائف التبغ وكان لهذه المصنوعات عندهم تجارة رائجة جنوا منها الارباح الطائلة وبرهنوا فيها على انهم خليقون بالانتساب الى اولئك الاسلاف الذين ادهشوا العالم بمقدرتهم التجارية ٠

ان لبنان ما برح حتى اليوم بموقعه الجغرافي اوفق محطة للتجارة فعلى ابنائه وقد توفرت لديهم الذرائع للمعاملات التجارية في مثل انتشار العلوم واختراع البخار والكهرباء ان يكبوا على الصناعة والتجارة فيحرزوا من الثروة والعمران ما احرزه الفينيقيون اسلافهم ويوصلوا جمهوريتهم اللبنانية الفتاة الى ابعد ما وصلت اليه المدن الفينيقية القديمة من السوءدد والمجد والرقي ٠ ولاسيما وقد كشف البخار في مدة القرن التاسع عشر وبعد قليل كثرت طرق العربات وشقت سكك الحديد ومدت اسلاك البرق والندي (التلفون) واقبل الناس على المهاجرة الى اوربة واميركا واوستراليا في سبيل الاتجار فأدى جميع ذلك الى نمو التجارة اللبنانية وايجاد جاليات تجارية لبنانية في اكثر المالك ولاسيما في ممالك العالم الجديد واوستراليا ٠

وقد سابقت هذه الجاليات اللبنانية غيرها من ابناء الجاليات الاخرى وابناء البلاد الذين حلت بينهم في مضمار المعاملات فاحرزت عليهم فضل السبق وفي كل مدة يعود منها فريق الى لبنان فيدأب في ترقية شوءونه وانماء اقتصادياته وانشاء المباني الجميلة فيه وتعضيد الحركة التجارية بين ظهرانيه وحبذا ان يزداد

يوما بعد يوم عدد العائدين فيحولونه بما يوجدونه فيه من الاعمال الى فينيقية جديدة لها فوق ما كان لفينيقية القديمة من العز والثروة والجاه وانبساط التجارة

=«»=

جغرافية لبنان الحيوانية

يستقل بحيوانات كل قطر على مناخه فان الحيوان تسوقه غريزته الى استيطان ما يجد فيه موائمة لحياته فيستقر هنالك استقرار رب البيت في بيته ولا يرحل الا متى ضاق عليه الرزق او وجد من شدة حر القطر او برده ما لا يناسبه

ولبنان يجمع في محيطه الجغرافي مناطق طبيعية متعددة لان قنن اعاليه ترتفع في جبل المكمل الى علو عن سطح البحر قدره ٣٠٦٧ مترا وتهبط اغواره الى ان تعلو قليلا عن سطح البحر وكل منطقة تستدرج اليها الحيوانات والاطيار التي تجد فيها راحتها وغذاءها

ففي طرف لبنان الجنوبي في منتهى الوادي الذي يمر فيه نهر الليطاني شمالا من بحيرة الحولة التي يدعوها الكتاب المقدس ميروم (يش ١١ : ٥) غور يضم لبنان في نطاقه جزءه ولفلسطين ما تبقى منه وهو يمتد جنوباً الى خليج العقبة الذي تتنازع الآن في امره حكومتا شرق الاردن المعدود صقعاً فلسطينياً والحجاز الصقع الاعلى في شبه جزيرة العرب — فهذه البقعة تكاد تكون من المنطقة الحبشية الحارة فلذلك يستقر في غور الليطاني بعض الحيوانات

الافريقية من الطائر في الجو والداب على الثرى

وفي لبنان الشمالي الذرى الرفيعة التي تضاهي قنن جبال الالب في اوربا وهي متصلة بها على بعض تفكك لا يعتد به فشمالي لبنان يتصل بجبال النصيرية اي اللكام وهي تتصل بجبال طورس منتهى حدود القطر السوري وهذه تتغلغل سلسلتها سائرة غرباً الى ان تنتهي على ضفة بحر مرمرة في الجانب الشرقي من البوسفور ثم تناوحها سلسلة متصلة بجبال البلقان وهذه تمتد الى ان تصل الى جبال الالب وهي من اوربا الوسطى كالقلب او الكبد من الجسد

ولما كانت انواع عديدة من الطيور اشبه بالعشائر العربية القائمة على تربية الماشية والتنقل بها في طول البلاد وعرضها انتجاعاً للكلأ وقد درس علماء الحيوان طبائع هذه الطيور واستقروا اماكن انتجاعها فلا غرو ان استهدي بتلك الطيور على معرفة مناخ البلاد

فحيوانات لبنان الدابة تنتمي الى ثلاث فصائل وحيواناته الطائرة تنتمي الى اربع قبائل وحيواناته الزاحفة اربع طوائف (الطائفة موءلفة من قبائل عديدة والقبيلة موءلفة من فصائل والفصيلة موءلفة من انواع) وهنا بسط الكلام على كل منها

الحيوانات الدابة

الفصيلة الاولى — الحيوانات اللبونة الكبرى — المراد بهذه الفصيلة الحيوانات الفاتكة او ذات الحجم الذي يفوق حجم الماعز وفي لبنان من هذه الفصيلة ما ياتي

١ — الدب . هذا النوع اشبه بالثور او الحمار وهو يقتات بالثمار والجذور

ويفترس بعض الحيوانات البرية فلا اذى منه الا ان الجوع قد يعضه في زمهرير الشتاء فيضريه ويهاجم الدساكر بل القرى بل القصبات يبطش بالغنم والماعز وربما حمله السغب على مهاجمة الحمير والبقر والبغال وهذا الحيوان مقره في لبنان الغربي في كهوف في ارجاء صنين وفم الميزاب وقد شوهد مرارا يهاجم القرى الصغيرة مثل عين القبو والمشرع وقد روءي في الشوير اما في لبنان الشرقي فيكثر في سرغايا وما يمتد اليها ويقال عن احد اشداء قرية صيدنايا انه كان خبيرا بأوجرة الدببة في الجبال المتاخمة لقريته فكان يقصدها تحت جنح الدجى ويأتي باحدها حينما يطلب منه ذلك

٢ — النمر · هذا النوع هيكله اصغر من هيكل الدب ولكنه اشد بأساً واقوى عزيمة واسرع خطوة وهو يقفز قفزات متسعة الفسحة ودأبه مهاجمة قطعان الغنم والماعز وربما بطش بالثور ولا يحجم عن حيوان ضار وكان مستقره في وادي الدامور والاودية التي بقربه ووادي الاولي في جوار جزين ووادي الليطاني ولكن لبنان قد خلا منه الا ان الاحراج التي تناوح قلعة الشقيف لا يزال مجاوروها يزعمون وجوده فيها

٣ — الضبع — ندر وجود الضباع في لبنان ولكن الصيادين اللبنانيين ما برحوا يظفرون بافرادها · وانحاء اهدن وجوارها غير خالية منه

٤ — الذئب · هذا الحيوان ما برح مستوطناً في صرود الجبال وهو يفاجيء قطعان الماشية في معظم الاوقات ليلاً فالرعاة دائمو الحذر من مفاجآته وربما هاجم القطيع نهارا ·

٥ — الخنزير البري · هذا الحيوان كثير في غور الاردن وربما أتى الى الاطراف الجنوبية من لبنان والصيادون ربما تعقبوه في موطنه فيفر منهم

حتى يصل الى لبنان ويلوذ بما يجده من محاجىء و كهوف

٦ ــ الغزال · هذا الحيوان قليل الوجود في لبنان ولعل قلته لحاجته الى المرعى الفسيح ويقال ان السهول المتاخمة مدينة حمص يكثر فيها ولعل بعض الصيادين يطاردونه فيفلت من امامهم وينتهي الى اوعار لبنان

الفصيلة الثانية ــ الحيوانات اللبونة المتوسطة الحجم فهي بحجم الماعز او اصغر

١ ــ الثعلب· كثير الوجود في لبنان وربما برز نهارا وقد يمر به المكارون وهم يسيرون في الطرق المطروقة فيقف غير حذر الا متى رأى هجوما عليه او سمع صوت طلقة نارية وهو يبطش بالجداء متى استطاع ذلك ويسطو على الدجاج ويضر الكروم

٢ ــ ابن آوى (الجقل) لا يزال ابن آوى كثيرا في لبنان وهو يتصيد الدجاج وربما هاجم في منتصف النهار القرى ومضرته بكروم العنب كبيرة وابناء القرى البنانية ينصبون له الفخاخ وربما القوا له الزبيب والقضامة ليتمكنوا من استدراجه الى حيث يصطادونه

٣ ــ الغرير · هذا الحيوان غير قليل وهو يقتات بالثمار وجذور الاشجار وهو بحجم الثعلب الا ان الفرق بينهما ان الغرير بارز الاذنين كأنهما قرنان وقصير الذنب وجلده اكثر ملوسة ولحمه يوءكل يكثر وجوده في حقول اهدن وما يجاورها

٤ ــ القط البري · هذا الحيوان يعيش على الجرذ والحيات وخراطيم الارض فهو نافع للحقول ولحمه لا يوءكل

٥ ــ القنفذ · حيوان كثير الضرر لانه يسطو على المزروعــات ولكن الاهتداء اليه عسير لأنه يشابه الوان الاعشاب واذا شعر بان وراءه متعقباً قذف

عليه من اشواكه التي على ظهره وهي كثيرة تغطي ظهره وجانبيه وهي ثخينة كقلم الرصاص وهو يعيث فسادا في حقول البطيخ والجزر والبطاطا واللوبياء والفول والحمص وامثالها ولحمه يوءكل

الفصيلة الثالثة — الحيوانات اللبونة الصغيرة

١ — الساحوب (وهو المنجوس) يكثر نوعاً في الجبل وهو يرد الى لبنان من مصر طافيا على موج البحر ويكثر في زمن الربيع والخريف وهو يعود الى مصر شتاء

٢ — النمس — هذا الحيوان غير قليل وجلده مما يصنع فراء وقفازات وثمنه جيد

٣ — ابن عرس . هذا قليل في لبنان والمشهور عنه انه يصطاد الاطيار وربما اجترأ على البروز من مخباه في البيت متى شعر بوجود طائر كالحمام او البلبل وهو يوجد في المدن السورية كدمشق فضلا عن القرى

٤ — السنجاب كثير حيث اشجار البلوط والجوز والصنوبر وهو مما يكثر في حقول القطر الشامي

٥ — الخلد ويدعى ايضا الجلذ ويجمع على مناجـذ (اللغويون بينهم خلاف في هذا الجمع ففريق يقول جاء هذا الحرف جمعاً بلا مفرد وفريق يقول له مفرد ولكل منهما ادلة ليس لها محل في هذا الكتاب التاريخي) هذا الحيوان كثير الوجود ومستقره في جوف الثرى ولطول اقامته فيها عمي وهو قوي الشعور بسمعه فاذا احس بعدو لاذ بمخبأه وعيناه اثريتان كل منهما بحجم الدبوس يعلوها جلد لا اهداب له وهذا الحيوان كبير الضرر بالمزروعات ولاسيما الثوم والبصل

٦ ــ الجرذ البري والفارة البرية من اضر الحيوانات بالمزروعات وهما يتناسلان بكثرة فلا وسيلة للفتك بهما الا تكثير القط البري والجوارح الصغيرة كالباشق والبوم والشاهين

٧ ــ الارنب البري هو حيوان ضار بالحبوب والبقول يصنع لنفسه جحرا (ملجاً) على مثال الخلد ولعله يصنعه لوقاية نفسه واولاده من الثعالب وبنات آوى وامثالها وقد أولع الصيادون بصيده حتى بات نادرا ويعد من الحيوانات الكثيرة التوالد

٨ ــ الوبر (ويدعوه العامة الطبسون) يدل وجوده في لبنان على انه في الاصل من موطن افريقي جاء الى لبنان منتقلا اليه من موطنه الاول وطاب له القرار فيها

٩ ــ كبابة الشوك ٠ هذا حيوان اشبه بالقنفذ وبينهما فوارق منها ان القنفذ من القواضم والكبابة من آكلات الحشرات ولكل منهما امتياز عن الآخر فهما مختلفان في الحجم والشوك

وكبابة الشوك مفيدة بانها تفترس البزاق العريان والفيران الصغيرة وخراطيم الارض ولكنها مضرة اذا شعرت بدود القز فهي تفتك به فيجب على المعتني بالدود ان يتنبه لها

١٠ ــ الخفاش ــ الوطواط هذا حيوان معروف في لبنان ومنه انواع عديدة فالكبير منه بحجم الجرذ وهو مضر لانه يعيش على الفواكه ٠ اما الصغير فمفيد لانه يعيش على البعوض والفراش وخراطيم الارض

=()=

الحيوانات الطائرة

القبيلة الاولى الطيور المستوطنة

هذه القبيلة آثرت البقاء في لبنان مدى الفصول الاربعة فلا تبرح منه وهذه اسماء انواعها

١ — الغراب — يعرف بكبر جسمه وبلون ريشه الاسود الذي يضرب به المثل ويقتات بجيف الحيوانات المائتة واشارة الى قوته قال الشاعر

اذا كان الغراب دليل قوم · فحولهم على جثث الكلاب

٢ — الغاق — يقال ان اسمه اخذ من صوته فهو يصيح دائماً غاق غاق وكان العرب يحسبونه غراباً ويقولون عن الحقل المخصب ليس غرابه بمطار والفرق بينه وبين الغراب ان هذا ريشه اسود اسحم تعلوه خضرة او زرقة والغاق لون ريش جسمه رمادي ورأسه ومذبحه وجناحاه سود وقوته الحبوب وخراطيم الارض فضرره مقتصر على براعم البزور لدى اول نموها

٣ — ابو زريق — جميل الريش اسمر الجسم اسود الرأس والذنب ابيض المؤخر يستوطن بين البلوط والصنوبر والزيتون والعفص كثير الحذر يقتات بصمغ الاشجار والبرغش والذباب ومن الواجب ان تعتني الحكومة اللبنانية بان توطنه في الاحراج التي بجوار المدن التي يكثر فيها البرغش كبيروت فانه اذا ترك وشأنه يقل خوفه حتى يجترىء على بناء عشه بالقرب من مساكن الناس

٤ — زاغ الصرد — اعطي اسمه من صوته زاغ زاغ — اشبه بالغاق الا انه يخالفه بان منقاره اصغر وقائمتيه حمراوان يستقر في رؤوس الجبال بقرب

من خط الثلج وهو يستوطن اسراباً اسراباً في القنن العالية ويمتد جيشه شرقاً الى جبال حملايا في الهند وغرباً الى جبال اسبانيا ويغادر قنن الجبال في الشتاء وراء القوت وهو كالغاق في اكتفائه بالحبوب وخراطيم الارض

٥ — البلبل والشحرور والعندليب والهزار — اطيار يضرب بها المثل في رخامة الصوت — لا تفرق العامة بينها فهي عندهم من المترادفات او من الكلام عن طائفة واحدة على ان شحرور الماء اللبناني ممتاز عن سواه ويدعوه علماء الطيور الشحرور الاحمر وامثال هذه الطيور ترسلها المانيا الى الولايات المتحدة فتجد سوقاً رائجة وتعطي ربحاً كبيرا ولو اهتم ابناء لبنان باتخاذ هذه الطيور مادة تجارية مع الولايات المتحدة لاستفادوا كثيرا

٦ — عصفور الشير — طائر كثير الوجود في انحاء لبنان ويختار المقر المتوسط الحرارة الكلسي التربة — جسمه يفوق العصفور الدوري ضخامة رمادي الظهر احمر الصدر ابيض البطن كبير المنقار قصير الذنب قوي الحنجرة يلتهم الحشرات

٧ — القنبرة — اميرة الاطيار في جودة النغمة · يطيب لها الشدو وهي محلقة في الاوج اضخم من عصفور الشير ترابية اللون وقد سميت قنبرة باسم القنبرة التي على رأسها من باب تسمية الكل باسم جزئه وهي تأنف من الارتفاع الى اعلى من ١٢٠٠ متر عن سطح البحر

٨ — الحجل — طائر جميل معروف في لبنان — لو قامت الحكومة اللبنانية بحمايته وتنميته لكان من افضل انواع الطير التي يتجر بها وهو نافع للمزروعات بانه يفتك بالحشرات التي تعيث فساداً بالبقول

٩ — الحمام البري — يدعوه البعض يماماً والبعض ورشاناً وهو اصل

الحمام الداجن وهو يقبل على الدجون بسهولة واذا ضم الى الحمام الداجن الفه في نهاره وليله

القبيلة الثانية — الطيور التي تستقر بعض السنة لا كلها

من هذه القبيلة ما يوافي في فصلي الربيع والصيف وما يوافي في فصلي الخريف والشتاء وما يمر كعابر طريق ليس الا — واليك الكلام عن انواعها

١ — السنونو — طائر معروف — يوافي الى لبنان في الربيع والصيف ثم ينطلق الى الحجاز فالجنوب حتى يصل الى رأس الرجاء الصالح وقد يسمى الحجيجة ولانه يقصد الحجاز في فصل الحج سمي حجيجة

٢ — الخطاف — طائر أليف يكثر استقراره في المدن والقرى حتى يتخذ عشه في شقوق حيطان المنازل والفرق بينه وبين السنونو ظاهر في الجسم وفي ان السنونو يبني بيته من الخرق والعيدان اما الخطاف فمن طين

٣ — النسر — اكبر طيور لبنان الجارحة على ان بعضه يستوطن في اعالي الجبال وفي استطاعته ان يخطف الطفل الصغير يبني عشه على مشارف الصخور التي يتعذر الوصول اليها اصلع الرأس عاطل الرقبة من الريش ومن المشهور عنه انه يدرب ابنه على الطيران فمتى رآه قوياً عليه طرده من عشه — طعامه الجيف يستضيف في لبنان ربيعاً وصيفاً

٤ — الرخمة — الشوحة مضرب المثل بكبر الجسم وضعف القوة والخنوع اصغر من النسر واكبر من الصقر ومن نوع الرخم (البغاث) وهو من انواع الطير المقتاتة بالجيف وبضعفها قيل

بغاث الطير اكبرها جسوماً ولا تغني كما تغني الصقور

ومروره بلبنان في فصلي الربيع والصيف

٥ ــ السماني ــ طائر معروف يزور لبنان في فصلي الخريف والشتاء لكي يقتات بثمار الزيتون الناضجة فيسمن وهو يلتقط الديدان المضرة التي تتخذ لها مقرا بين اوراق الشجر والعشب اليابس ففائدته اعظم كثيرا من مضرته

٦ ــ ابو الحناء ــ تدعوه العامة ابو الحن يقبل على لبنان في فصلي الخريف والشتاء منحدرا الى الاصقاع الحارة نغمته عذبة ولكنها ضعيفة

٧ ــ دجاجة الارض ــ تجيء من القطر المصري في فصل الخريف ويكثر استقرارها في حقول الزيتون تسبح على وجه المياه فيخالها من يراها من الحيوانات الزاحفة وهي ليست كذلك بل من الحيوانات الطائرة

٨ ــ اللقلق ــ ويسمى بالبجع يمر بلبنان في شهر نيسان قادماً من الاصقاع الدافئة وبعضه يطيب له الاستيطان فيبيض ويفرخ وبعضه يواصل الطيران الى اوربا وهو مفيد جدا لفتكه بالجراد الطيار والحشرات النباتية على انه يسرق من المنازل ما يراه براقاً من الحلي

٩ ــ السلوى ــ ويسمى الفري من طيور الجنوب يمر بلبنان في فصل الربيع منتجعاً الاقطار الباردة وفائدته في الفتك بالحشرات الكبيرة ولكن اعتداء الصادين على حياته يدعوه الى الرحيل العاجل. وقد يعود من اصطيافه في الاقطار الباردة اما مارا في لبنان او عن طريق اسبانيا فالمغرب الاقصى

١٠ ــ السرمر ــ هذا الطائر المفيد لو احسنت الحكومة في الحرص عليه وايوائه لاستفادت اكبر فائدة منه ولاسيما ان الجراد توالت غاراته على المزروعات اللبنانية منذ سنة ١٩١٤ وفتكه بالجراد يكاد يكون من الغرائب اما العمل في توطين السرمر فيقوم به اختصاصيون يجدر بالحكومة اللبنانية ان تبحث عنهم وتوظفهم

١١ ــ الصفراية ــ هذا الطائر الجميل يمر بلبنان في الربيع اسبوعين او ثلاثة في رحلته الى الشمال ثم يؤوب في الخريف فيستقر مثل تلك المدة وهو افيد الاطيار لاشجار البلوط (السنديان) التي تكثر في لبنان فان الحشرات الشعراء التي هي افة السنديان تنشيء لها اعشاشاً كنسيج فلا يهتدي اليها اصحاب الحقول . ومتى جن الدجى خرجت من اعشاشها وسطت على اوراق البلوط ولاسيما الرخص منها فتيبس اما الصفراية فتهتدي بغريزتها الى تلك الاعشاش وتمزقها وتلتهم ما فيها

وللصفراية في التهام هذه الحشرات نظام جميل تتبعه حينما تكون في أمن ذان السرب منها ينحدر منه طائران يشتركان بقتل الديدان وازدرادها ثم يصعدان فينحدر آخران مكانهما ولعل هذا التحفــظ عن تخوف من بطش جوارح الطير بالرف كله

١٢ ــ الهدهد طائر جميل ريشه احمر يعلوه اسوداد مُنقــاره دقيق معكوف وله قنبرة جميلة وهو من الطيور الفاتكة بالحشرات

الوروار ــ تسميته من صوته ور ور ظهره وعنقه ورأسه بلون واحد كستناوي (نسبة الى قشر الثمر المسمى كستنا) غامق ومنكباه وعجزه اسمران وذنبه اخضر اللون يتألف من ريشتين طويلتين وعيناه جحماوان (اي حمراوان) كالدم

١٤ ــ القيقب . لونه يقرب من لون الباشق واصابع قدمه الاربع اثنتان اماميتان واثنتان خلفيتان واما معظم الطيور فثلاث امامية وواحدة خلفية وهو من افتك الطيور بالحشرات الضارة

=()=

القبيلة الثالثة — العصافير الصغيرة

يتعذر الكلام باسهاب في فصائل هذه القبيلة لكثرتها وتقاربها ولان التميز بينها لا يستطيع ادراكه من لم يتخصص لدرس علم انواع الاطيار وخلاصة ما نذكره ان هذه القبيلة كثيرة الانواع وكلها مفيد في قتل الحشرات الضارة وما كان منها يلتهم تلك الحشرات يقتات ببزور الاشواك والاعشاب المضرة فيعمل عمله المفيد خدمة للعمران البشري اذن من واجب الحكومة صيانة حياته والحرص عليه

القبيلة الرابعة جوارح الطير — هذه القبيلة تمر بلبنان مرورا قاصدة الاقطار الافريقية في ايلول وتشرين منها النسور اربعة انواع والعقبان والبيزان والصقور والباشق والشواهين والبوم وهذا له شأن خاص . فكلها عدا البوم يقع على الاشجار ويقضي ليله على منابرها او في محاجيء الصخور وحينما يبزغ النهار يعود الى الطيران وبعض الجوارح الصغرى كالباز والصقروالشاهين كان القدماء يربونه ويستخدمونه في الصيد وامراء لبنان في عهد غير بعيد كان لهم ولع بذلك الصيد اما اليوم فلم يعد متسع في الوقت لمثل ذلك

وتطير هذه الجوارح اسراباً اسراباً ومن يتأمل فيها وهي طائرة يجدها تتابع قائدها على اجمل نظام واكمل عناية وهو يطير في دائرة هوائية ليتسنى للمتأخر منها ان يلحق النشيط السابق

بقي ان لبنان فقير في طيوره المائية لانه خال من البحيرات والانهار المائية الا ان عند مصب الانهار بعض انواع من البط البري والاوز البري والورووار المائي والكركي والبلشون مما لا تأثير له يذكر

الحيوانات الزاحفة

الطائفة الاولى منها (اولا) العظاء تضم هذه الطائفة قبائل عـديدة كلها صغير الجسم الا انها تعض من يقدم على اذيتها من باب الدفاع عن النفس وليس في عضها سم وقبائلها كلها تفيد بانها تسطو على خراطيم الارض

(ثانياً) الحرذون · يكثر في السهول والنجود المتوسطة ولا يكون في اعالي الجرود وهو فاتك بالحشرات ويجب الامتناع عن اذيته

ثالثا — ابو بريص هو ذو فصائل كثيرة ممتازة بروءوسها المسطحة واصابعها الغريبة التي تقبل الاتساع حتى تظهر كاقراص صغيرة والنوع المدعو بابي بريص احدها واشرها

ومن خصائص هذه الطائفة ان اذنابها سهلة الانفصام فلو تمكن عدو من ان يقبض على واحدة منها انفصم الذنب حالا عند اصله وينجو صاحبه وبعد اسابيع قليلة ينمو مكانه نتوء يعوض عنه · وهذا الذنب يبقى مدة يتحرك كأن فيه مادة حياة مستقله فيبقى القابض عليه ممسكا به لئلا يفلت وحينئذ ينجو صاحبه

(رابعاً) الحرباء · عدها بعض علماء الحيوان طائفة مستقلة بذاتها لكثرة قبائلها ولكن لبنان يعرف نوعاً واحدا منها هو الحرباءة الافريقية لانها توجد في شمالي افريقيا بكثرة وهي تتلون بلون بيأتها للاختفاء وتألف كثيرا شجرا يدعى التنضب عيدانه بيض ضخمة وهو وان كان نباتاً اشبه بالعود اليابس وله شوك قصير ويضرب المثل بالمتلون فيقال هو كحرباء تنضب

والحرباءة من افيد الزحافات للمزروعات وهي لا تؤذي احدا وتبيض الانثى اولادها بيضاً فتخرج الفراخ بيضاء ثم تكتسب لون امهاتها

خامسا — العظاء التي قوائمها غير منظورة — من هذه القبيلة في لبنان انواع قليلة يلتبس شكلها على من له تخصص بفن الحيوان بالحية على ان الاختلاف بين النوعين يعرف من شكل الرأس وتركيب الفكين والاسنان ٠ ومن العظاء انواع هيكلها اسطواني واذنابها بتراء وقوائمها غاية في القصر يسميها بعضهم البركيل ويزعم انها سامة وهذا زعم فاسد فان عظاء لبنان غير سام على ان بعض انواع الافعى يسمى عظاء وهذا النوع سام جدا

الطائفة الثانية الحيات او الافاعي — الحية والافعى

يطلقان على الذكر من النوع الزاحف المشهور ودليل ذلك في الحية انه جاء في شعر الاخطل

وما غرّ كلباً من كليب بحية   اصم على انيابه السم شائك

وقوله ايضاً

هناك قالوا انام الماء حيته   وما يكاد ينام الحية الذكر

فالحي اسم جنس والتاء تلحق بالحي للافراد كالقصبة والقصب والعظاء والعظاءة وكذلك افعى للذكر فقال افعى هائل فافعى كأسود والجمع افاع واساود ولو كان افعى مؤنثاً كاحمر وأصفر لجاء الجمع فعوا وسودا كما جاء حمر وصفر

والحيات تعود الى قبائل فمنها الافاعي السامة ومنها الافاعي غير السامة وقبيلة الافاعي السامة فصائل متعددة وكذلك الافاعي الغير السامة

ومن افاعي لبنان الافعى الاسود اللون — لا المسمى باسود فان المسمى بأسود من الافاعي السامة — وهو غير سام الا انه يعض عضاً مؤلماً على ان له نيوباً للفتك بالجرذ والفار فقد كان قديماً يعتنى به كما يعتنى بالهر وهو افيد

منه لانه يدخل الى حجر الجرذ والفار ويبطش بها ولكن الخوف من ان يلتبس به بالافعى السام حال دون العناية به

الطائفة الثالثة — السلاحف · ان السلحفاة ذات الواح عظمية تنشأ في الجلد وتتحد بالعمود الشوكي وعظم الصدر والاضلاع فيتألف من مجموعها الصندوق بمثابة مجن يصون الصدر والبطن · فمتى راب السلحفاة طارىء اخفت رأسها وذنبها وقوائمها داخل ذلك الصندوق ومما امتازت به عن سائر الزحافات ان فكيها خاليان من الاسنان وهما بشكل منقار طائر وقد تدرعا بمادة قرنية والسلحفاة ثلاث قبائل الاولى برية والثانية نهرية والثالثة بحرية

١ — البرية هي غير كثيرة في لبنان وطول صندوقها لا يزيد عن خمسة عشر سنتيمترات تقتات بالاوراق الخضراء والعشب ولا يخشى منها ضرر

٢ — النهرية · كثيرة الوجود في الانهر التي تسير الى البحر ببطء او على شط البحر وفي الترع والسواقي والفارق بينها وبين البرية ان هذه (النهرية) صدفتها اميل لونا الى السواد وتسطحها اوضح وذنبها اطول وهوذو الوان اما البرية فلا ذنب لها وهي من آكلات اللحوم فتسعى وراء الديدان والحشرات والدعاميص وتبطش بها اما البحرية فلا وجود لها في لبنان

الطائفة الرابعة—الحيوانات البرمائية اي البرية المائيةوهي التي تعيش في اليبس والماء معاً وتركيبها يختلف عن بقية الفقاريات اختلافات عديدة منها ان الحيوانات اللبونة تتنفس الهواء الطلق برئاتها والسمك تتنفس الهواء من الماء بخياشيمها اما هذه ففي الدور الاول من عمرها تتنفس بخيشيمها ثم حينما تنمو وتظهر لها رئات تتنفس الهواء الطلق برئاتها وفي قبائل منها تزول الخياشيم مع ظهور الرئات وفي قبائل اخرى تبقى الخياشيم مع ظهور الرئات فتتنفس تحت

الماء وفي اليبس · والحيوانات البرمائية ثلاث قبائل

الاولى — لها قوائم واذناب معاً ·

الثانية — لها قوائم ولا اذناب لها

الثالثة — لها اذناب ولا قوائم لها

والقبيلتان الاوليان بعض انواعها في لبنان والثالثة خلا لبنان منها

ومن القبيلة الثانية الضفادع وهي في لبنان منها اربعة فصائل

الاولى — النهرية (ويسمى ذكرها عجلوما) تستقر ملء وقتها في الماء او قريبة منه وقلما تفارقه الا متى جف وبعض ابناء المدن ولاسيما الدمشقيين يعدونها طعاماً لذيذا ومثلهم ابناء باريس

الثانية — البعلية — موجودة في ارجاء لبنان جميعاً وهي تطوف في الليل وتختبئ في انهار وهذه الضفدعة توجد بكثرة في البرك التي يجمع بها بعض ابناء القرى اللبنانية مياه الشتاء لشرب حيواناتهم (هذه البرك تدعى رامات) يحفرها ابناء قرى لبنان الذين تقل عندهم الينابيع · وهي كثيرة في قرى حوران لان معظم ارجاء حوران ماوءه قليل — اما ما يدعى بالمصنع لجمع ماء الشفة للانسان فنوع اخر ويعلو لها نقيق في المساء وطول سحابة الليل وقد يلذ للبعض سمعه ولحم هذه الضفدعة لا يصلح للمأكل · وفي جلدها غدد تفرز مادة ذات رائحة كريهة قتالة لو دخلت المعدة فبها تدفع عنها ضواري الحيوان

الثالثة — الشجرية — هذه الضفدعة صغيرة الحجم فهي بقدر نصف حجم البعلية وتعد المثال الافضل لدفع الاذى بالالوان فهي تقيم بين الاعشاب او فوق اوراق الشجر ومتى رابها ريب لا تبدي حراكاً فاذا وقع عليها نظر

انسان تعذر عليه ان يميزها عن الورق او العشب فلا يمسها بسوء • وفي طاقة هذه الضفدعة ان تتسلق الاجسام الملساء كالزجاج وغيره وذلك بان تفرز مادة غروية تحتفظ بها باقراص مستديرة باطراف اصابعها فبهذه المادة تتشبث بالاجسام التي تضغط عليها متى كانت ناشفة اما اذا كانت مرطبة فان الماء حينئذ يحل المادة الغروية • وتختار لبيضها برك الماء ففيها تلقيه صفيرا اخضر اللون على مثال مجاميع صغار لكن نمو الدعاميص فيه وفي يض الضفدعين النهرية والبعلية واحد •

والضفادع كلها ذات فائدة لفتكها بالحشرات والديدان والصراصير

بقي الكلام على ذوات الاذناب وهي نوعان من ذوات القوائم الاربع وهما السمندل وتسميه العامة حرباية الشتاء والتريتون حرباية الماء والكلام عنهما قليل الفائدة وغاية ما يقال عنهما انهما من ادوات الفتك بالحشرات

اما اسماك لبنان فكثيرة جدا ويقال ان اجود اسماك البحر المتوسط ما يستوطن في شاطىء لبنان ومن المشهور ان السمك المدعو الزليق الذي مقره بالقرب من نهر المعاملتين لا مثيل لجودته والاسماك التي بين جبيل جنوباً وطرابلس شمالاً تفوق سواها في جودة طعمها واما انواعها فكثيرة جدا

ومما يجب ذكره ان على الحكومة ان تسن قانونا يمنع صيد هذه الاسماك بالطوربيد وان على ابناء لبنان تأليف شركة لجلب ادوات صيد كبيرة تستطيع ان تستخرج من عباب البحر كميات كبيرة من السمك فهي غذاء لذيذ ورخيص ومقو للجسوم ونافع لبعض المرضى

=«»=

كرنولوجية لبنان

كلمة كرنولوجية استقاها علماء الآثار القديمة من اللغة اليونانية فاست علما والاعلام يحتفظ بها ومعناها علم الازمنة والارقام التاريخية وترتيبها • فليعذرنا القارىء لحرصنا عليها وليس المجيء بكلمة عربية تقوم مقامها بعسير

ولندخل في الموضوع فنقول لبنان يجاور امماً لها في التاريخ شؤون خطيرة وقد دونت تواريخها فزعمت ان قدامتها أربت على العصور التي وردت في التوراة مبدأً لوجود الجنس البشري وتناسله ومزاعمها لم تقم حتى اليوم البينة القاطعة على صحتها ولبنان لا يخرج عن جيرانه في انه يجول معهم في حومة واحدة وحري به ان يزعم ان منشأه في اعصار عريقة في القدم فالامم كالافراد ترى من مباني فخرها ان تمتد بنسبها الى اجداد باذخة في أوج القدامة ولاهل الشرق القدح المعلى في اصطناع الانساب التي لاحد لها

فيول الافريقي روى عن الفينيقين انهم يفخرون بقدامة زعموا انها ثلاثون الف سنة وذهب بعض المؤرخين الى ان روايته هذه جاءت بوجه الاختصاص عن الصوريين الذين اشتهروا بين القدماء بنزعتهم الى المبالغة في قدم منشاهم

ولما كان لبنان متاخما مملكتي اشور ومصر العظيمتين وله معهما صلات بمناسبة الجوار والشؤون العمرانية فكان ولاريب له علاقة بتاريخها فهو منهما بمنزلة قطعة حديد يتجاذبها حجران مغنطيسيان ولذلك لا يمكن البت في شيء من مروياته التاريخية قبل التحقق في تواريخ ما يجاوره حسبما ترويها الآثار التي ما برح اهل العلم يستخرجونها من انقاض المدن والهياكل والملاعب والمعاقل

المطموسة في بقاع تينك المملكتين العظيمتين

فالعلماء المتخصصون باثار الدول القديمة لا تزال هممهم توحي اليهم ان يبحثوا عن الاثار الاشورية والمصرية منقبين في اعماق طباق الثرى لان الكثير من الاثار هيلت عليه الاتربة والحجار اما لشدة وطأة الزلازل او لان غزاة دوخوا تلك المدينة وهدموها وسجوا عليها اخفاء لها وبنوا فوقها حتى لا يعرف في المستقبل شيء عنها

فكما زعم الفينيقيون عن قدامة منشاهم زعم البابليون ان تاريخهم ينتهي الى ٤٧٠٠٠٠ سنة من عصر وجودهم دولة عظيمة مرهوبة الجانب

ونحن في موقفنا التاريخي نستقر في سدة الانصاف فلا نؤيد قول الذاهبين الى تلك القدامة لا نرجح عليه القول الذي يعارضه بدون بينة فكل من القائلين بقدم العصر الانساني الى الوف السنين البعيدة الغور والقائلين بان العصر الانساني ليس ببعيد الغور بل بداءته منذ اقل من عشرة الاف سنة تعاليل يستلزم الالمام بها وضع مؤلف خاص وهذا ما لا نراه لازما ونكتفي بان نطلع القارىء على تعارض المذهبين ونرجح مذهب التوراة على مذهب اولئك المؤرخين بناء على الاساس الشرعي وهو يضاف الحادث الى زمانه الاقرب الا متى جاء العلم الصحيح ببينة قاطعة تثبت وجوده في الزمان النائي

وقد جاء في تاريخ المصريين ان ملوكهم الاول تمتعوا باعمار طوال وافنوا عصورا عقب عصور مما لا بينة عليه الا روايات ليست على اساس راهن وهذا المبدأ عينه نشأ في تاريخ الفينيقيين فروى بلين عن اكزينفون ان ملكا صوريا عاش ست مئة سنة وتلاه ابنه فعاش ثماني مئة سنة فترى الصوريين وان شئت فقل قبائل لبنان جميعا على مثال المصريين والاشوريين في وضع سلسلة طويلة

للملوك القدماء يروى فيها انهم عاشوا آلافاً من السنين ومدوا لهم وشائج القربى بالارباب او مع المدات الفلكية كما هو شأن جيرانهم الآنف ذكرهم والغاية التي توخوها ان يعودوا بمنشاهم الى ما وراء الحدود التاريخية المعروفة الآن ظناً منهم ان تطاول القدم يتيح لهم المنزلة العليا في سمو الشأن لكن دعاويهم لم يأتوا عليها ببرهان تطمئن اليه نفس الباحث الذي لا يعير الدعوى المجردة اذنا

فهيرودوت ابو التاريخ اورد في كتابه (جزء ٢ : ٤٤) هكذا : سألت كهنة الرب هركل في محارثتي لهم اي زمن شيد فيه هيكلكم فوجدتهم لا يتفقون مع اليونان ادنى إتفاق فقد اجابوا ان هيكل ذلك الرب بني يوم بنيت مدينة صور وانها بنيت منذ الفين وثلاث مئة سنة

ومما يجب ذكره ان في رأس القائلين بقدم العصور المؤرخ مانثون وفي رأس القائلين بحداثة العصور موسى — وما نثون مؤرخ تضاربت اقوال المؤرخين في تعيين زمنه فمنهم من قال مثل بلوترك (ف ٨) وسنكل (ص١٤) انه عاصر بطليموس فلادلفوس (من ٢٨٣ — ٢٤٧ ق م) وفي النهج القويم يسميه منثو (ص ٣١٥) اما المباحث الجديدة فتنبيء ان زمانه متأخر عن ذلك فهو اما من ابناء القرن الثاني او الاول قبل المسيح ٠

والعلماء الذين بحثوا في ما اورده ما نثون عن السلائل المصرية هم اوساب وجرج سنكل وبول الافريقي وارتستين وبانودور واميان وهذان الاخيران راهبان مصريان من ابناء القرن الميلادي الخامس

وكاهن البعل مانثون نظم كرنولوجية مصر فامتد بها الى ما وراء كرنولوجية موسى كليم الله مؤرخ العهد العتيق في التوراة

اما العلماء الباحثون في الآثار الاشورية فهم يبنون مستنداتهم على رواية المؤرخ الفينيقي بيروس واسم هذا المؤرخ يحتمل في مذهب بعض العلماء انه مشتق مما اشتقت منه تسمية بيروت فيكون معناه السرو او الصنوبر او عشترت

=«»=

الاثار القديمة في لبنان

موقع لبنان الجميل جذب اليه الدول التي قامت في جواره فتتالت عليه . ولكل منها آثار ولكن بعض الدول التالية كانت تعتدي على اثار الدول السابقة فلا تبقي على معظم آثارها وفي هذه العجالة تتكلم عن بقية تلك الاثار

(١) — الاثار الظرانية

(الظر الحجر له حد كحد السكين كان القدماء يستعملونه استعمال السكين من الحديد وجمعه على ظران بالضم والكسر)

ان الذين استوطنوا لبنان بداءة بدء قبائل همجية جاءت من فلوات جزيرة العرب هربا من سطوة ملوك بابل . وكانت حياة هذه القبائل ساذجة فطاب لها الاستقرار في المغاور والكهوف في فصل الشتاء والاقامة في خيام من جلود الحيوانات او غصون الاشجار حين اعتدال الوقت

وكهوف لبنان ومغاوره ما برحت تحمل ادلة على سكنى القدماء فيها اما المدافن فكانت تنقر في الصخور او في اعماق الارض على شكل الآبار .

ومن آثار ذلك الزمن الظران اي الحجارة ولاسيما الصوان الذي كان القدماء يستعملون ادواتهم منه للصيد والقنص والقتال دفاعاً وهجوماً . فهذه الحجارة تحدد وتجعل على اشكال عديدة ومثلها عظام الحيونات — وقد اهتدى الباحثون الى عدة مصانع كان العاملون بها يصطنعون تلك الادوات الحجرية وهي ذات طورين طور الحجارة المنحوتة وطور الحجارة الصقيلة

فالحجارة المنحوتة تروي عنها عدة اماكن نذكر منها ما يأتي :

المكان الاول — ضفة نهر ابي علي المنحدر الى طرابلس فان هناك بقايا اماكن استوطن بها القدماء وتعرف بوادي قاديشا وجد فيها الاثريون كثيرا من الادوات الظرانية

المكان الثاني — صخر موقعه بين قرية كفتين من الكورة وكفرحي من البترون وهو اشبه برواق تحته مغارة مكشوفة الجانبين كان القدماء يشتغلون هنالك في صنع ما يحتاجون اليه من الادوات

المكان الثالث — بالقرب من نهر ابراهيم حيث لا تزال مغاور يستدل بها ان القدماء انشأوا هناك معامل ظرانية

المكان الرابع — ان قرية انطلياس المشهورة بنهرها قد وجد في مدخل واديها مغارة كبيرة تدل الآثار الباقية فيها انها كانت مستودعاً كبيرا للظران

المكان الخامس — يجد الباحث بالقرب من جسر بيروت الحالي موضعاً لاستحضار الظران وعمله ادوات وهو على بعد مدى قصير من بيروت

المكان السادس — الى الجنوب من بيروت في المكان المسمى عين القنطرة ينحدر جدول اسمه جدول عقبيه يجاوره سهل لا يزال ما فيه يدل على انه كان مصنعاً للظران

المكان السابع — بين صيدا وصور مكان يدعى عولون فيه مدافن يقول

الآثريون انها قديمة العهد جداً

وكان صقل الظران في البدء خشنا ثم تحسن وفي طور تحسنه وجدت له ستة مصانع الاول عند نهر الزهراني بالقرب من صيدا والثاني بالقرب من مقام الاوزاعي الواقع بالقرب من حارة حريك والثالث بالقرب من جسر نهر الكلب بين جونيه وانطلياس والرابع عند مغارة جعيتا التي ينبجس نهر الكلب منها والخامس عند مغارة المعاملتين عند الجسر الروماني الذي لا يزال باقياً الى الآن والسادس بالقرب من منبع نهر العسل في لحف جبل صنين اي بين ميروبا وفاريا من قرى كسروان

ومن يزر المتحفين النفيسين في الجامعتين اليسوعية والاميركانية يجد كثيرا من تلك الادوات ومن متحجرات بعضها نباتية وبعضها حيوانية تدل على ما كانت عليه تلك المصنوعات في العهود القديمة

(٢) — الآثار اللبنانية الكنعانية

لاريب في ان سلالة كنعان ابن حام ابن نوح جاء بعضها الى لبنان فاستوطن فيه وقد دعاهم اخوتهم المصريون المتسلسلون من حام ايضا بوني او فوني ومنها نقل اليونانيون اسم البلاد فقالوا فينيقية

والفينيقيون جالية اتت الى القطر الشامي من بلاد ما بين النهرين فتغلبوا على من وجدوه هنالك من القبائل الهمجية التي تكلمنا عنها آنفاً . وقد اندمج في سلالة كنعان قبائل آرامية اي من سلالة ارام ابن سام ابن نوح اضطرتها القوة الغالبة الى الجلاء عن الجزيرة الى القطر الشامي

والفرق بين الجاليتين الكنعانية الارامية ان الكنعانيين يتكلمون بالعبرانية

والاراميين امتكلمون بالسريانية

واثار هاتين الجاليتين تنبيء برقي في الحضارة فهما اللتان مصرتا مدن سواحل الشام كجبيل وبيروت وصيداً وصور وقد سبق لنا النقل عن المؤرخ يتن البيروتي ان القدماء نسبوا بدء حضارة لبنان الى الالهة على ان روايته لا تخلو مما يستدل به على ان تلك المدن من صنيع الكنعانيين الاول الذين اخذوا عن الكلدانيين فن البناء فقلدوه

ولما وصلت يد الكشف عن آثار القدماء وظهرت رسلات تل العمارنة في مدينة النفيوم من القطر المصري وجدت هذه مكتوبة بالقلم المسماري ولكن الفاظها فينيقية وهي من قبل الامراء الشاميين الى فراعنة مصر فحوت تقارير عن حصون وقصور وعمارة موءلفة من سفن بحرية

وفي لبنان اثار كثيرة من البقايا القديمة ففي قرية غينة بالقرب من كفور في مقاطعة كسروان صخرفيه صورة تموز او ادونيس الذي فتك به خنزير بري فيرى ذلك الاله يقاتل الوحش الضاري الهاجم عليه وبالقرب منه صخر اخر يمثل امرأة هي الزهرة او عشتروت تبكي على ادونيس

وقد شوهد في فيع الواقعة بالقرب من دير البلمند حجر عليه صورة ادونيس ايضاً و كان سنة ١٩٠٦ في كنيسة السيدة بتلك القرية ثم نقل الى متحف الاستانة كما روى كتاب لبنان المطبوع سنة ١٣٣٤ هـ

٣ ـــ اثار فرعونية مصرية في لبنان

تقدم معنا الكلام عن مجيء الجاليتين الكنعانية والارامية الى لبنان هرباً من العبودية للقوة الغالبة والظاهر ان تلك القوة تبعتهم فاغار الاشوريون والكلدانيون على لبنان فاستولوا عليه وعلى سائر القطر الشامي وروت التوراة

نبأ غارتهم في عهد ابراهيم (الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين) ومن ذلك العهد اطلق اسم سورية على القطر الشامي مأخوذا من اسم اشورية واثار ذلك العهد قد طمس معظمها وما بقي قليل

ولما قويت شوكة المصريين وكانت فراعنتهم غزاة اشداء اخذوا يعملون في تدويخ الامم التي تجاورهم فاقدم تحوتمس الاول الى القطر الشامي فدوخ بعض بلدانه وامتنع عليه البعض الآخر وما عجز عنه هذا الغازي تمكن منه من اعقابه امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع فوضعا اساسا راسخا ثم تلاهما رعمسيس الثاني فقد كان اشد بأساً ممن سبقه فانه دوخ القطر الشامي وتجاوزه الى كيليكية وسهول الفرات ودون تاريخ حروبه على الصخور المطلة على نهر الكلب فهنالك احد انصابه وبالقرب منه نصب آخر لفرعون آخر ازاء الاله عمون ورقيم هيروغليفي طامس

ولما تغلب فراعنة مصر على الشام اخذ الفينيقيون يقلدون المصريين في هندسة معابدهم ونحت تماثيلهم ونقر رموسهم ونواويسهم واسلحتهم وحليهم وانواع المصوغات وضروب الازياء وما اكتشفته البعثات العلمية في جبيل يحقق ذلك المبدأ فقد وجد صخر في جبيل رسم عليه احد الفراعنة وعلى جبهته الحية الرمزية وامامه الربة ايزيس المصرية تحييه بالتقبلة وعلى هامتها القرص الشمسي ولها قرنا بقر على مثال رسمها في مصر

وما ظفرت به البعثات الافرنسية في جبيل وسواها كثير وثمين وهو من انفس كنوز لبنان التي يجب الحرص عليها

=«»=

(٤) – الآثار الاشورية في لبنان

قويت دولة بابل بعد ضعف فذكرت ان الفراعنة غزوها ووصلوا الى سهول النفرات فحملهم حب الانتقام على ان يثأروا منهم فكان من المحتوم عليهم ان يفتتحوا القطر السوري اولا ليؤمنوا طريق المواصلات بين قاعدة المملكة والجيوش الزاحفة للفتح والانتقام

وكانت دولة الفراعنة قد دب فيها وهن واخذ من كانوا تحت سيطرتها يعملون للخروج من دائرة الخضوع لها فكان عن ضعف الفراعنة باعث لطموح البابليين فاخذوا يؤلبون الجيوش ويهاجمون البلدان الخاضعة لمصر

والادلة التاريخية تثبت ان تغلات فلآصر الاول وهو من الملوك الغزاة في القرن الثاني عشر قبل التاريخ المسيحي ساق جيشه الى بلاد الشام فاحتك بالمصريين وتمكن من احراز مغانم كبيرة وتبع أثره كل من سلمناصر ونيوبولاصر وتغلات فلآصر الثاني وسرغون واسور بني بال ونبوخذنصر وسنحاريب فدوخوا القطر الشامي ووضعوه تحت سيطرتهم والظاهر ان ملوك مصر وجدوا قوة البابليين تربي على قوتهم فاعرضوا عن سوريا او وجدوا نفقات الحملات تربي على واردات تلك البلدان فاعرضوا عن متابعة حروب لا جدوى لهم منها

والظاهر ان ملوك القطر الشامي كانوا كلما رأوا من جانب العرش البابلي ضعفا انتقضوا عليه ومتى شعروا بتفوق قوته وانصرافه الى السيادة عليهم اطاعوا كما نستلمح ذلك من اسفار العهد العتيق

ولا يزال في لبنان آثار اشورية تدل على ثبوت اقدام اولئك الغزاة فيه ،

ففي مضيق نهر الكلب بالقرب من الاثار المصرية خمس صفائح اشورية فيها تصاوير و كتابات منبئة عن استيلاء ملوك اشور على ذلك الموقع وهذه الكتابات بالقلم المسماري ومضمونها ان الجيش الاشوري قهر الاقليم السوري وزحف على مصر ومع تلك الكتابات رسوم ملوك اشور بازيائهم الفاخرة

وفي جبال اكروم من اعالي لبنان وموقعها الى الجانب الجنوبي الغربي من حمص نصب اشهدي في واد ضيق يسيل به ماء يدعى نهر السبع وهذا النصب مربع الشكل مساحته متران في مترين رسم به اسد ناصب قائمتيه ليفترس رجلا وهذا الرجل يحاول التغلب عليه وقد قبض على فك الاسد بيده ومما لا ريب فيه ان ذلك المكان كان غيلا تأوي اليه الاسود فاذن الملك الاشوري بطش باسد هنالك

وقد عثر المسيو بونيون الفرنسي في وادي بريسة الواقع على مسافة عشر كيلومترات من الهرمل على نصبين لنبوخذنصر الثاني يمثله احدهما مصارعاً لبوءة والمشابهة بين هذا الاثر والاثر السابق تدل انهما لملك واحد هو نبوخذ نصر الثاني ولعله امر بحفرهما حين وافى سنة ٥٨٧ ق :م لتدمير اورشليم وفتح صور واقام يومئذ في ربلة الواقعة بالقرب من بحيرة قلس المدعوة ببحيرة حمص

ومن ادلة استيلاء ملوك اشور على لبنان وجود خشب الارز اللبناني في ابنية شادها الاشوريون فكان هذا دليلا على ان الغزاة الاشوريين نقلوا ما وجدوه في لبنان نادر المثال واظهروا لأمتهم مقدرتهم على فتح البلدان

=()=

(٥) – الآثار الفينيقية

تمكن قورش الفارسي من ان يتغلب على مملكة اشور ويسودها ويستولي على توابعها فدانت له سوريا ولبنان معاً

وكان قورش حليماً حكيماً له منهج في سياسة الشعوب يختلف عن منهج ملوك اشور فقد اعطى الاقطار الخاضعة له شيئاً من الحرية ولعله تعمد ذلك ليجعل سيطرته مستحبة من الامم التي وضع في نفسه ان يتغلب عليها ودليلنا على ذلك ما ورد في سفر عزرا عن رأفته بالشعب اليهودي ففي عهد قورش تنفست الامة السورية من كربتها ونهضت همتها فشادت عمارة وكثرت سفنها وكانت قوتها احدى الوسائل التي تذرع بها قمبيز ابن قورش للزحف على مصر والاستيلاء عليها

وفي عهد الفرس كثرت الآثار الفينيقية وقد نقل الكثير منها الى المتاحف العديدة في القسطنطينية وبارس ولندن وبرلين وعلى هذه الاثار مسحتان مصرية ويونانية . اما المسحة المصرية فنحسبها تسربت عن سيادة الفراعنة واما المسحة اليونانية فتسربت عن نبوغ الشعب الاثيني في النقش وتفوقه على سواه فاخذ عنه الشعب الشامي

ومن اعظم العاديات التي تروى عن ذلك العهد هيكل الاله اشمون وجد نحو سنة ١٨٩٩ ب: م في صيداء في احد بساتينها على منعطف ربوة فوق وادي نهر الاولي قريبا من مصب هذا النهر على مسافة ميل ونصف منه وقد تولى الحفر عنه مكريدي بك من مستخدمي دار التحف في القسطنطينية وبصحبته مهندسان المانيان فكشف الحفر عن بناء فخم كان مكتنفاً بسور مربع مستطيل

مبني بنحيت الحجارة طوله من الشرق الى الغرب ستون مترا في عرض ٤٤ مترا من الجنوب الى الشمال • وهو حرم (كان الحرم لكل معبد ملجأ من دفعه الغضب فانتقم من خصمه فاذا لاز بالحرم امتنعت الحكومة وانسباء القتيل عن البطش به) ذلك المعبد كما يرى في معابد اخرى • وكان في وسط السور مقدس الاله في قلب الهيكل المقام لاكرامه وهو في غاية الحسن والفخامة • ولما كشف عنه ظهر ان الباقي منه حائط اساسه حاجز في وجه النهر شيد على اربعة صفوف من الحجارة الضخمة يستند اليها سطح صناعي وثيق وكان الهيكل فوقه

(٦) — الآثار اليونانية في لبنان

ان التاريخ يروي لنا ان داريوس الفارسي نسيب قورش وصهره زوج اتوسا ابنته تمكن من ان يخلف قمبيز ابن قورش على عرش فارس فظل الملك في ذريته حتى نهض اسكندر الكبير المكدوني فزحف على مملكة فارس وهزم جيوش قدمنوس الملقب بداريوس الثالث عند مصب نهر غرانكوس (غرانكوس نهر صغير ينصب في بحر مرمرا عسكر الفرس على شاطئه الشرقي جاء الاسكندر مهاجما من شاطئه الغربي) سنة ٣٣٣ ق : م فارتد داريوس منهزماً واخلى سوريا ومصر من القوة فاحتلها الاسكندر ودخل لبنان في سلطته ولما قضى الاسكندر نحبه واقتسم قواده ملكه استولى على القطر الشامي سلوقوس نيقاطور احد قواده وجعلها مملكة مستقلة وتركها ارثاً لابنائه بعده وحينئذ صار لبنان يوناني النزعه ولما كانت المملكة السلوقية من الممالك التي عرف اصحابها برغبتهم في العمران وبنيان المدن بقيت اثار كثيرة تروي عن ابداعهم في تشييد القلاع والحصون ومد الطرق المعبدة

وفي عهد هذه الدولة ظهرت المسحة اليونانية في القطر الشامي ظهورا بيناً ولكنها في الغالب سطحية محصورة في المدن الكبرى ولاسيما الساحلية بين كبراء القوم

ومن الآثار الباقية عن ذلك العصر النقود والمصكوكات . فان الدولة اليونانية حصرت صك النقود بها وكانت كل قطعة نقد ذات وجهين على الاول رسم الملك صاحب السلطة واما الوجه الثاني فعليه صورة بعض الرموز الدينية او المدنية مع تاريخ زمن ضربها ومكانه . وهذه الرموز فينيقية او يونانية ومعظم ما كتب تعييناً لعهد الصك كان يونانياً

اما الكتابات اليونانية فكثيرة وقد طمس بعضها بفعل الزمان كما يظهر ذلك في اثرين منها على صخور نهر الكلب لا يزالان حتى الآن

ومن اثار ذلك العصر اطلاق اعلام يونانية على اراض لبنانية فكانت بيروت تدعى بيروتوس وجبيل بيبلوس ولبنان ليبانوس . وهلم جرا

على ان هذه الاسماء الاعجمية لم تشع الا بين ولاة الامر اليونانيين اما اهل البلاد فحفظوا اسماء بلدانهم فلما تقلص ظل الدولة السلوقية عاد السكان الى استعمال الاسماء الاصلية . ومعظم تلك الاسماء فينيقية حولها الفاتحون الى الصيغ اليونانية مثل بيروت وبيروتوس .

ومن الاسماء التي بقيت عن ذلك العصر طاميش بالقرب من نهر الكلب اسم قرية فيها دير شبير فان اصل هذه الكلمة ارطاميس وهي اسم ربة الصيد باليونانية واما الاسم الروماني لها فديانا وكان لها هيكل عظيم في افسس (روى البشير لوقا في الاصحاح ١٩ عن ارطاميس افسس كفاية فلتراجع) وكذلك اسم بلونه المشتق من الاله ابولون وهو اله الجحيم عند اليونانيين (جاء في الصفحة

١٤ من كتاب نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية للخوري منصور طنوس الخوري كلام بهذا الشأن فليراجع في موضعه)

(٧) – الآثار الرومانية في لبنان

كانت الجمهورية الرومانية منذ عهد الاسكندر المكدوني اخذت تتقوى شيئاً فشيئاً ولم يحتك الاسكندر بها لانه انصرف الى الشرق مدفوعاً الى ذلك اولا للبطش بدولة فارس التي كانت قد تعمدت اذلال الشعوب اليونانية وادخال اقاليمها في دائرة ملكها فبطش كورش الكبير بمملكة ليديا اليونانية واسر ملكها كريسس الشهير وقام بعده داريوس فناصب اليونان العداء واخضع ثراكيا ومكدونيا (النهج القويم ص ١٦٣ ٠) وثراكيا الان قسمان الشرقي بيد الترك وهو ما يجاور القسطنطينية وغربي بيد اليونان وهو الآن الولاية الشرقية من بلاد اليونان) وكان ملكها يومئذ امنتاس احد اجداد اسكندر الكبير ثم تحرش باليونان ولده زركسيس (يقال انه احشويرش زوج استير العبرانية) سنة ٤٨٠ ق : م وساق اعظم جيش البه ملك في العهد القديم ولما تغلب على مملكة فارس مشى الى الهند يريد ان يصل الى مكدونيا من الشرق فوقف جنده عند نهر هناسيس من بلاد الافغان وابوا المسير الى امام فعاد عن غزوه الهند فالصين على كره منه وما لبث ان اخترمته المنية وهو في الثانية والثلاثين من عمره لمضي ١٢ سنة وثمانية اشهر من ملكه (النهج القويم ص ٢٩٨)

وبعد وفاته احتك بروما بيرس ملك ايبروس وهو من سلالة خال الاسكندر الكبير فسار الى تارنتم احدى المدن التي انشأتها الجوالي اليونانية وحارب روما حروباً عديدة كان النصر له فيها بعد ان تحل به خسارة فادحة ثم كف عن

قتالها سنة ٢٧٩ ق : م

وتمكنت روما ان تمد سلطانها رويدا رويدا فاخضعت بلاد اليونان ثم حاربت ملوك اسيا وتمكنت من الغلبة على متريدات ملك البنطس الشهير وكان آخر قائد حارب متريدات بمبيوس الشهير فتغلب عليه سنة ٦٣ ق م وجاء بجيشه فاستولى على سوريا واقام في دمشق حيث دعا اليه الملوك والروساء من اطراف البلاد (النهج القويم ص ٤٦٥) واعلن سيادة روما على القطر الشامي كله فكان لبنان من عداد ما استولت عليه روما

والدولة الرومانية عملت في لبنان اعمالا عمرانية جليلة اكسبتها رضى السكان من ذلك مدها طريقاً من جبيل الى بعلبك فتجتاز في اعالي لبنان وتقطع صخوره الصماء ومن ذلك الجسر المدعو بجسر المعاملتين (سمي بجسر المعاملتين لانه يصل بين معاملتي طرابلس وصيدا فما هو الى شمال الجسر داخل في نطاق معاملة طرابلس وما هو الى جنوبه داخل في نطاق معاملة صيدا) وجسر جبيل بين هذه البلدة ومدافنها القديمة

ومن اعمالها الاقنية لجر المياه من ينابيعها الى المدن الساحلية والمزارع في السهول البعلية لاحياء التربة وتكثير الغلال ومن تلك الاقنية قناة بين نهر الكلب وجونية لجر ماء النهر الى السهول المنبسطة بين مجرى النهر وتلك البلدة وقناة اخرى تمتد من النبع المسمى المسحور في قرية طرزا الى سهول تلك القرية احدى قرى الجبة . ومن القلاع التي انشأتها قلعة يحمور جنوبي شرقي عمريت ومن الابار ما هو موجود في قرية انفه من الكورة وكانت تدعى بمدينة ترباريس وكان فيها قلعة حصينة نقلت معظم حجارتها الضخمة الى طرابلس ولا تزال بقية منها في تلك القرية وآبار اخرى في ناوس وسمر جبيل و كفر شليان

وقد شيد الرومانيون هياكل عديدة في لبنان منها هيكل افقا اقيم الى الجنوب من مفيض ينبوع الماء من تلك المغارة فقد كان للفينيقيين هيكل هناك لعشترت ثم عاثت به يد الخراب فجدده الرومانيون وخصوه باكرام الزهرة فلما تنصر قسطنطين الكبير امر بهدمه ليمنع مواسمه التي كانت تعارض طهارة السيرة وظل خراباً الى عهد ابن اخيه يوليانس الجاحد الذي ارتد عن الايمان المسيحي الى الوثنية · واراد احياء السنن الوثنية فاعاد هيكل الزهرة المذكور واجاز ما كان يجري فيه قبل ان خربه عمه· ولما استولى على المملكة ثاودوسيوس الكبير هدم ذلك الهيكل ومنع تلك السنن الاثيمة

كان يوليانس ابن اخي قسطنطين الكبير فعطف عليه ابن عمه قسطنديوس ابن قسطنطين وزوجه باخته هيلانة واقطعه غاليا (فرنسا) والنواحي الغربية من الامبراطورية الرومانية لان قسطنديوس كان عقيما وكان يوليانوس اقرب الذكور اليه بعد اخيه غالس الذي فتك به قسطنديوس وملك يوليانس سنة ٣٦١ الى ٣٦٣ بعد المسيح ثم وقع قتيلا في حربه مع الدولة الفارسية (النهج القويم ص ٥٥٢)

ومنها هيكل في بزيزا وهي قرية من محافظة البترون تقابل بلدة اميون وهيكل ناوس وهو ايضا في جهات طرابلس ليس بعيدا عن اميون · وما كانت تشيده هذه الدولة في المدن ابهى واجمل مما شيدته في القرى

اما اثار القلاع والحصون التي انشأها الرومانيون في لبنان فكثيرة ولهم ايضا متاريس وخنادق نقروها في الصخر الاصم وابار وصهاريج نحتوها لجمع الماء فيها بقي منها في طريق جبيل عين ماحوز والرويسة في رأس بيروت مما يطول الكلام في تعداده

جاء في كتاب تسريح الابصار للاب هنري لامنس العبارة الآتية : مهما توغلت في لبنان وجدت مآثر وكتابات ونقوشا مثال ذلك الكتابات التي تراها في الوهاد الواقعة بين صنين وغابة الارز لاسيما في مقاطعات العاقورة وتنورين وقرطبة حيث تجد كتابات عديدة خط فيها مرارا اسم ادريانس الملك وحروف هذه الكلمات تبلغ نصف ذراع طولا

ومما يعود فضله الى الرومان عنايتهم بنصب الاشجار في لبنان وقد احتكرت حكومة الرومان اربعة اصناف منها هي العرعر والارزوالسرو والصنوبر وكلها من اشجار الجبال المتينة الخشب الوارفة الظل اختصها الرومان بانفسهم لئلا يتصرف بها الاهلون فيقطعوها بلا حكمة · اما الحكومة فخصصت هذه الاشجار لتجهيز السفن وابتناء مساكنهم في سوريا

(٨) — الآثار البيزنطية

ظلت الدولة الرومانية تصدر اوامرها على لبنان من روما منذ انقاد لتلك الدولة على عهد بمبيوس سنة ٦٣ للمسيح الى ان نقل قسطنطين الكبير عرشه من روما الى بزنطية التي دعاها باسم روما الجديدة ولكن التاريخ دعاها القسطنطينية نسبة اليه

وبين الدولة البيزنطية والدولة التي سبقتها تغاير في المبدأ الديني فقسطنطين ومن تلاه (عدا يوليانس) دانوا بالمسيحية ومن كانوا قبل قسطنطين من اتباع الدين الوثني(يقال ان اسكندر سفيرس الذي ملك منذ سنة٢٢٢ــ٢٣٥ب م كان مسيحيا ولكنه لم يتظاهر باعتناقه للديانة المسيحية) فلذلك كانت لهم عناية عظيمة بلبنان · وقد تمكنت افذوكسيا ابنة عالم وثني بيروتي من ان تستولي

على قلب اركاديوس ابن ثيودوسيوس الكبير فاختارها امبراطورة ورزق منها ابنه ثيودوسيوس الثاني فكانت كثيرة العناية بالاقليم السوري ولما توفي رجلها وخلفه ابنها غادرت القسطنطينية واستوطنت في ارجاء سوريا حيث قضت نحبها عن شيخوخة كاملة

ومما يدل على عنايتها الكنائس التي شادتها منها كنيسة مشنقة (احدى قرى كسروان) وقد قال عنها رينان انها اثر بيزنطي نفيس وكانت باقية الى عهده فرآها وتغنى بجمالها وذكر ايضا معبد ناوس فوق شبطين وقال ان نقوشه من بقايا القرن السابع المسيحي ومعبد كفرشيما الذي تنبىء بان اصله بزنطي كتابة يونانية في احد جدرانه مرموز بها الى السيد المسيح

وكان في حدثون كنيسة من اجمل الآثار البزنطية فرأى سكان القرية انها عتيقة فهدموها ليبنو بانقاضها كنيسة جديدة اوسع منها وقد تكلم عنها شاهد عياني قبل هدمها فذكر انها كانت ذات ثلاث اسواق وفيها سبعة ابواب ثلاثة من الجانب الغربي يوصل اليها بدهليز ثم باب رابع جنوبي له دهليز خاص فباب خامس شمالي دهليز منقور في الصخر فالبابان السادس والسابع على جانبي حنية بديعة الصناعة وراءها الموفه • ولهذه الكنيسة اربع قناطر مرتفعة اثنتان الى الجانب الايمن واثنتان الى الايسر وتمتد كل قنطرة من الحنية الى الحائط الغربي واما ارض الكنيسة فمفروشة بصغار الحصى المنقوشة ذات الالوان المتعددة فيها رسوم وصور جميلة وهذا الفرش نوع من الفسيفساء كان البزنطيون يتقنونه اتقانا يملأ نفوس الناظرين في مصنوعاته دهشا بمحاسنه ومن هذه الآثار فسيفساء كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح وكنيسة كور القديمة • وقد عثر البحاث في عهد داود باشا متصرف لبنان الاول على قطعة فسيفساء

في قرية النبي يونس الواقعة الى شمالي صيدا تمثل دائرة ضمنها كأس حوله اطيار كالحجل والطاووس وحيوانات تاريخها سنة ٥٥٤ ب م فارسل هذا المتصرف بها الى نابوليون الثالث هدية وهي اليوم في متحف اللوفر البارسي تعد من بدائع ما صنعه القدماء وفي ذلك المتحف فسيفساء اخرى لبنانية اجمل منها كانت في كنيسة قبر حيرام اصطنعها سنة ٧٠١ لصور اي سنة ٥٧٥ للمسيح ارباب حذق لتكريم القديس كريستوفورس (حامل المسيح) وفيها صور غاية في الدقة والبهاء تمثل في وسطها العابا ونقوشا بديعة وعلى جوانبها صفوف ذات دوائر رائعة الجمال في كل دائرة صورة انسان او حيوان او طائر او سمك وقد رمز بها الى فصول السنة ومنطقة البروج والرياح وموضع هذه الفسيفساء صحن الكنيسة وطولها ١٤ مترا و ٤٢ سنتيمترا · ولعل من صنعوا هذه اطلعوا على فسيفساء كنيسة النبي يونس فاتوا باحسن منها

ومما يجب ذكره ان النهضة العمرانية في بناء شوارع بيروت على وضع هندسي عصري كشفت عن آثار بزنطينية عديدة نقل بعضها الى دار الاثار وبعضها الى اماكن اخرى وفيها كثير من بدائع ما تبقى من الاثار البزنطية

٩ — الآثار العربية في لبنان

لم يدوّخ العرب في عهد الخلفاء الراشدين لبنان وتمكن ملوك بيزنطية من وضع قوة حربية فيه منعت العرب عن الاستيلاء عليه وكانت هذه القوة تقوم بحملات على البلاد المجاورة لتخوم لبنان فتوقع اضرارا كبيرة لذلك صالح عبد الملك ابن مروان ملك الروم على مال يؤديه له ليكف حملات تلك القوة وبعد زمن فاز لبنان باستقلال نوعي حتى عهد الصليبين فليس في لبنان من آثار العرب الا النذر اليسير ولكن سواحله تحتفظ ببعض تلك الآثار منها

خزفيات ترى في المتاحف كالآنية المنزلية منها السرج وحلي ومصنوعات متعددة وكؤوس واباريق معدنية عليها نقوش عربية

ومن الاثار العربية ضروب من المنسوجات الحريرية والملابس المقصبة والاجواخ والديباجات والطنافس التي برع في حياكتها يومئذ ابناء طرابلس وسواهم كأبناء دمشق وصور وانطاكية ولا يزال من امثلتها بدائع في المتاحف الاوروبية

ومن اثار ذلك العصر الاواني النفيسة من نحاس وفضة وذهب وكذلك الاواني المحلات بالتصاوير والاشكال الهندسية المتعددة والكتابات العربية ٠ في عدادها جامات وشماعدين وسرج كان بعض الملوك كنورالدين وصلاح الدين والملك الكامل اخي صلاح الدين يستعملونها

ومن بقايا ذلك العصر قطع سلاح عديدة تحفظ في المتاحف او في بيوت الخاصة كسيوف مجوهرة منقوشة وعليها كتابات وكرماح ودروع وخوذ كان حديدها يستخرج من معادن بيروت ولبنان الغنية بهذا الصنف حتى كان قدماء المصريين يدعون الحديد « به ان برت » اي بضاعة بيروت

ومن تلك الاثار ما رواه صالح يحيي في تاريخ بيروت عن تجهيز العمارات (الاساطيل) في هذه المدينة من اخشاب الغابات المكتنفة هذه المدينة وعن ان مدينة بيروت كان فيها قصور ومحازن وقيساريات من ابنية الامراء التنوخيين

وما يعثر عليه الحفارون في ارض الشوارع العتيقة يشهد ان للدولة العربية في بيروت عمرانا راقيا ولعل الحكومة الجمهورية اللبنانية تحرص على هذه البقايا الثمينة

(١٠) – الآثار المنسوبة الى الصليبيين

لما جاءت الحملات الصليبية لاستخلاص الاراضي المقدسة من قبضة ملوكها المسلمين تمكنت من الاستقرار في سواحل لبنان كطرابلس وبيروت وصيدا زمنا بلغ نحو مئتي سنة

ولما تمكن ملوك المسلمين من استعادة القطر الشامي كله الى سلطتهم بقي عن الصليبيين اثار يأخذ حسنها بالالباب وهي تقسم الى قسمين

القسم الاول – الآثار الدينية – هي كنائس فسيحة البنيان متينة الاركان بديعة الهندسة منشأة على الطراز اللاتيني الشائع في اوربا المتوسطة منها كنيسة القديس يوحنا في جبيل لا تزال الى يومنا هذا وقد كانت فيما مضى ارحب مما هي عليه اليوم ولها رواق على مدخلها وقد قسمت في داخلها الى ثلاث اسواق ذات قباب تنتهي بحنايا وعمدها مزينة باكلة جامعة بين الطرزين الهندسيين الغوتي والكورنثي وبقرب الكنيسة قبة عالية تعلو اربع سوار مقوسة فوق ثلاث منها افاريز ونقوش وكان تحتها حوض للماء

وفي شمالي لبنان كنائس عديدة ككنيسة ما شربل في معاد وكنائس اخرى في الزاوية والكورة ولا يزال في جوار مدينة البترون على مسافة ساعة منها كنيسة قديمة تدعى مار سابور مبنية فوق اكمة يحتفل بعيدها في ٦ آب اي يوم تجلي الرب على جبل سابور ولعلها بنيت على اسم ذلك الجبل . وفي قرية انفة التي كانت مقرا شتويا لمقائمية مقام الكورة في عهد متصرفية لبنان كنيسة من بناء الصليبيين بالقرب منها كهف واسع رسم في باطنه شعار السيد المسيح

ويلحق بالكنائس اديار يذكرها التاريخ منها دير سيدة البلمند المستقر على رأس اكمة تشرف على مدينة طرابلس ويحيط به قرى لبنانية هي قلحات وفيع والقلمون ورأس مسقا وانفه وهو يعد الان اكبر اديار الروم الارثوذكس في الكرسي الانطاكي يقال ان بنيانه من قبل رهبان القديس برنردس المعروفين بالسسترسيين انشأوه سنة ١١٥٧ وجعلوه تحت حماية القديسة مريم العذراء . اما من في جوار الدير فيقولون انه كان معقلا لاحـد الامراء حكام طرابلس ويؤيد هذا الرأي ان الاقبية المنشأة فيه تصلح ان تكون مرابط للخيل ومذاخر للحبوب والسلاح .

واجلّ آثار هذا الدير كنيستان الواحدة باسم السيدة العذراء مريم وهي الكبرى وبناؤها مستطيل وسقفها عال جدا وايقونسطاسها الخشبي ذو نقوش ناتئة بديعة جدا ومذهبة ولا تزال محاسنها متغلبة على قدم الايام وكنيسة القديس جاورجيوس وهي اصغر منها ولا يزال دهان حيطانها من ذلك العصر الى اليوم على حاله من البهاء

ومع ان يد التجديد قد امتدت الى هذا الدير ولاسيما في عهد البطريرك ملاتيوس الثاني فانه شاد فيه مباني عديدة ليكون قسم منه مدرسة اكليريكية ما زال القسم القديم يشهد لبناته بجودة البنيان

القسم الثاني — الآثار المدنية — لما كان الصليبيون قد تغلبوا على قسم من القطر الشامي بالقوة وكانت السلطة التي انتزعوا منها ذلك القسم لا تزال قوية تناجزهم القتال بلا كلال ولا سأم اضطروا الى بناء الحصون والقلاع ليتقوا بها شرّ اعدائهم وهذه القلاع بعضها ساحلية ذكر منها الشريف الادريسي نحوا من عشرين حصنا بين بيروت واللاذقية منها حصن المرداسية على ثمانية

اميال من بيروت وحصن نهر الكلب وقال انه حصن صغير وحصن جونية على البحر وحصن جبيل وكانت في عصره مدينة عامرة لها سور من حجر ثم حصن البترون ثم حصن انف الحجر (الشقعة) فحصن القالمون (القلمون) فحصن ابي العدس فارطوسة ثم حصن جون عرقة وقال ان هنالــك ثلاثة حصون متجاورة وقد ذكر عن عرقة ان في وسطها حصنا على قلعة عالية ثم ذكر حصن شيخ ثم انطرطوس وسورها الحصين وكانت تلك القلاع الساحلية ذات حجارة ضخمة تحيط بها الخنادق برا ولها من جهة البحر سلاسل من حديد

اما القلاع التي في داخل البلاد .فمعظمها امام مضايق ومسالك مطروقة وهي على مثال الحصون الغربية الا ان استحكاماتها اشبه بما كان عند الدولة الرومانية الشرقية وكانت هذه القلاع ذات اسوار مضاعفة وتطيف بها خنادق تجري المياه اليها لتكون سدا حاجزا دونها وجوانب القلاع مصفحة بحجارة صقيلة وفي داخلها كثير من الادوات الحربية كالمجانيق والدبابات والمواد النفطية المتفجرة

وعدد هذه القلاع في لبنان وما يدنو منه نحو ثلاثين قلعة منها مــا هو اشبه بمدينة تسع الالوف من الجند كان مقرا للرهبانيات المتجندة كالهيكليين والاسبتاريين والتوتونيين · وكان للرهبان الاسبتاريين حصن مرقب وحصن الاكراد على الجبــل المقابل لحمص — ولا يزال حصن الاكراد الى اليوم مثالا للحصون التي كانت للامراء الاقطاعيين

وللصليبيين عدا الكنائس والقلاع قصور فخمة لسكناهم كانت مزينة بانواع الزخارف منها القصر المسمى بقصر الامراء الافرنج في بيروت قام ببنائه نصارى الروم السوريون وبنوه بالفسيفساء الجميلة واتخذوا له ديوانا رحبــا

مسقوف برخام مموه بالذهب و كان في وسطه تنين يمج الماء من منخريه فيسيل في فسقية قعرها رص بالفسيفساء وهي ممثلة بازهار ناصعة الالوان

وعدا هذه الاثار ما في متاحف اوربا وبيوت اسرها الشريفة من عاديات ثمينة شتى يعرفون انها ارث لهم عن الصليبيين وعليها سمة الصناعة الشرقية الممتزجة بالفنون الغربية كاسلحة من سيوف وخوذ ودروع وتروس وكآنية واثاث بيوت فضية ونحاسية وخشبية فيها شعارات ذوي الشأن الخطير من ملوك وامراء وحكام مع اسمائهم الخاصة مزدانة بالنقوش العربية

ومما تلقاه الافرنج عن امراء الشرق الشعارات المميزة للاعيان وهي الآرمات فان هذا الفن سبق اليه ملوك الشرق في الشام ومصر ودعوا الشعار دنكاً فكان شعار الملك عماد الدين زنكي بن مودود سلطان دمشق صورة النسر فطبعه على نقوده ورسمه على ابنيته ٠ اما احمد ابن طولون الذي كان بدءاً عاملاً للخلفاء العباسيين وامتدت امارته في عهد الخليفة المقتدر بالله ابن المتوكل بالله جعفر ابن المعتصم فكان الاسد وبعد مدى من عهده اتخذ السلطان الظاهر بيبرس الاسد شعارا

وهنا نقف عن تدوين الاثار عن الطور الاخير في عهد الدولة العثمانية التي بدت موءخراً لانه سيأتي عنها الكلام مستوفى في هذا الشأن

=()=

الارز

حري بنا ان نبدأ بحثنا في الارز بتدوين مـا وصفه به الشاعر الفرنسي الطائر الصيت دي لامرتين قال :

« ان هذه الاشجار هي اشهر اثر طبيعي في العالم دونه التاريخ ووصفه الكتاب المقدس في مواضع شتى وما الارز الا مثال التحبب عند الشعراء وهو الذي زين به سليمان الهيكل الذي اقامه للخـالق فالشرقيون على اختلاف مذاهبهم يحترمون بالتقليد هذه الاشجار ولا يكتفون ان ينسبوا اليها قوة حيوية نباتية ابدية بل روحا توحي اليها بدائع الحكمة وغرائب الفطنة مما هو اشبه بالهداية او الغريزة في الحيوان والذكاء في الانسان وهذه الاشجار الشهيرة تنقص في كل عصر ولا يوجد منها الا سبعة معاصرة للاباء الاولين وفي شهر حزيران من كل سنة يصعد السكان المجاورون الى غابة الارز ويحتفلون باقامة صلاة خشوعية تحت ظلاله . فيا له من هيكل جميل . فاي مذبح اقرب منه الى السماء ؟ ويا لها من مظلة مهيبة هي فوق قمة لبنان ؟ فكم من صلوات يتردد صداها تحت اغصان الارز ؟ وكم ظللت جذوعه وتظلل من شعوب اختلفت بتسمية الخالق واتفقت على عبادته ؟ »

وكتب المسفار الفرنسي اسكندر بيدا الذي زار الارز سنة ١٨٥٥ م فقال : « انني صرفت نهارا كاملا في غابة الارز وحدي فهذه الدوحات الكبيرة المهيبة القائمة في هذا المشهد الطبيعي الجميل توحي الى رائيها افكارا سامية فلم اجد طول حياتي منتبها هكذا الى نفسي انتباهي اليها بين الارز ولقد تجولت ردحا بين هذه الاشجار التي شهدت مجد سليمان وودعت العصور الخالية فكم

من ثورة نظر هذا الارز ؟ وكم كافح من العواصف وكم مرّ به من الفاتحين؟ وكم دفن تحته من الموتى ؟ وهو لن يزال حياً هادئاً ·ومهيباً · فربما لا يدور في خلد المرء ان اشجارا كهذه يكون لها مشهد عظمة ومجد لا يوجدان الا في الانسان · انما يظهر انه يوجد شيء متحرك في جسوم هذه الاشجار التي هي شيوخ هذا الجبل الشاهق

« فلمسها كان مقدسا لدي كل التقديس او لم يخجل بعض السياح من حفر اسمايهم المجهولة على جذوع الارز العظيمة افلم يعلموا ان افواه هؤلاء الجبابرة تلتهم هذه العلامات المضحكة الدالة على الكبرياء البشرية ومن اغرب واعجب ما شاهدته من على قمة الارز غروب الشمس الذي لا استطيع وصفه ولكنه سيبقى اجمل تذكار لها في حياتي »

ان خشب الارز صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عَطِر الرائحة لا يفعل فيه الزمان ولا تقر به الارضة والسوس ولذلك اعتبره قدماء البنائين واستعماله منذ عهد عهيد كان اعظم الاسباب التي ادت الى ملاشاته ·

روى الطبيعي بلينيوس ان سقف هيكل ديانا في افسس الذي التهمته الاعمال المخلدة بالارز ·

ووجد لايرد بين عاديات اشور نزيرهبال في نمرود اخشابا من الارز النيران بعد تشييده بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب وشبه قدماء الشعراء صبرت على آفات الدهر نيفا و٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قطعت حديثا وفي المتحف البريطاني قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق وقد القي منها شيء في النار ففاح عرفها الذي اطرأه القدماء واحبوا ان يصفحوا الجدران بالواح الارز وكانوا يفضلونها على

صفائح الذهب والفضة

ان داود الملك قد ابتنى بلاطه في اورشليم من خشب الارز وابنه سليمان فضل الارز على سواه في تشييد هيكل الرب الذي عد من عجائب المعمور. ولما جدد هيرودس الهيكل في اورشليم جعل سقفه من خشب الارز ايضاً. وقد اتخذت الملكة هيلانة خشب الارز لقبة القبر المقدس وسقف كنيسة بيت لحم.

وقال بلينيوس في تاريخه الطبيعي (٣٨ : ٢١) كانوا يستعملون خشب الارز فينحتونه تماثيل واصناماً .

افتخر سنحاريب ملك اشور بانه صعد جبال لبنان وقطع منها خشب الارز ملوك رابع (١٩ : ٢٣ واشعيا ٣٨ : ٢١)

وافتخر الملوك البابليون والاشوريون بانهم يتقاضون جزية من خشب الارز وكثيرا ما يرد في النص الاشوري ذكر الارز موصوفاً بطيب العرف .

وقد اتخذ خشب الارز ملوك نينوى وبابل جسورا او روافد في هياكلهم وقصورهم وكانوا يكثرون جداً من استعمال الارز وقد صوّر النبي اشعيا (١٤ : ٨) الارز فرحاً محبوراً بخراب بابل .

وكانت قصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (كورتيوس رفوس (٥ : ٢٢)

وقد عرف المصريون الارز وخواصه العجيبة وكان الفينيقيون ينقلونه الى سواحلهم بحراً فاتخذه الفراعنة لابنيتهم الفخيمة كالقصور الملكية والهياكل الدينية وقد اقتدى بهم الملوك السلوقيون في سورية .

واصطنع المصريون وغيرهم اثاث بيوتهم من خشب الارز لعدم فساده . وحشوا من نشارته على موتاهم في تحنيطهم وطلوا براتنجه خارج التوابيت كما

يشاهد ذلك في مدافن المصريين .

وقد روى المؤرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) ان انطيغون الملك حاول حصار مدينة صور في سنة ٣١٥ ق م فاراد ان يجهز له اسطولاً قوياً فاتى بثمانية الاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافياً لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربية فنقل الخشب المقطوع على ظهر الفدابة الى مصانع صيدا وجبيل وطرابلس حيث انجز العمل و كان الخشب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظمة

فترى مما تقدم كم عاثت الحروب بارز لبنان ويؤخذ من رواية المؤرخ المذكور ان كل قمم لبنان كانت تزدهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب

فيتضح من كل ما سبق ان تجارة الارز اللبناني كانت متسعة النطاق فان الادوات الحربية والمجانيق كانت في الغالب تصطنع من الارز ولا شك ان السد الذي اقامه الاسكندر الكبير بين الشاطيء والجزيرة المبنية عليها مدينة صور دخل فيه شيء كثير من خشب الارز فيجب على الحكومة والاهلين المحافظة على تلك الاشجار التي هي حقاً فخر لبنان .

ولما زار امبراطور المانيا سورية في شهر تشرين سنة ١٨٩٨ واستقبلته حكومة لبنان في محطة عاليه استقبالاً فخماً وكانت الزينة واقواس النصر من اغصان الارز البري فاظهر كل من الامبراطور والامبراطورة رغبته لمشاهدة الارز الاصلي وتمنيا لو اتاح لهما الوقت فرصة لزيارته وعندما لحظ المرحوم ملحم بك ابو شقرا امير آلاي الجند اللبناني هذه الرغائب الشديدة عرض عليها اهدائها نصبة من الارز الاصلي كانت مغروسة في حديقته في بتدين فاظهرا له كل ارتياح وممنونية اذا حصلا على هذه الهدية الثمينة من لبنان . وقد نقلت تلك الشجرة الصغيرة الى مدرعتهما وغرست في حديقة قصرهما الامبراطوري في برلين

وفي سنة ١٩٢٠ اهديت الجنرال غورو اغراس صغيرة من شجر الارز فاستصحبتها شقيقته الى فرنسا وكتبت الي بعد حين انها حال وصولها غرستها في حديقة هناك فنمت وكبرت ·

جبة بشراي

ان المتضلعين بعلم اللغات عرّبوا لفظة الجبة (المرتفعة) وان اصلها فينيقية من جاه اي ارتفع ومنهم الاب مرتين اليسوعي في تاريخ لبنان ·

انك لا تجد في هذه المقاطعة آثاراً قديمة ماثلة الا انه من الثابت ومما لا مراء فيه ان قدماء ملوك مصر وبابل واشور نظراً لقلة الاحراج عندهم ولكثرتها في لبنان ولاحتياجهم للخشب والحطب فلاجل استثمار تلك الاحراج اللبنانية الغاصة آنذاك بالكواسر والضواري اضطرهم الامر الى انشاء ابنية يأوي اليها عملتهم ويتخذونها مأمناً ومتقى من تلك الوحشان · فبنوا منازلاً في بشراي واهدن وغيرها لتلك الغاية وهذا لديّ اول عمران تلك القرى ·

واما احتياج تلك الممالك الضخمة الى الخشب والحطب من لبنان فامر مشهور لا ريبة فيه وقد ذكرته مراراً وتكراراً التورة واجمع عليه المؤرخون الثقات ·

قال البحاثة ارنست رنان في تلك المقاطعة في بعثة فينيقية: « اذا لم نعتبرها لاجل آثارها القديمة فيجب اعتبارها لسبب آخر وهو لكونها مهداً للطائفة المارونية» وانه لغني عن البيان ان الطائفة المارونية نمت واتسعت في ارجاء المقاطعة المذكورة منذ نحو ١٤٠٠ سنة

بشراي

اما لفظة سريانية فتعني الاول اما فينيقية وتكتب بشرة وتعريبها بيت الشرى ويراد به عشتروت فاذا صح الثاني دلّ اسمها على قرية عريقة في القدم عبد فيها اللبنانيون عشتروت كاهل جبيل ٠

ذكرها الصليبيون في تواريخهم واطلقوا عليها اسم افرنجي (بوسرا) وانها كانت من القرى اللاحقة باملاك صاحب طرابلس

روى « راي » في كتاب مستعمرات الفرنج ان الى بشراي تنتسب احدى الاسر الشريفة الفرنجية ٠

اما تواريخ الموارنة فعلى حداثتها تجعل في بشراي وجوارها الحوادث التي جرت في اول ظهور الطائفة المارونية ٠

وسنأتي على ذكر اسرها العريقة وعيلها وانسابها ومشاهيرها ومشروع قاديشا الوطني الكبير

اهدن

اهدن كان يطلق عليها عند شيوخ اللغة السريانية (عدن) كما سنفصل ذلك عثرنا على ورقة بين اوراق المنسنيور بولس حنا ديب سعاده اناخ بها البلاء اذ انها قديمة جداً فقرأنا فيها بعد العناء ما يلي بحرفه :

« اهدن بلدة عدية موقعها بوسط حنية جبل لبنان لناحية الشمال وكانت تعرف قديماً باسم عدن تشيلاسار اي جنة الدائرة وهي كثيرة المياه والاشجار يخرج من شرقيها نبع ماء بارد وهو القسم الثاني من نهر ابي علي المار بوسط

طرابلس .

وقد ذكر بعض مفسري الكتاب المقدس انها كانت محل سكن آدم بعد خروجه من الفردوس الارضي حينما طرده الرب الاله منه وهذا رأي غير اكيد وقد توطن بها قبيلة من اولاد سام بن نوح وسكنوها وصارت محل شهير وفي سنة ٢٥٠٠ للخليقة خربت بسبب توجه اهلها مع اهل فلسطين لمحاربة الاسرائيليين وتوطنوا هناك وبقيت خراب لحد سنة ٢٩٣٩ الى ان اتى الملك هرذعذار السرياني وجدد بناها وعمل قايمة (نصب) لالهها المعروف بلبنان آله الثلج وذلك على شير مخروق فوق جبل عالي شماليها(اثر الشير ماثل للان ومعروف اليوم بباب الهوا) وكانوا يسجدون له جميع سكان قمم لبنان وصارت اشهر محلات لبنان وفي سنة ٣٢٥٢ للخليقة ملكها الملك سنحاريب ملك الاشوريين وحرقها بالنار وقتل اهلها بالسيف وقلب صنم لبنان الذي فوقها بواسطة قائده رفساقه السرياني وبقيت خراب لسنة ٣٦٥٤ قد جدد بناها ثالاقوس (سلوقوس) قائد جيش الاسكندر العظيم ووضع فيها سكان من ماكيدونيه وبقيوا اهلها يتكلمون باللغة اليونانية مدة سنين وبنوا فيها هيكل لناحية الشرق شاهق عظيم ووضعوا به صنم الشمس كما انه للان باقي تاريخ منقوش على صخر بحائط مار ماما باهدن مكان الهيكل سابقاً رقم سنة ٤٩٤ لابتداء مملكة ماكيدونيه وفي سنة ٣٩٨٠ حاصرها بومبايس بعد انتها الاسكندر العظيم وخربها وقتل اهلها بالسيف ثم بعد خمسين سنة جددوا بناها وسكنوها السريان واعتنق اهلها الدين المسيحي من الرسل الاطهار واستمروا على ذلك الى الان . ولم يعد يصير بها حوادث الا حين ذهاب اهلها لمحاربة قواد الملك مريق ومريقيان . انتهى . »

تعليق المؤلف — المونسنيور بولس حنا ديب سعاده الذي عثرنا على الورقة المذكورة بين اوراقه بحث كثيرا في تاريخ اهدن وكان ذا منزلة بين ذويه وحائز ثقتهم وكان مفكرا ذكياً ولو توفرت له وسائط الدروس العالية لفاق من تقدمه واخبرني مراراً عن هذه الورقة ونظرتها بام عيني رثة نخرها العث فاشرت عليه ان ينسخها ويحتفظ بالاصلية ونسختها وهكذا فعل وتراني حافظها بين اوراقي مصونة ٠

الفردوس الارضي

قال الاب مرتين اليسوعي في كتابه تاريخ لبنان (ص ١٢٠)

« ان هذه التقليدات ترتقي بنا حتى الى الفردوس الارضي وتسوقنا الى داخل هذا المقام السعيد فانها تنادي ان فردوس النعيم انما غرس في لبنان وان يد الرب غرست فيه ايضاً الارز المخبر عنه في الكتاب المقدس : (تروي اشجار الرب ارز لبنان التي غرسها مز ١٠٣ — ١٦) وفيه خلق الانسان الاول والمرأة الاولى في عدن الاصلي ولنسمع هنا ما يرويه الطيب الذكر العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي اعلم مؤرخي الطائفة المارونية قال : (يظن ان الله غرس الفردوس او جنة عدن الاصلية في وادي اهدن لان حزقيال يقول « ان ارز لبنان كان في جنة الله »

اما كتبة الموارنة كمرهج بن نيرون فقد اجمعوا على اثبات هذا الرأي وجملة مؤلفين من غير الموارنة دافعوا عنه ببعض الحمية مثل جسين في قاموسه العبراني في شرح كلمة عدن ٠ وريتر في ١٣٠ صفحة ٦٥٠ وما يليها ٠

اما التقليد المذكور فهو باق الى ايامنا وكثيراً ما سمعناه وقد ذكره المسيو

رينان واثبت وجوده وعارضه اشد المعارضة بعد ان قدّم كلامه بالتنديد والتهكم قال : « ان ارتياح الموارنة لجعل عدن في واديهم المقدس (وادي قاديشا » يصدر طبيعياً عن تعلقهم الساذج بوطنهم ومحبتهم للوادي المذكور الذي جرت لهم فيه عدة مواقع تشهد لهم بالبسالة والشجاعة والحق يقال ان هذا الوادي من انزه اماكن الدنيا واوفرها نعيماً ٠

ولاجل تصحيح مدعاهم اختاروا كتابة عدن بالعين المهملة وهي الكتابة المستعملة عند اهل الكهنوت والتي أثبت اعلم الناس عندهم انها الكتابة الاصلية اما اهدن بحسب قولهم فما هي الا تحريف من العرب (رينان بعثة فينيقية ٥٠١)

تعليق الاب مرتين على ما قاله رينان

« جميع المخطوطات السريانية كتبت فيها هذه الكلمة بالعين وكذلك جميع الكتب المطبوعة ٠ اما كلمة اهدن فما جرى استعمالها عند العامة الا من بعد تركهم الحديث باللغة السريانية التي كانوا يتكلمون بها قبلا ٠ فكيف يستطيع المؤلف المشار اليه ان ينكر كتابة هذا الاسم بحسب ما توجد في مخطوطات العهد الذي كانت فيه السريانية لغة العامة ٠ ولكنه قد زعم في بعض حواشيه ان مثل هذا التغيير لا يقع في الانتقال من لغة سامية الى لغة اخرى ٠ غير ان هذا الزعم ليس مبني على برهان وهو مردود بما تراقبه من التغيير الذي يقوم باستبدال احد الحروف الحلقية بآخر شائع بين العرب خصوصاً بين العرب الاميين منهم الا ترى ان بعضهم يقول اصبح في اصبع وشحوه وخسل بدلا من اقشعه وغسل وما اشبه وهذا امر وضعي قد اكده بلمور ومزّق عنه كل ريب

حتى في لغة البدو مع ان اهلها اشد تمسكاً بالاصطلاحات وخصوصاً ببيئة النطق وعليه فان الانتقال من لغة سامية الى اخرى لا يجر بمفرده الى وقوع هذا التبديل بل يجره ايضاً عادة العرب واستعمالهم الحالي له . ومع كوننا لا نروم المحاماة عن تقليد اهدن الذي يحصر الفردوس بالقرب من الوادي المقدس فينفي التصريح ان براهين المحدث لا قوة لها ولا سند »

« ومن حيث ان عدن في اللغات السامية يدل على النعيم فلا ريب ان امكن ان يلقب به كثير من الامكنة من دون اتصالية لازمة مع التقليدات عن عدن الاصلي . واننا نعلم بلا عناء ان حسن موقع اهدن مما يمكن ان يكون داعياً لتسميتها بعدن نظراً الى جمال المكان المذكور وفرط بهجته في ايام الربيع ولما ان جرى هذا الاستعمال حصر الموارنة بسبب «حبهم لوطنهم » في هذا المكان التقليد القائل بان الفردوس الارضي هو في المشرق بلبنان او بالقرب منه .

« ويؤيد ذلك ان اهدن يبعد ان تكون بمفردها الجهة الوحيدة من لبنان التي تفتخر بانها كانت محل عدن النعيم . فان وادي الفراديس بالقرب من دير القمر حيث تنبجس اربعة ينابيع نهر الباروك يذكرنا بمثل هذا التقليد عن الفردوس الارضي . »

المؤلف — ذكر الدويهي في تاريخه الموارنة : « النهر الذي يتكون من ينابيع هذا الوادي ينصب في البحر فوق صيدا باسم نهر الاولي اليوم ولكنه كان يسمى ايضا عند مصبه في القرن السادس عشر بنهر الفراديس وتوجد ايضاً قرية عظيمة تسمى ايضاً الفراديس في وادي التيم الجميل على مقربة من منبع الاردن الاعلى على سفح جبل الشيخ . وذكر الجغرافيون الاقدمون استرابون وبلين وبطليم في كورة لاذقية لبنان التي هي اليوم سهل حمص مدينة براديس

اي فردوس وهي التي وجد مكانها في جسية القديمة قريبا من منابع العاصي الكبيرة بين الجبل الشرقي والجبل الغربي ·

وتوجد مزرعة بالقرب من دير قزحيا بين وادي اهدن وقاديشا تسمى الفراديس

« ان لفظة الفردوس لا يفترق في مداوله عن لفظة عدن لان معناه البستان البهيج المغروس بالاشجار والمتزين بالخضرة والمسقي بالمياه · غير انه ليس في التحقيق مأخوذ عن اصل يوناني ولا كما زعم العلماء المحدثون بانه من اصل فارسي اوسنسكريتي او ايراني ويثبت بشهادات راهنة ان هذا اللفظ الكثير الدوران في الكتاب المقدس وفي التقليدات النصرانية ليس مستعار من لغات الامم وانما اصله من اللغة العبرانية · اثبت علماء اللغات ان هذا اللفظ سامي يشتق عند بعضهم من كلمة « فره » بالعبرانية ومعناها حمل ولكن معناها في السريانية ايضاً اخصب واثمر ودسا اي العشب والخضرة ولذا استعمله الكتاب المقدس بمعنى الجنة فاذاً تكون اللفظة سريانية لا عبرانية وقال غيرهم انلفظ فردوس مشتق من « فره » و « هدس » اي الآس فيكون تعريب فردوس المكان الذي ينبت فيه الآس وهو نبات معتبر عند الساميين

ان تكاثر هذه الاسما في لبنان ناتج عن تقليد يضع في لبنان مكان عدن الاصلي ·

ثبت مما تقدم ان لفظ فردوس سامي محض اذ انه تكرر ذكره في الكتاب المقدس منذ عهد قديم جدا قبل ان ظهر فصحاء الفرس والهند وتمكن العبرانيون او الفينيقيون الاخذ عنهم فان سليمان يقول في اناشيده : « اغراسك فردوس رمان مع كل ثمر نفيس وفاغية مع ناردين (نشيد ٤ ١٣)

« وعلى هذا فان التقليد الناطق بجعل عدن في لبنان لم يعتره تزعزع بل باقوى حجة يثبت بلفظ الفردوس لانه لفظ سامي وقديم ايضاً . اما سبب تعدد هذا الاسم واطلاقه على كثير من الاماكن فهو مما يسهل بيانه لان البشر لما تفرقوا على وجه الارض حملوا معهم تذكار اصلهم وسعادة الناس الاصلية ولما نزلوا في اوطان جديدة سموا بذاك الاسم كل موطن توهموا انه يرسم باجلى بيان حالة النعيم الاصلي فان الهنود جعلوا فردوسهم على جانب جبل مهاترو الذي يعد اعلى الهضاب في جبال حملايا وعند سفحه تنبجس من خلال الصخور ينابيع اربعة التي تسقي الهند » انتهى كلام الاب مرتين .

المؤلف – انه مهما غالى المتحذلقون لن تقوى حملاتهم على انكار وجود التوراة وانها من اقدم واثبت ما كتبه المؤرخون فاذا تتبعنا اقوال التوراة التي مر ذكرها والآثار القديمة الماثلة في شمالي لبنان الناطقة بكون ابي البشر الاول وطن زمنا تلك البقعة تثبت لنا صحة هذا التقليد وادلتنا على ذلك لفظة عدن كما ورد ومدينة الراس الماثلة اثارها في قرية بان وعلى الربوة الواقعة جنوبي غربي دير قزحيا الشهير والتي ذكرها باسهاب الجوالقدي لاروك في كتاب اسفاره في سورية ولبنان الجزء الثاني في وصف النواحي بعد ان اورد التقليد ان سكان اهدن في اعالي لبنان لا يسلمون بكون بعلبك حازت بمفردها على شرف كونها اول مدينة قامت في الدنيا ولهذا يظنون ان المدينة الاولى كانت في ارضهم ولم تزل اخربتها ماثلة شرقي اهدن (الاصح قبلي غربي اهدن) قال : « في هذه الناحية قرية بان وكانت تسمى قديماً بالعربية مدينة الراس وهي مبنية على ما قيل فوق اخربة اول مدينة في الدنيا » وما يشاهده السكان الى اليوم من الاسوار العظيمة والمعاصر والمغاور والردم المركوم حول هذا المكان يدل على كونه عريقاً في القدم

وذلك الخراب هو في اعينهم من بقايا المدينة الاولى التي شادها قايين

ثم احترام البابلي والاشوري والفارسي واليوناني والروماني والمغولي والعربي والعثماني والفرنجي الارز المعروف بارز الرب ولم يمد اليه يده القاطعة التي اكتسحت احراج لبنان . ذاك الارز قدسته لا بل الهته العصور الغُبر وفخر بزيارته كبراء العالم وعظمائه لماذا قدسته والهته اما كان ذلك التقديس لكون الاب الاول وطنه ؟

واهدن بلدة قديمة العهد يرجع بناؤها الى القرن الثالث عشر او الثاني عشر قبل المسيح . ذكرها القس عمانوئيل البعداتي في تاريخ الرهبنة الانطونية صفحة ٢٣٦ قال :

« أهدن قديمة جداً قال عنها بعضهم انها موطن آدم ابي البشر . ومن المشهور انها كانت معمورة قبل التاريخ الميلادي فيتناول تاريخها الاجيال الاولى للخليقة . وبعد الميلاد الالهي واشراق شمس الديانة المسيحية في لبنان بواسطة انذار مار بطرس اعتنق اهلها نير المسيح العذب وحافظوا على الايمان القويم ابداً وقد خرج منها علماء اجلاء لهم من الشهرة ما يغني عن التبيان منهم بطاركة واساقفة و كهنة ورهبان وعلمانيون لبعضهم تآليف اثيلة ومقالات علمية جليلة ولافرادهم فضل عميم على ابناء رهبانيتنا وقد اتيت بترجمة حياة بعض الاباء منهم الذين ترهبوا في رهبانيتنا في محله . واشتهر اهل اهدن بما لهم من الايادي البيضاء في المحاماة عن الدين الكاثوليكي المقدس وهم على جانب من المروءة والشهامة والكرم وتفرد بعضهم في الذود عن حرمة الوطن . وفيها كنائس ومعابد كثيرة منها كنيسة مار جرجس الشهيرة باتقان بنائها و كبرها ومنها ما دثر وماؤها عذب جداً سيما مـاء نبع مار سركيس . ومن المحقق ان طوائف

النصارى الذين اخذهم السلطان سليم الثاني الى مدينة حلب في اواسط الجيل السادس عشر كانوا من اهدن وبعض قرى لبنان يثبت ذلك اسماء العيال الموجودة في المدينة المذكورة التي منها في اهدن وغيرها كعائلة بيت الخوام وبيت افرنجية وبيت الكوسى منها نصرالله فرانكو باشا متصرف لبنان المشهور ومن حصرون عائلة بيت مطر منها المطران جرمانوس فرحات العلامة الشهير والمطران يوسف مطر وهذه العائلة من بني الشدياق . وعائلة بني دياب وعائلة بني العاقوري وعائلة بني الحكيم وغيرهم كثيرون وكانت الاتصاليات الودادية بينهم وبين اهالي حلب المذكورين يحقق ذلك كتاب الاناجيل والنوافير البيعية بالخط السرياني والكرشوني المفضض التجليد الموجود في كنيسة مار جرجس اهدن المذكورة خطته يد احد الكتبة الحلبيين الموارنه وارسل الى اهالي اهدن كتذكار جليل مع كأس جميل الصنع للتقديس لم يزل محفوظاً وسكان اهدن كلهم موارنة وعددهم يربو على ستة الاف نسمة . وفي اهدن دير للاباء اللعازاريين اوقافه من اهالي القرية المحررة وهي مركز مديرية تابع قضاء البترون

والاب هنري لامنس اليسوعي في كتابه « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الاثار » قال في كلامه عن اهدن صفحة ١٣٣ :

« اما الادلة على قدمها فكتابات ثلاث وجدت فيها اثنتان منها باليونانية والثالثة بالسريانية فالكتابة اليونانية الاولى قد طمسها الدهر ولم يبق منها الا سطرين في آخرها وهناك تاريخ تسطيرها وهي السنة ٥٨٤ للاسكندر توافق السنة ٢٧٢ م. والكتابة اليونانية الثانية مرقومة على قبر مجاور لكنيسة القديس ماما وهي مطموسة لا يسمح سوء حالها من تفسيرها وليس لها تاريخ ظاهر وفي رأسها صليب صغير يعلوها ولكن هذا لا يكفي لان ننسب الكتابة للنصارى

لانه امكن المسيحيين ان يحفروا هذا الصليب بعد ذلك بقرون عديدة . وقد اخذنا رسم هاتين الكتابتين ولكن لم يمكنا ان نصلح في شيء ما اثبته رينان في كتاب بعثة فينيقية وهو ايضاً ذكر الكتابة الثالثة المكتوبة بالسريانية بالحرف الاسطرنجلي وهذا تعريب ما بقي منها : « بسم الله الذي يحيي الموتى في سنة ا ـ للاسكندر ... رقد ومات مرقس ... »

— اهدن في وقتنا هذا —

لقد ثبت مما تقدم ان اهدن من البلدان التاريخية في لبنان وانها تقلبت مع الايام حسب مقتضى الظروف والازمنة مما سيجيء ذكره في سردنا للحوادث والان نكتفي بوصف اهدن الحالية .

على مسافة ساعة ونصف في السيارة من مدينة طرابلس ترى مدينة اهدن رابضة على سفح الجبل الاشم بين خمائل الجوز والشربين تختال فيها بمنازلها المتقنة الجديدة وبفنادقها الحديثة العصرية الحاوية كل اسباب الراحة اختيال العروس الفتانة بين تلك المناظر البديعة لها من جودة هوائها وعذوبة مياهها الكوثرية وعلوها عن سطح البحر ١٥٠٠ متر ما ليس لسواها في جمهورية لبنان يبلغ عدد سكانها ١٠،٠٠٠ آلاف نسمة اهاليها مطبوعين على محبة الضيف وحفظ كرامته

اهدن ابرزت من اللبنانيين رجالاً عصريين منهم الاستاذ الصهيوني مدرس لويس الرابع عشر ملك فرنسا والعلامة الدويهي ثقة تاريخ عقائد الامم ومرجعه وبطل لبنان يوسف بك كرم الشهير مدون استقلال لبنان بحملاته المشهورة والمدفون بكاتدرائية مار جرجس باهدن بطريقة يمكن لكل

زائر من مشاهدة جثمانه المحفوظ

اهدن مشهورة بكثرة مياهها العذبة اخصها ماء نبع مار سركيس (الثلجي) المتفجر من بين سخور سفح الجبل المكسو بشجر الشربين ذي الروائح العطرية وبقربه نبع الدواليب عدا عن العيون المتدفقة بين احياء المدينة ذات المنافع الصحية المختلفة فان نبع مغر القارح علاج ناجع للرمل والمغص الكلوي ومياه عين الافرنج دواء شافي لعسر الهضم ونبع جوعيت مفيد لاعصاب المعدة وهذا كله ثبت بشهادة الاطباء وبالامتحان

(منتزهاتها) — اهمها حرجها الواسع الواقع على مسافة نصف ساعة من المدينة للجهة الشرقية الشمالية الضام بين نجاده ووهاده جميع الاشجار الباسقة من سرو . ارز . طنوب . صنوبر . الخ . حيث تسمع خرير المياه النميرة في وهاده وبه كافة انواع طيور الصيد اكثرها الحجل . وان اردت ايها المتفرج ان تزور مناظر الجرود التي تبعد نحو نصف ساعة عن الحرج نجد هناك ينابيع عين الشوك والناحور . وقرنا . ويحمورا . في سفح تلك الجبال الشامخة التي تعلو عن البحر نحو ثلاثة آلاف متر تخال انك في وسط منطاد . ومنتزه سيدة الحصن المطل من كل جهاته على المدن الساحلية والبحر حتى جزيرة ارواد وجبال قبرص كذلك منتزه المطل ومنتزه نبع مار سركيس الشهير ونبع الدواليب والارزة الخ .

(فاكهتها) — تمتاز اهدن بانواع فاكهتها الصيفية الباردة منها التفاح الافرنجي الكبير والاجاص والدراق وخوخ رنكلود وخلافه .

فنادقها عديدة مجهزة على الطراز العصري الحديث اهمها اوتيل اهدن الكبرى رويال . الخديوية . رضا . سوطو . انطون . الارز . واهم اوتل فيها هـو

بالاس اوتل لصاحبه الخواجا ضوميط سعاده . وكلها منارة بالكهرباء مرتبطة بالاسلاك التليفونية والحمامات الحديثة الى غير ذلك من اسباب الراحة وفيها كثير من البيوت المعدة للايجار ومجهزة بلوازمها لراحة المصطافين

بلديتها ساهرة على واجباتها في اصلاح الطرق والنظافة ومنع المخالفات وتسعير كافة انواع الحاجيات من فاكهة وخضر ولحم والحليب و كافة انواع الغذاء

يوجد باهدن اطباء عديدون وصيدليات كاملة الاتقان ومركز رئيسي للبوسطة والتلغراف والسيارات متواصلة ليلاً نهاراً . ويوجد فيها ثلاث مدارس منظمة اثنتين للذكور والثالثة للبنات

وبالحقيقة ان اهدن اليوم هي احدى عرائس لبنان بل هي الفريدة بما يحيط بها من بدائع الطبيعة . فالى جانبها ينخفض ذلك الوادي وادي قاديشا الذي حوى ابدع ما خلقته يد الله والذي بحق يدعى الفردوس الارضي . واذا سلمنا مع المعترضتن على ان الله خلق الفردوس الارضي او جنة عدن في اهدن وضواحيها فلا احد يستطيع ان ينكر ان وادي قاديشا وما يحيط به من البدائع الطبيعية هو فردوس بحد ذاته .

والذي يزيد اهدن مهابة وجلالاً ارتكازها الى ذلك الجبل الاشم فم الميزاب الذي يعلو ٣٠٦٧ متراً عن سطح البحر فهي وما حولها من القرى في ذلك المنبسط على سفح الجبل كعقد لوءلوء تدلى من عنق حسناء يتموج على صدرها وتحته الوادي وادي قاديشا .

=()=

حدشيت

حدشيت لفظة سريانية معناها احد الستة . وهو مأخوذ عن رواية ذكرها الشيخ انطانيوس ابي خطار شيخ مشايخ الجنة، الذي سبق لنا الكلام عنه، في كتابه « مختصر تاريخ لبنان » المخطوط المحفوظ في مكتبة الاباء اليسوعيين . قال في الصفحة ١٤ في معرض كلامه عن قلعة فقرا ما حرفيته :

« قد وجدت في تواريخ قديمة انه سنة ٣٨١٧ للخليقة (قبل المسيح ١٨٧ سنة) قد ظهرت بالحلم ام الالهة الى الملك بطليموس الخامس من ملوك مصر الذي كان كلفاً بحبها لسبب مساعدتها له على تكميل مآربه الردية حتى انه قد بنى لها معبداً عظيماً في مصر وزينه بالذهب والجواهر الثمينة . قائلة له ابني لي معبداً في جبل لبنان ولاولادي الستة لكل منهم معبداً . واتاه هذا الحلم على ثلاث ليال وفي الليلة الثالثة سألها الملك المذكور قائلاً : اوضحي لي المكان الذي تريدينه لهذا العمل . فقالت له ضع تمثالي على ظهر ناقة ووجه معها احد وزرائك به الكفاءة على تتميم هذا العمل ويسير وراء الناقة الى حيثما تبرك ولا تعود تنتصب فهناك ابني لي معبداً

فلما اصبح الصباح باشر الملك بفعل ما امرته به ووضع تمثالها مع تمثال اولادها على ظهر ناقة مزينة بالحرير والجواهر والارجوان وسير معها احد وزرائه مكتنفاً بالجيش الوافر . وشرعت تلك الناقة تسير وهم يتبعونها حتى بركت في المحل المذكور اعني فقرا ولم تعد تقوم . حينئذ بان لقائد الجيش ان هذا هو المحل الذي تريده كما نوه له سيده . فحالاً شرع في بناء معبد عظيم عجيب البناء وزينه بالزينات الفاخرة الثمينة وباحكام البناء العظيم الذي قل ما وجد مثله

في ذاك العصر . وكانت تعلوه قبة عظيمة من نحاس سبيدري موشى بالذهب الابريزي ولشدة لمعانها كانت تمنع النظر اليها عند بزوغ الشمس. ولسمو ارتفاع هذا المعبد كان ظله يمتد مسافة ساعتين عند اشراق الشمس . وكان ذاك القائد يحث الناس عباد الاصنام بان يزوروا هذا المعبد مراراً عديدة في السنة كما اومر من سيده . على انه مع تمادي الزمان وكرور الايام وتلاشي عبادة الاصنام خرب هذا المعبد وتلاشى والان لم يبق منه سوى بعض آثار تدل على عظم بنيانه وغريب احكامه وعجيب اتقانه . واما اولاد الام المذكورة فقد شيد لهم القائد المذكور هياكل شهيرة معتبرة بموجب امر سيده الملك المرقوم . قد بنى للولد الاول المدعو ارطاميس معبداً في اسفل قاطع بيت شباب . وبعد اندثاره اقيم موضعه دير وهو المعروف بدير سيدة طاميش .وبنى للولد الثاني المسمى بللون معبداً تحت قرية عجلتون وبتمادي الزمان تقوض ودثر وحل محله نذر من السكان وذاك المحل يدعى الان بلونه

وشيد للولد الثالث المدعو عجلون هيكلاً فوق بلونه وبعد اندثاره قطن الناس هناك وسمي المحل عجلتون . وبنى للولد الرابع المسمى رافان هيكلاً شرقي عجلتون وبعد خرابه بني موضعه دير ثم صير مدرسة للطائفة المارونية ويسمى المحل المذكور الان ريفون

وزعم البعض ان الولد الخامس المجهول الاسم قد بنى له ذلك القائد معبداً في جبة المنيطرة قرب قرية افقا على جانب نهر ابراهيم . وكان هذا المعبد مركزاً لارتكاب المنكرات وفعل المحظورات كما يخبر اوسابيوس القيصري على انه في الجيل الرابع بعد المسيح هدمه الملك قسطنطين الكبير وشيد عوضه كنيسة على اسم السيدة .

وبنى للولد السادس هيكلا في قرية حدشيت في جبة بشراي · وبعد ان تقوض هذا المعبد قد رممه اهل حدشيت وجعلوه كنيسة على اسم القديس رومانوس وبعد مدة من الزمان قد تقوض احد حيطان هذه الكنيسة وعند ترميمهم اياه وجدوا به صنماً من حجر رخام كبير الجثة فكسروا رأسه ووضعوا الجثة في اساس حائط هذه الكنيسة كما هو المعروف من تقليدات شيوخ هذه القرية »

رحل الى حدشيت من نابلس الخوري يوحنا والقس ايليا واخوهما الشدياق جرجس اولاد الحج حسن في البهرة الثانية من القرن الخامس عشر للمسيح

وفي سنة ١٥٧٩ اعاد يوسف باشا بن سيفا التركماني والي طرابلس الشدياق خاطر الى ولاية جبة بشراي وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكاً له في الولاية · وتوفي الشدياق باخوس المذكور سنة ١٥٩٤ وخلفه ابنه الشدياق فرج في تدبير جبة بشراي مع الشدياق خاطر

(الدويهي (ص ١٧٦) والشيخ نطانيوس ابي خطار في كتابه المخطوط مختصر تاريخ لبنان)

تنورين

تنورين كلمة سريانية معناها وهدة · لها تاريخ قديم نقتطف منه ما يأتي عن بعض مخطوطات عثرنا عليها في ابحاثنا في خزائن بعض العيال القديمة التي تعنى بحفظ انسابها ومواطن اجدادها القدماء · واخذنا قسماً عن حضرة الاخ ميخائيل حرب الانطوني التنوري

تاريخها — الجد الاول يدعى بو غطصار من الشعب الالباني خرج من

بلاده الى بلاد الاكراد فاستقر فيها نحوا من اثنين وعشرين سنة ثم ارتحل عنها ونوى في حلب وهنالك ظل هو وسلالته مدة ١٩٠ سنة

وحدث ان احد ذريته واسمه ابو قرقماز غادر حلب الى دمشق فاقام فيها وكلمة قرقماز تركية معربها « لا يخاف » فكانت هجرته مدة اربع واربعين سنة وحاز حظوة عند حاكم دمشق فقلده وظيفة كاتخداه

وحدث حينئذ ان الشعب اثار شغباً على الحكومة لامر غير معلوم منا ونرجح انه بسبب احدى المظالم وكان الحكام يبتزون المال من الشعب بكل وسيلة ومتى ترتبت ضريبة على امر ما لشأن معلوم ظلت الحكومة تتقاضاها ولو ذهب السبب · والظاهر ان ابا قرقماز انحاز الى جانب الشعب وايدهم وتوسط لهم لدى الحاكم ففازوا بامانيهم

وتوفي الحاكم او انتهت مدته وجاء حاكم جديد وشى اليه احد المتزلفين بابي قرقماز لانه كان من حزب الشعب فنجحت الوشاية وعزل الحاكم اباقرقماز ودرى هذا بالواشي فترصده وفتك به ثم تعجل بالرحيل عن دمشق بعائلته المؤلفة من خمسة ذكور وهم قرقماز وموسى ولطيف وغراميس وابراهيم· واستوطن في يانوح وهنالك ولد له فؤاد الابن السادس · واستقر ابو قرقماز في يانوح سبعاً وعشرين سنة وتوفي فيها اما بنوه فآبوا الى دمشق وسكنوا فيها ٦٧ سنة

واثناء اقامتهم هذه رزق احدهم قرقماز ولداً ذكراً دعاه قرقماز وحدث ان بعض اصدقاء ابيهم انقلبوا اعداء بعد الولاء فحملت الخصومة قرقماز ابا قرقماز الثاني على قتل زعيم اولئك الحلفاء قديماً والخصوم حديثاً فاضطر ان يغادر دمشق ايضاً واتى بعائلته الى مرجحين واستقر هنالك

وظلت هذه الاسرة هنالك اثنين وخمسين سنة بملء السكينة الى ان طرأ خلاف بينها وبين المتاولة نجم عن سبب تافه وهذا هو

كان فرقماز الثاني له ابنة عذراء اسمها ضوا بلغت سن الشباب والظاهر انها كانت حسناء فذهبت يوماً ما الى بئر القرية بجرتها وكان على البئر سبعة عشر خيالاً من وجهاء المشايخ آل حماده فطلب احدهم من ضوا ان يشرب من جرتها — وربما كان هذا الطلب مستهجناً — او انه اراد ان يستخلص منها الجرة بالعنف او كان طلبه على وجه يمس بالكرامة فثارت حفيظة الفتاة وضربته بالجرة فتكسرت وعادت الى بيت ابيها ولجأت الى فراشها من شدة التأثر وقصت ما توقع لها على امها وجدتها فرأتا ان نبأ ذلك الحادث سيكون سيء الوقع على ابيها واخوتها فمنعاها من ان تبوح به وجاء الاب والاخوة مساء فوجدوا ضوا مضطجعة في فراشها فسألوا امها عن امرها فقالت انها مريضة فقد اصابها صباحاً بعد خروجكم انحراف مزاج . وهكذا اغلق باب السوءال وفي الغد ذهب الاولاد الى حقولهم لممارسة اعمالهم فيها وتخلف ابو فرقماز عن الذهاب وكان قد شك في صحة رواية زوجته عن انحراف مزاج كريمته فاستقصى نبأ ذلك المرض فباحت له زوجته بالواقع . ولدى معرفته الحقيقة اوجب على زوجته كتمان المتوقع عن كل احد وعلى فور الحال ذهب بذاته الى قرية عاشينا — احدى قرى الجبة وموقعها الى الشرق من بشراي — وهنالك اعد بيتاً لسكناه وعاد الى مرجحين وبدأ ينقل امتعة بيته حتى لم يبق منها شيئاً ونقل النسوة جميعاً وبقي هو واولاده الذكور . وحينئذ اطلعهم على سر جلائه من مرجحين فاتفقوا على وجوب غسل الاهانة التي حلت على ابنته واختهم فقتلوا الذي جسر على اهانة ضوا وستة شبان غيره ثم غادروا مرجحين ليلا الى عاشينا

ولما استقر ابـو قرقماز ومن معه في عاشينا احس ان المتاولة يتجسسون حركاتهم وسكناتهم يريدون ان يقتصوا منهم عما اوقعوه عليهم من الانتقام الذريع وقرائن الاحوال تدل على ان بقاءهم في تلك القرية غير امين فسار ثلاثة من اولاد ابي قرقماز الثاني الى بلاد عكار واستقروا في قرية تدعى تنورين واما ابو قرقماز واولاده الاربعة الباقون فانتقلوا الى قرية علما القريبة من مدينة طرابلس فاقاموا ست سنوات ثم نزح ابو قرقماز وثلا ثة من اولاده الى تنورين التي كانت حينئذ تدعى طورسين اما انتقالهم فكان هكذا :

كان قرقماز لم يرق له المقام في علما فاستبقى اباه واخوته فيها وشرع يرود البلاد ليختار مكاناً يستوطن فيه مع اسرته ويطمئن الى انهم يجدون امناً ويسرا وكرامة وحدث انه انتهى ذات يـوم الى تنورين التحتى فلقي هنالك الشيخ حسين بو بلوط من الحمادية وجرى بينهما حديث ادرك الشيخ حسين منه ان قرقماز يبحث عن مستقر امين ورآه ذكياً كريم السجايا فعرض عليه الارض المتوسطة بين النهرين نهري تنورين وحريصا وموقعها في ظل جبل يظلل علبه حرج ملتف كثيف فذهب قرقماز الى ذلك المكان وشاهده وحسن موقعه في عينيه وآب الى علما فنقل عياله الى تنورين التحتى

وبوصوله الى تنورين ملكه الشيخ حسين قطعة الارض التي سبق تحديدها بموجب صك رسمي فباتت ملكاً لقرقماز وهنا عمد حالاً الى تعمير ذلك المكان فالقى النار في اشجاره وظل يسعرها مـدى شهر حتى احترقت جميعاً وهجرتها الحيوانات الضارية التي كانت تختبىء فيها وماتت الحشرات والافاعي التي كانت هنالك . وحينئذ شرع يعد فيها المساكن له ولمن معه

وحين استيطانه ذلك المكان كانت تنورين الفوقى آهلة بسبع عيال هي هذه:

بيت صدقه · بيت حريقه · بيت عجيل · عائلة الضوامطة · بيت شمعون · بيت لايا · بيت مطر ·

وكانت عائلة مطر قد هاجرت من حلب وتوطنت في تنورين بعدما اقام فيها العيال الست الآنف ذكرها

وبعد استقرار عائلة ابي قرقماز في ذلك المكان اخذت تلك العيال تنزح من تنورين الى كسروان والمتن والشوف وزحله وبلاد بعلبك ولم يبق منها الا عائلة الضوامطة ·

وحدث ان ابا صادر مطر ذهب من موطنه يقصد مدينة طرابلس لكي يؤدي الاموال المطلوبة من سكان تنورين الفوقى الى الحاكم وكان يدعى الاشلق · فبينما هو في طريقه رأى الجبل محروقاً وبدا له ان في القرب من مكان النار اناساً وقطعان ماشية فعرج عن الطريق العام لكي يقف على هوية اولئك القوم فاجتمع بابي قرقماز وكان يومئذ شيخاً جليلاً مهيباً فتعارفا وقص ابو قرقماز على ابي صادر خبيئة صدره فانس به ابو صادر لان المسيحيين كانوا يومئذ يود كل منهم ان يشد ازره بابن دينه لكي يتسنى لهما معاً درء تيار الاضطهادات الذي كان يحاول القضاء على المسيحيين جميعاً · وحينئذ عرض ابو صادر على ابي قرقماز السكنى في تنورين الفوقى ووعده بان يضع تحت يده املاكاً شاسعة وطمأنه ان القطعة التي اخذ صكاً من الشيخ حسين بملكيتها تظل في حوزته

وقبل ابو قرقماز بان يستقر في تنورين الفوقى هو ومن يلوذ به فقال ابو صادر ها انا ذا ذاهب لتأدية الاموال الاميرية الى الاشلق في طرابلس وساعود منها فامر بك واصعد بك وبمن معك الى تنورين وهنالك اتمم ما اتفقت به

معك فكن مستعدا للصعود

وعاد ابو صادر من طرابلس فمرّ بابي قرقماز ومن معه واصعد الجميع معه الى تنورين ووفى بما تعهد به وملكه نصف مشاع الضيعة

اما ابو قرقماز فاحرق الحرج وازال ما فيه من العليق والنباتات البعلية وعمل بيادر امام العين فانتسبت العين اليها وسميت عين البيادر

وطرأت على ابي قرقماز فكرة هي الامتناع عن دفع الاموال الاميرية والجلاء عن القرية فيما لو اوجب مأمور الحكومة على السكان دفع تلك الاموال وعرضها على ابي صادر فوقعت عنده موقع القبول وعمل بها فلم يؤد المال الاميري في ميعاد دفعه كجاري العادة

واستبطأ الحاكم ورود المال عليه فارسل مأمورا لاحضاره فحضر المأمور الى بيت ابي صادر وطلب المال فاستمهله ابو صادر ليتمكن من اخذ رأي ابي قرقماز في ما يجب عمله

اما هذا فانه اشار بترك القرية وان ترسل الابقار الى الحرج حيث ترعى نهاراً وتستقر ليلاً في مغارة اعدها ابو قرقماز لها من ذي قبل فعمل ابو صادر برأيه فارسلا الابقار الى الحرج وذهب ابو صادر مطر وقومه الى الجهة القبلية وابو قرقماز وقومه الى الجهة الشمالية

اما ابو قرقماز فكان استقراره في المحل المدعو بوادي البيارة اي محلّ معادن الحديد ثم ذهب الى حوب ومنها انحدر الى طرابلس ومثل بحضرة الاشلق وقال ان سعادتك وضعت على ابي صادر رسماً لاستقراره في تنورين ما تؤديه فلاحة اربعة عشر زوج بقر على حين هذه القرية مؤلفة من احراج وجبال واودية وليس فيها قطع تصلح للزراعة فرأى نفسه غير قادر على تأدية

الرسم المرسوم عليه لذلك رحل هو وقومه وترك القرية بلا ساكن . فرد عليه الاشلق بانكار كلامه وانه لا يعرفه فالتمس ابو قرقماز ان يرسل الاشلق كاشفاً فان القرية خالية من انيس وابقار ابي صادر سارحة في الاحراج والمغاور التي هي تؤلف تنورين التحتى فقال الاشلق اذا كان كلامك صحيحاً اطوب القرية باسمك والا آمر بقودك مكتوفاً الى طرابلس فقبل ابو قرقماز بهذا الشرط

وارسل الاشلق كاشفاً من قبله فرأى القرية خالية وشاهد الابقار الراعية فعاد الى الاشلق وروى عما رأى فكانت روايته طبق افادة ابي قرقماز وسمى الاشلق المغارة التي كانت مأوى البقر مغارة الابقار ولا يزال اسمها هذا الى الان

وحينئذ حسن عند الاشلق ان يطوب تلك القرية باسم ابي قرقماز وان يؤدي عنها رسم سبعة فدادين فتمنع ابو قرقماز عن القبول وطلب ان يجري التحديد القانوني اولاً وهاك حدود القرية التي وضعها :

شمالاً شير عاصي فوق تنورين التحتى حتى ارز البلاد الى قرنة ماري سمعان الى راس عريض الذوق .

شرقاً من رأس عريض الذوق الى البوابة ومنها الى الحائط الروماني بين عيناتا واليمونة على برج اليمونة ومنه الى الحد الفاصل بين العاقورة وتنورين .

قبلة من اول عقبة اليمونة الى سيدة القرن ومنها الى جبل بعطاره

غرباً جبل بعطاره حتى خراج بيت شلالا

ولما تناول ابو قرقماز الصك على الوجه الذي سبق بيانه جاء باهله ومواشيه فعاد الى السكنى هنالك وقد باتت يده مطلقة بها

وخفي ما حدث وقتئذ على ابي صادر وبعد مرور عام من ذلك درى ابو صادر وقومه بالمتوقع فساءهم ذلك الامر جداً وامتلأت نفوسهم سخطاً

على ابي قرقماز وعمدوا الى الايقاع به

وذات يوم وافى ابو صادر ومعه بعض انسبائه ومنهم ابن شقيقة ابي قرقماز وكمنوا في رأس عقبة الحسين لابي قرقماز . وحدث ان ابا قرقماز دعته بعض امور الى ان يقصد البيادر في اللقلوق لكي يتناول قسمه من القمح المزروع هنالك . فلما مرَّ بالقرب من مكمن ابن شقيقته القى عليه هذا عياراً نارياً فارداه للحال قتيلاً

ولما دوى الطلق الناري وصل دويه الى مسمع امرأة القتيل وكانت حينئذ في التنور فصرخت وركضت الى محل صدور الصوت وتبعتها حالا بلا ابطاء بقية النساء لاستجلاء الواقع

ووصلت ام قرقماز الى تحت الجوزة فوجدت زوجها جثة خامدة فللحال اخذت تنتف شعرها وتمزق ثيابها وترفع صوت الحزن والاسى ولحقت النسوة بام قرقماز وشاهدن القتيل فقالت زوجته ان قتله على مقربة منا . وسميت الجوزة باسم جوزة ام شوشة ولم يزل اسمها كذلك الى اليوم

ولما احس ابو صادر ومن معه بان النسوة اهتدين الى الجثة انهزموا حتى لا يراهم احد . وعلم اهالي تنورين بمصرع ابي قرقماز فذهبوا الى الجثة وجاءوا بها بتكريم ودفنوها بغاية الاجلال

اما آل ابي قرقماز فتقلدوا السلاح واخذوا يطوفون في ارجـاء تنورين ليعثروا على قتاله ويثأروا منهم فلم يعثروا على احد فعظم الامر عليهم

ودرى بما توقع الشيخ ابو هاشـم العاقوري فاستدعى بني ابي قرقماز ليحضروا لديه فحضروا وسألهم عما حدث فرووه له وانهم ينسبون الجناية على ابيهم الى ابي صادر واللائذين به فقال لهم انا هنا تابع لحكومة الشام ويدي

طائلة في الانتقام ممن اعتدى على ايكم اكثر منكم وبالاتفاق معهم أرسل من قبله نفراً من رجاله باغتوا بيت ابي صادر مطر فقتلوا منهم خمسة وعشرين رجلاً وانهزم الباقون وهم نحو من خمس وسبعين شاباً وانتشروا في البلاد حذراً من ان يستأصلوا كلهم

اما بنو قرقماز فشكروا الشيخ الهاشم المذكور وقدموا له قطعة ارض في حوب تعرف باللحيفية تكرمة له لانه ثأر لهم من بني ابي صادر مطر

عيال تنورين — نمت ذرية ابي قرقماز في حياته وبعد وفاته تقسمت الى افخاذ متعددة وهذا ما أدلى الينا به نقلاً عن الشيخ امين طليع طربيه ووجدفي اوراق قديمة عثرنا عليها مأخوذة اخبارها بالتقليد عن حبيب سركيس والد الاخ ميخائيل المذكور

كان لابي قرقماز اولاد عديدون عرف منهم حرب وموسى والشدياق حنا

فحرب جد عائلة ابي حرب · وموسى جد العيال الاتية : بيت ابي طربيه· وبيت داغر وبيت يعقوب وبيت يونس· والشدياق حنا ابو عائلة بيت الخوري حنا في بسكنتا

اما ضوا ابنة ابي قرقماز الثاني التي ذكرنا آنفاً الاهانة التي حاول احد المتاولة ان يلحقها بها فقد تزوجت بمراد بن فياض بن بشير بن راجي

مشاهير هذه العيال — كان لطربيه من سلالة موسى صلات بعائلة بيت الحمادية المتاولة الشيوخ فكانت معاملاته معهم في تنورين التحتى والمنيطرة فاعطوه لقب شيخ وحرص على هذا اللقب هو وابناؤه من بعده

بيت حرب — اشتهر من ابناء هذا البيت انطون بك الخوري المعروف واخوه الشيخ بطرس الخوري شيخ تنورين وشارل ابن الشيخ بطرس محام مشهور

وهو المدعي العام في محافظة بعلبك

بيت يونس — اشتهر منهم جرجس بك الخوري واخوه الخوري طوبيا · واولاده اسعد مدير الدوائر العقارية في لبنان ومسعود نائب شمالي لبنان في المجلس النيابي ونعمةالله

بيت داغر — اشتهر منهم مفلح افندي المحامي واولاده اسعد بك وبطرس بك والقس اغناطيوس تنوري الذي يتولى الرئاسة العامة في الرهبانية البلدية·

بيت مراد — اشتهر منهم ضوميط افندي الخوري محام مشهور وولده يوسف موظف في فرنسا وولده بطرس موظف في الولايات المتحدة الاميركية وولده جورج محام في لبنان وولده اسكندر مهندس كهربائي

اما عائلة الضوامطة فتعرف اليوم بعائلة بيت غوش منها كرام اشتهروا بالمروءة وكرم الاخلاق

عائلة بيت مطر — عاد بعض ابناء هذه العائلة الى تنورين بعد نزوحها منها بزعامة ابي صادر مطر فاشتهر منها كثيرون

عائلةبيت الرعيدي — جاءت هذه العائلة من عقبة الرمانة وقد اشتهر منها بيت الخوري عبد الاحد

بيت الهاشم — جاء هذا البيت من العاقورة وهو فرع من عائلة الهاشم فيها·

بيت مهنا — هذا البيت جاء من العاقورة ايضا واشتهر منه رجال لهم منزلة ووجاهة بين قومهم

بيت قمير — هذا البيت ايضاً نزح من العاقورة واشتهر منه كثيرون

بيت العنكسوري — جاء جد هذا البيت من عين كسور احدى قرى الشوف فنسب الى وطنه الاول · ونبغ من هذا البيت كثيرون

مشاهير بيت المصري ــ اطلق لقب مصري على احد ابناء عائلة الجميل في بكفيا لما نزح الى تنورين وقد اشتهر من ابنائه غير واحد

بيت العنداري ــ الجد الاول من عين‌دارة في الشوف نقل الى كفور العربي فتنورين حيث طاب له الثواء وقد نبغ من سلالته كثيرون

بيت سرور ــ الجد الاول من العاقورة نزح الى تنورين حيث استقر به المقام ونبغ من سلالته عدة رجال

بيت البعقليني ــ نزح الجد الاول من بعقلين الى المتن وتفرقت سلالته في الشوير والشبانية وجاء احد ابناء الشوير الى تنورين واتخذها مقراً وترك فيها سلالة معتبرة ذات وجاهة

حصرون

حصرون بلد عريقة في القدم كما يدل اسمها فان معنى حصرون باللغة السريانية محل الحصار . او ان اسمها مأخوذ من التوراة

واول ما عرفناه عن تاريخها رحيل اولاد شاهين من صدد الشرق وسكناهم فيها وذلك في البهرة الثانية من الجيل الخامس عشر وكانت عامرة قبل هذا التاريخ .

وذكر العلامة الدويهي (صفحة ١٧٤ من تاريخه) « انه في سنة ١٥٧٤ حدث في جبة بشراي خصومة بين القريعية والبشرانيين فقتل القريعية منهم اثنان عند العين التي تحت بقاعكفرا فقدمت الشكاية الى غزير بسبب القتلى اما الامير منصور فعزل القريعية بايعاز ابي منصور ابن حبيش عن ولاية الجبة وسلمها الى المقدم مقلد بن الياس وكان شريكه الشدياق يوسف ابو رعد المسمى

خاطر وهو ابن الشدياق شاهين الحصروني من بيت مشروق »

وذكر العلامة الدويهي صفحة ١٧٦ « وفي سنة ١٥٧٩ قدمت السعاية الى الباب العالي في الامير منصور بن عساف بسبب قتله ابن شعيب وامراء فتقا وعبد الساتر وغيرهم فصدر الامر من السلطان بجعل طرابلس باشاوية لتنكسر شوكة ابن عساف وان يتولى سياستها ابن سيفا التركماني ٠ وعندها هرب الشدياق خاطر الى جهات بعلبك والمقدم مقلد الى ناحية الشوف فمات هناك عن صبي وبنت وهما جمال الدين يوسف وست البنات ٠ ثم ان يوسف باشا كاتب الشدياق خاطر بالامان واعاده الى ولاية جبة بشراي »

وذكر الدويهي صفحة ١٩٢ « في سنة ١٦١٣ كان مقتل رعد بن الشدياق خاطر الحصروني ٠ تزوج ست البنات بنت المقدم مقلد وكان كثيرا ما يتهددها بالقتل فوضعت له على ما قيل سماً في دجاجة اكلها مع اخيها جمال الدين يوسف فماتا كلاهما

وسنذكر تاريخ عائلاتها في الفصل الذي خصصناه لتاريخ العائلات في شمالي لبنان

الكورة

في الكورة آثار ترتقي الى عهد اليونان والرومان وهي من اخصب انحاء لبنان تجمع سهولاً وحزون ولا مراء انها كانت آهلة منذ القرون الغابرة

دار بعشتار

لفظة مركبة من لفظتي بيت وعشتار وعشتار هي نفس عشتروت آلهة الفينيقيين الشهيرة فيستدل بذلك على ان هذه القرية كانت سابقاً هيكلاً

لعشتروت يعبدها فيه اهل لبنان

موقعها على ضفة نهر الجوز الفاصل بين مقاطعتي الكورة والبترون وفيها شيء من بقايا القرون الوسطى منها كنيسة ذات حنية محكمة العمل تكتنفها اخربة قديمة من العهد نفسه

بزيزا — اسمها منحوت من بيت عزيز اذ ان الباء في الفينيقية اختصار بيت واما عزيز فهو احد الالهة السامية . وفي بزيزا هذه هيكل صغير حسن البناء قديم العهد لم تضعضعه حدثان الدهر ولما تغلبت النصرانية على الوثنية في لبنان جعل الاهلون الهيكل كنيسة واضافوا اليها حنايا آثارها بادية حتى اليوم وهم يدعونها سيدة العواميد لما يزين واجهتها من الاعمدة وليس هناك كتابة تفيدنا شيئاً عن ذاك البناء القديم .

ناوس — لفظة يونانية تعني الهيكل موقعها شمالي شرقي بزيزا على مسافة اربع كيلومترات منها وهي تعلو ربوة قريبة من عين عقريم (عين عكرين) الحالية . واذا استثنيت بعلبك واثارها الجبارية لا تجد في كل لبنان ما يضاهي بقايا ناوس واطلالها اتساعاً وعظمة اما نقوشها فهي ايضاً دون نقوش بعلبك دقة واحكاما وفيها مسحة من الصناعة السورية فاسمها يدل على انها من عهد اليونان اذ لا كتابة فيها تدل على غير ذلك فيجب الاسترشاد باسمها الى معرفة بناتها .

وقد سبق لنا ان ذكرنا نقلا عن بعض المؤلفين ان ناوس من بناء الفينيقيين وقال بعضهم انها من بناء الرومان ولم يأتوا بدليل على ذلك . اما نحن فقد ارتكزنا على اصل اسمها وقلنا انها من بناء اليونان . وقد يكون بناتها الفينيقيون ورممها اليونان انما كما قلنا لا يوجد شيء يمكن الركون اليه لمعرفة بناتها الا اسمها

وفي ناوس المار ذكرها اخربة هيكلين كبيرين يلاصق احداهما الاخر يحدق بهما سوران رحبان وفي وسط كل منهما معبد قليل الاتساع تزينه اعمدة مصمتة(لا فرجة فيها) تراها على صورة حصن سليمان في جبل النصيرية وار كان الابواب التي يدخل منها الى حرم الهيكل من الحجارة الضخمة وهي منقورة على شكل درج وآثار هذا الدرج باقية حتى يومنا · ولا ريب انه كان في الزمن القديم لهذين الهيكلين منظر يأخذ بالابصاوكان الناظر من على هذه الاكمة المرتفعة نحو ٦٠٠ متر عن سطح البحر يكشف على كل الساحل من البترون الى ما وراء طرابلس وهو يرى سهول الكورة ومزارعها الجميلة منبسطة امامه ·

واذا لحظت النقوش التي على الهيكل وجدتها خشنة غليظة وليس هناك من الحجارة الضخمة سوى مساند الابواب والصفائح المثلثة الزوايا التي تعلوها اما بقية الحجارة فهي متوسطة الكبر كحجارة افقا وقلعة فقرا وفوق باب المدخل صورة كرة مجنحة تزينه الف الفينيقيون مثل ذلك في هيا كلهم ·

اما الهيكل الاخر الذي موقعه جنوبي غربي الهيكل السابق ففيه بقايا حسنة من نقوش ابوابه وقد وجد بين ردم الهيكل تمثالا نصفياً يمثل البعل وعلى راسه شعاع الا ان نقشه خشيب ونظن انه سقط من الكوة التي تعلو مدخل المعبد ولهذا الهيكل سور حجارته جبارية يبلغ طول بعضها ستة امتار ·

وترى حول قرية ناوس المدافن الجميلة والمقاطع المتسعة والنواويس المنقوشة التي تدل صريحاً على ان تلك الانحاء كانت في الاجيال الخالية عامرة حافلة بالسكان وان لم يفدنا التاريخ عنها شيئاً وكذلك لم يكتشف احد بين تلك الانقاض كتابة تنبئنا عن اخبار السلف

اميون

ورد في كتابات تل العمارنة التي سبقنا ففصلناها ذكر علم « اميـا » فاذا كان المقصود به اميون يصح القول انها اقدم بلد داخل لبنان احتلها السكان

اما الاثار الباقية فيها فقليلة جدا • من ذلك صخر منحوت نقرت فيه كوى او مشاك ومنها كهف يرى اليوم تحت السراية الجديدة كان فيما سلف من الزمان مدفنا ثم جعل معبدا لذكر القديسة مارينا وبقرب الكهف اخربة كنيسة عتيقة بقي منها حنيتها و كان معبد القديسة مارينا تابعا للكنيسة معدودا كاحد مصلياتها وقد تكرر ذكر اميون في تاريخ الموارنة القديم و كانت اذ ذاك مركزا مهما للملكيين كما هي اليوم

وممن ذكروا اميون الشريف الاددبسي في كتابه نزهة المشتاق • اما الصليبيون فلم نجد اسمها في تآليفهم مع انهم وصفوا غيرها من قرى الكوره ومن املاكهم في هذه المقاطعة كفرقاهل وبتوراتيج (يجب ان تكتب بالطاء اذ انها لفظة سريانية تعني الجبل المتوج) وبطرومين وبديبون وغير ذلك من الاسماء التي شوهها الفرنج باللفظ واصلاحها سهل •

المسيلحة — المسيلحة في اللغة العربية تعني المرقب • موقعها بين البترون وطرابلس فيها حصن منيع مبني على صخرة منتصبة على وادي نهر الجوز عمودياً • والوادي في هذا المكان حرج المنعطف ضيق •

اما هذا الحصن الحريز لم يذكره احد من المؤرخين حتى يعرف بانيه ولعل القدماء في الاجيال المنصرمة كانوا شيدوا هذه القلعة فجعلوها كمرقب لحركات العدو كما يدل معناها في مضيق لم يكن لهم ندحة من الاجتياز في

وسطه ذهاباً الى طرابلس واياباً منها الى البترون ·

ولا مراء ان ابنية المسيلحة الحالية لا تتجاوز القرون المتوسطة ولا يستغرب ان الصليبيين رمموها بعد خرابها اذا لم يكونوا هم بناتها الاولون · ولكن الباحث في تواريخ العرب والصليبيين وغيرهم لا يعثر على ذكرها ·

ذهب المسفار دي لاروك الفرنسي ان الامير فخر الدين المعني هو باني المسيلحه ولكن لم نقف في مباحثنا الدقيقة على ما يسند مذهبه ·

جبل راس الشقعة — جبل يستلفت اليه النظر من بعيد بهيئته الغريبة ووعورة مرتقاه اذ انه قائم بنفسه منقطع عن بقية لبنان واكبر القرى التي في سطحه حامات وكان لهذه القرية كنيسة قديمة لعلها كانت مزدانة بكتابات درست لما بنيت الكنيسة الجديدة وسنأتي على ذكر حامات عندما نبدأ بذكر الاسر العريقة اذ انها انجبت رجالاً لا مندوحة لنا عن ذكر تراجمهم واخبارهم في موءلفنا · وهذا الجبل حافل بالاديرة كدير سيدة النورية ودير مار الياس ودير حنوش مما يحدو بارباب العاديات ان يدرسوا هذا الجبل الصرد

وها ان اليوم وموءلفنا ماثل للطبع قد تألفت شركة لاستثمار هذا الجبل وهي عازمة على تأسيس معمل للترابة الفرنجية (سامنتو) في شماليه

وقد وصف هذا الجبل حضرة الاب العالم لامنس اليسوعي وصفاً رائعاً ممتعاً منطبقاً في ص١٤٦ من كتابه (تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار) في جزءه الاول فقال : « ان هذا الرأس ينتصب كصخرة صماء ويدخل في غمر البحر مشرفاً على كل البلاد المجاورة وعلوه يبلغ ٣٠٠ متر واذا نظر اليه المسافر القادم من جهة طرابلس رأى شكله اشبه بدارعة هائلة قائمة فوق شبج البحر لا تبدي حراكاً في رأسها مهماز مرعب لمناوأة عدوها وفي جوانب

هذا الرأس اخاديد تشهد بما دهمه من الزلزال في كرور الاجيال فتضعضعت اركانه وتقطعت اوصاله نخص منها بالذكر الزلزلة التي حدثت في عهد يستنيان الملك وهذا الزلزال غير هيئة رأس الشقعة بل الحق اهواله بالجبل المجاور لهذا الرأس فشوه صورته » (انتهى كلام لامنس) .

وذكر الجغرافي اسطرابون ان في زمانه كانت قلعة مشيدة في اعلى رأس « وجه الله »

وان في هذا الجبل ليس بعيدا من البترون اغوارا وكهوفاً يأوي اليها اللصوص وقطاع الطرق كانوا يعيثون في البلاد فسادا فاجتث بومبيوس الروماني دابرهم (اسطرابون)

واختص الفينيقيون هذا الجبل بعبادتهم وتانيث معبودة الفينيقيين كانت تدعى باسم « وجه بعل » كما اختص هؤلاء جبالا اخرى بعبادتهم كجبل الكرمل وجبل الاقرع شمالي اللاذقية وجبل لبنان نفسه عبده هؤلاء ودعوه بعل لبنان .

ذكر رينان في بعثة فينيقية ان رأس الشقعة كان اثراً لعبادة تانيث المذكورة واستشهد بلفظه الافرنجي (كاب مادون) وناقض الاب لامنس اليسوعي بقوله « مادون » تعريب كلمة السيدة وقيل له رأس السيدة اشارة الى سيدة النورية التي بني هناك دير باسمها

اما النصارى اليونان فابدلوا اسمه باسم وجه الحجر وهو اسم قرية مجاورة له موقعها فوق سطح الجبل جنوباً وقريباً منها قرية تدعى قبة وهي واسعة تشرف على البحر وحولها اغوار

سلعاتا — موقعها بين البترون وحنوش فيها نبع ماء جار يستدل منه على

مقام قديم وقيل عنها انها كانت كرسياً اسقفيا وجعلوها مع جيغرتا وانفه

ووراء هذه القرية جون صغير يفضي اليه مسيل ماء ناشف يدعى وادي عميق . والطريق التي تمر حول هذا الجــون منقورة في الصخر . كالطريق الرومانية التي عنـد نهر الكلب وعلى جانب هذه الطريق صخرة كتب على وجهها افقياً باليونانية ما تعريبه : « هنا ينتهي ملك ديموسترات » وبازاء هذه الكتابة على الصخر العامودي الذي بجوارها رسم تربيع بعروتين ولعله كان فيه سابقاً كتابة طمسها الدهر ولم ير فيها السياح اثراً للكتابة

فهذه الكتابات مع نقرصخور تدل على ان الطريق كانت تجتاز في هذا المحل وهي الطريق الرومانية التي كانت تتبع سيف البحر مارة حول رأس الشقعة والمرجح ان الجيوش الرومانية كانت تسلك هذه الطريق لان الطريق الجبلية وعرة صعبة المرتقى وليس فيها شيء من الاثار الدالة على اعمال الاقدمين ويرجح ان المصريين في مقاتلاتهم مع الحثيين وغيرهم كانوا يجتازون هذه الطريق وان الزلزلة التي حدثت في عهد يوستنيان التي مرّ ذكرها دمرت هذه الطريق

جيغرتا

مع كون زغرتا من القرى القديمة التي استلفتت انظار الامم الغابرة بحسن موقعها في بطائح مخصبة واودية غناء يسقيها ماء نهر نمير لكنه ليس لهـا مناعة القلاع وليست هي بجديرة ان يتحصن بها لصوص الايتوريين وقطاع الطريق كما جاء في وصف جيغرتا

وكذلك لا يصح تطبيق جيغرتا مع غرزوز لبعـد غرزوز جنوباً عن

البترون ولا مع شكا لوقوعها في السهل او في منعطف آكام قليلة الارتفاع ولا مع الهري لخلوها من الآثار القديمة وان كان وصف المؤرخين يوافقها كل الموافقة من حيث الموقع الا انه لا يجوز ان ينسب الى قرية اصل قديم قبل ان يكتشف شيء ينبيء بقدمها ٠

اما حنوش فتصدق فيها كل الاوصاف التي وردت عن جيغرتا من حيث قدمها و كثرة آثارها

ترى في حنوش معاصر وحجارة رحى ورؤوس اعمدة وهناك رسم كنيسة قديمة من الطرز البوزنطي تعرف اليوم بكنيسة القديس يوحنا طولها ٢٣ متر و ٥٠ سنتيمتر في عرض ١٥ متر وحواليها قطع اعمدة رخام مع صلبان منقوشة وبقايا كتابات يونانية ذهب اكثرها فضاعت معانيها

جاء في تاريخ بلينيوس (ك ٥ ف ١٨) ان جيغرتا شمالي البترون وجنوبي تريا ريس (انفه) وذكر اسطرابون (ك١٦ ف٢) ان جيغرتا حصن حريز يحتله الايتوريون موقعه عند البحر قريباً من البترون ورأس الشقعة على ان في هذا الوصف بعض الابهام اذ انه لم يفِ بالغرض المقصود اذ لم يفدنا عن جهة موقع جيغرتا اتكون شمالي البترون ام جنوبيها ٠ اما بلينيوس فقد ازال هذا الالتباس بتحديده موقع تلك البلدة ٠

ووهم فورر ان جيغرتا هي زغرتا (بلد المؤلف) ولكن موقع زغرتا لا ينطبق على وصف المؤرخين لجيغرتا :

١ً لبعد زغرتا عن البحر

٢ً لموقعها في شمالي انفه

٣ً وقوعها في وسط سهول خصبة لا تصلح للتحصين

٤ـ لم يعثر في زغرتا على شيء من المعاديات

وترى في شرق حنوش مدافن نقرت في الصخور قد اتلفتها الايام

واغرب ما يوجد في حنوش من الآثار جرن متقن العمل قطره متر و٤١ س وعمقه ١٥ و١ س يبلغ وزنه ٢٣٠٠ كيلوغرام يستدير به نقش ناتيء ذو كتابة يونانية مطموسة يستدل من الفاظها الباقية ان انيلوس وهو اسم ارامي بحت والاخر تاراس يشبه الاسماء اليونانية المنقولة عن العربية اصطنع هذا الجرن من ماله الخاص هبة منه للمشتري ويستدل من هذه الاسماء ان سكان هذه الامكنة كانوا آراميين جنساً وان كانت اللغة اليونانية بحكم الفتح اضحت لغتهم الرسمية فان الاعلام اصدق اثر ينبيء باصل القوم وذكر اجدادهم

ومما يوءيد ان جيغرتا هي نفس حنوش اتصال السكة القديمة المنقورة في الصخر عند وادي غميق بمقامها فضلاً عن موقعها في لحف راس الشقعة قرب البحر بين انفه والبترون وترى من خلفها صخوراً عالية مقطوعة قطعاً عمودياً تصلح قممها لان تكون معقلاً لقوم من الصعاليك وعشا لاهل الغي والفتن يعششون فيها دون ان يهابوا مباغتة العدو . واما اسم جيغرتا فهو سامي الاصل ومعناه في العبرانية والسريانية المضيق وشِعب الجبل وهو ينطبق على موقع المكان ولغة اهله .

الهري ــ لفظة عربية تعني بيت كبير يجمع فيه القمح وغيره

راس غاش ــ لفظة سريانية ايضا سنأتي على تفسيرها وهي مقام قديم سكنه امراء ذكرهم التاريخ سنفصل عنهم

شكا ــ لفظة سريانية تعني محل الشك وهي قرية قديمة موقعها الاول لم يزل بارزاً نقلت حديثاً الى السهل فيها بيت عريق ينتسب اليه الوجيهان خليل

بك الخوري وموسى افندي الخوري المحامي المعروف

انفه — دعاها القدماء تريارس وهي لفظ يوناني معناه المثلثة الزوايا لشكل رأسها الشبيه بالمثلث المستطيل اما انفه فهي لفظة سامية بحتة ومعناها جلي ظاهر يراد به الرأس ٠

ذكر انفه المؤرخون سكيلكس وبوبيبوس واسطرابون وغيرهم من كتبة عهد الدولتين اليونانية والرومانية ودعاها الشريف الادريسي « افق الحجر » ولعله التبس عليه اسمها واسم قرية وجه الحجر في رأس الشقعة

وذكرها ياقوت في معجم بلدانه٠(١ : ٣٩٠) « انفه بليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبل صهيون بينهما ثمانية فراسخ » وهذا غلط ظاهر فكان الاحرى به ان يقول جنوبي غربي صهيون

وذكرها شمس الدين الدمشقي في كتابه عجائب البر والبحر (ص ٢٠٧ و٢٠٨) قال : ان للنصارى في انفه كنيسة عظيمة البناء وفيها بيت يزعمون انه اول بيت وضع باسم مريم في الشام وان البيت الثاني المشيد بعده لذكرها كان في انطرطوس » وهذه افادة جليلة لتاريخ النصرانية في سورية

لحقت انفه كنتية طرابلس على عهد الصليبيين وقد افسدوا اسمها باللفظ فدعوها تفنين

وموقع انفه بقرب رأسٍ مستطيل دقيق يشبه البرزخ وقد خُدَّ هذا الرأس بخندقين نقرا في الصخر نقراً عجيباً متسعاً يبلغ سطح البحر

وهذان الخندقان ينطقان بشدة عزيمة الاقدمين في مباشرة هذه الاعمال الجبارية وكيف نحتوا الصخور الصماء وكيف لانت صلابتها بين سواعدهم المفتولة وانه كانت لديهم ادوات قاطعة غير الادوات الشائعة اليوم

وترى بين الخندقين والقرية اعمالاً اخرى غريبة الشكل على جانبي الرأس الموما اليه وكلها منقورة في الصخر ٠

ويلحق بهذين الاخدودين بقايا ابنية يدعوها اهالي انفه بحسب التقليد بالقلعه هذه الابنية ضخمة متصلة بالاخدودين ذات حجارة كبيرة مسندة الى الصخر وهي آثار جدران تشبه جوانب قلعة جبيل بحيث لا يشك الناظر ان ثمت كان حصن منيع ٠ لما يرى من نتوء الحجارة والتحامها بعضاً ببعض

وترى بين الخندقين المذكورين والقرية الحمامات والمدافن والاحواض ولكلها اطناف وافاريز جميلة حسنة النحت وهي آثار منحوتة محكمة العمل مما يندر مثله في لبنان ٠

وللصخر طبقات منظمة ينزل منها الى البحر بمعابرها على جوانبها شبه الدرابزين ٠ وفي مداخلها ثقوب لمزالج الابواب ورزاتها وفي جانبي الحائط اغوار منحوتة في الصخر عمودياً ومنها ما هو متقن الهندام يصلح للسكن واما مدافنها فعليها مسحة من القدم والروعة

واشار المؤرخ بروكرد الى قلعة انفه قال : « ان للفرنج في انفه قلعة كان معظم جوانبها داخلاً في البحر ولها اثنا عشر برجاً وهي شديدة الحرازة »

وقد امر السلطان قلاوون بهدم هذه القلعة

والمرجح ان الاخدودين الفاصلي الراس عن الساحل هما من اعمال الفينيقيين الذين اتخذوا في ساحلهم كل الرؤوس البارزة فجعلوها محاصن يرقبون منها البحار ويدافعون بها عن سفنهم الراسية بقربها كما عملوا في عكار وصيدا وبيروت وجبيل فتكون هذه المتاريس والخنادق مما حصنوا بها قلعتهم في انفه واتخذوا من حفر الاخاديد مواد بنائهم فكانت بمثابة مقالع لحجارة القلعة ويستدل ان

الرومان رمموا بعض ابنيتها...

انفه اليوم — هي قرية من الكورة السفلى من شمالي لبنان عدد سكانها نحو ٢٢٠٠ ومما يجعلها من اجمل قرى الساحل نبع الغير المنبجس فيها والذي كانت مياهه تجر الى القلعة بقني خزافية آثارها موجودة للآن . والنبع المذكور يتفجر من مغارة قريبة منها وهو يسقي بساتينها الغبياء وخمائلها الغناء .

وهي بلد زراعية اهم محصولاتها الزيتون ويبلغ محصولها منه نحو ثلاثة آلاف قلة (كل قلة ثلاث عشر رطلاً) ودخلها من الحبوب نحو خمسماية شنبل من قمح وقطاني وفيها عدة نواعير .

وبعض اهالي انفه يصطادون السمك المشهور فيها والذي لا يخلو منها . وهي واقعة على مسافة ثمان كيلومترات من طرابلس تخرقها طريق السيارات بين بيروت وطرابلس وهي على شكل مستظرف وسعة كافية انشئت على عهد الانتداب الفرنسي .

كانت انفه على عهد رستم باشا ثالث متصرفي لبنان مركز القضاء ثم على عهد مظفر باشا سادس متصرفي لبنان كانت مركز القضاء شتاء .

وفي انفه سراية بناها اهلها من مالهم وهي لم تزل صالحة . وفيها مدرسة وطنية تدعى مدرسة المساواة للذكور والاناث منشئها الرجل الغيور جبران افندي مكاري سنة ١٩٠٧ على نفقته الخصوصية وهي تضاهي اكبر المدارس في لبنان

قلمون — تعني المشكل الالوان اي الثوب المخطط الملون . ولربما اطلق عليها هذا الاسم لاشتمال خمائلها على انواع الفاكهة .

اهاليها اسياد كرام وفيها بيت عريق اشهره المرحوم الشيخ علي رضى الذي

حاز منزلة كبرى بين ذويه ومجاوريه واشهر انجاله الكرام السيد الشيخ رشيد رضى صاحب ومنشىء جريدة المنار الغراء

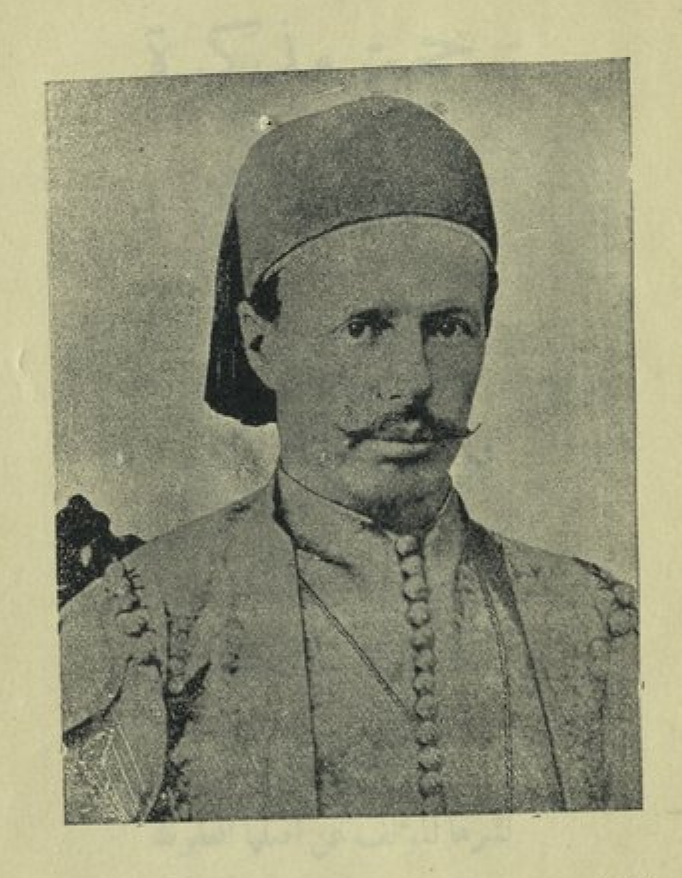
دعاها القدماء قلموس ذكرها المؤرخان يولبيوس وبلينيوس وغيرهما وكانت في القرون الوسطى قلعة ورد ذكرها في الادريسي وفي رحلة الكاتب الفارسي نصري خسرو وغيرهما

وفي قلمون وضواحيها عدة آثار قديمة كمقالع ورحي ومعاصر وبقايا اعمدة مما يدل على قدمها ولكن لا كتابة او رمز فيها ينبأن عمن خلفوا تلك الآثار وهي واقعة في وسط حديقة كثيرة الزرع غزيرة المياه واسم قلمون يطلق على محال كثيرة ٠

دير بلمند — لفظة فرنسية اصلها بلمنت اي الراية الجميلة ٠ اسمه يدل على انه من بناء الصليبين اختلف المؤرخون على زمن انشائه ومنشئه ومؤسسه

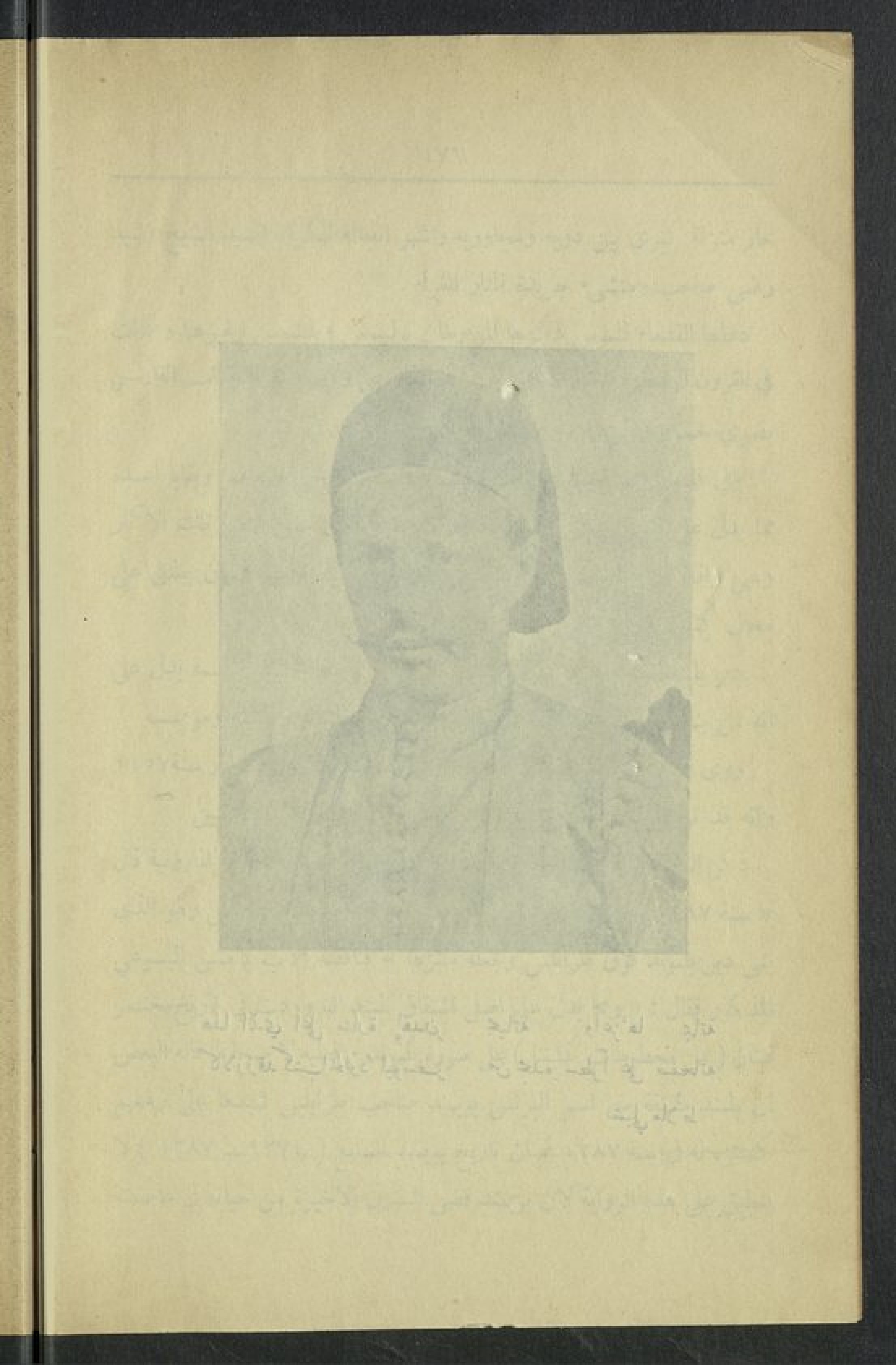
روى الاب لامنس اليسوعي انه كان انشاء دير البلمند في ٣٠ ايار سنة ١١٥٧ وانه قد تولى بناءه رهبان القديس برنردس المعروفون بالسسترسيين

ذكر العلامة الدويهي الاهدني (ص ١١٩) من تاريخه الطائفة المارونية قال « سنة ١٢٨٧ م (٦٨٦ ﻫ) توفي بيومند البرنس صاحب طرابلس وهو الذي بنى دير بلموند فوق طرابلس وجعله منتزها » فناقضه الاب لامنس اليسوعي المذكور فقال : « ومما يدل على اصل اشتقاق بلمند انها وردت في تاريخ مختصر لبنان (من مخطوطات كليتنا) على صورة بلموند ٠ فعليه لا صحة لما قاله البعض ان بلمند مشتقة من اسم البرنس بويمند صاحب طرابلس شيدها على زعمهم كمنتزه له في سنة ١٢٨٧ ثم ان تاريخ بويمند السابع (١٢٧٤ — ١٢٨٧) لا ينطبق على هذه الرواية لان بويمند قضى السنين الاخيرة من حياته في عاصمته



هذا الذي اعلى منارة إهدنٍ بحياته وأعزّها بمماته
كالارز قد كتب الخلودُ ليوسفٍ من مجدهِ سطراً على صفحاتهِ

شبلي ملاّط



ترجمة مذكرة

طبعت في رومية سنة ١٨٧٦

رفعها

يوسف بك كرم

الى الكنيسة المقدسة وفرنسا

نشرها المؤلف عن اصلها المحفوظ

المطبعة الادبية — بيروت سنة ١٩٣٢

المقدمة

بما ان القضايا التي اعالجها هنا هي كنائسية ومدنية فاني أخضعها لحكم الكرسي الرسولي وفرنسا معاً

سأوضح هنا مبادئ الحوادث التي تتابعت في سوريا ولبنان قديماً وحديثاً وما عدى ذلك ارى واجباً مقدساً ان اعدل عن السكون الذي حفظته حتى الآن مخيماً على كثير من اعمال المنسنيور مسعد بطريرك الموارنة الحالي فاني كنتُ احفظ هذا السكون على امل بان غبطته ينتهي يوماً ما الى تصايح معدلاته بخصوص لبنان الامر الذي لو تمّ لكان وفّر عليّ الاسف الذي عانيتهُ في مأخذي الحاضر وأسفاه . ان تصرفات المنسنيور مسعد تزداد جسامة اكثر فاكثر . وبحسب ملحوظي الضعيف سيتقرّر الآن امر فقدان ابناء مذهبي اللبنانيين او سلامتهم . هذا هو الامر الذي يبعث بي ان انهج الى توطيد حقيقة الاحوال بأيّ ثمن كان . واذا ابحثُ لنفسي ان اوضح اسباب المصائب الماضية فليس ذلك إلاّ تطرّفاً الى ان اظهر اخطار المستقبل ولي حسن الاعتقاد بأن الكنيسة المقدسة وفرنسا لا يرغبان في ان يكفا عن تفضيلهما الخير العام بقدر ما يُطلَب منهما .

حوادث ماضية

اولاً — ان الاختلاف الذي وقع في اجيال سابقة بين الكنيسة المقدسة الرومانية والامبراطور بين القسطنطينيين الروميين القدماء قد انقسم به نصارى الشرق الى قسمين . قسم استمر اميناً نحو سدة البابا وقد دعاهُ خصومهُ مردّدة اي عصاة .

ثم ان ابراهيم باشا قائد عساكر مصر الذي غزى سوريا والامير بشير الشهابي المستقر وقتئذ على امارة لبنان طمعا بطاعة الموارنة واخذا يجردانهم من سلاحهم ودفعاهم الى الفاقة والحالة الزرية . فهؤلاء لما رأوا ما آل اليه حالهم نهضوا جموعاً متعاضدة ضد قوة مصر والامير الشهابي والدروز المجتمعين ضدهم وان كانوا لاسلاح لهم الا ادوات عملهم في الارض . وكان السلطان العثماني عبد المجيد ساهراً على مصلحة دولته فاغتنم فرصة هذه الخصومة بين الفريقين وامدّ الموارنة باسلحة واعتدة حربية جاء بها من انكلترا والنمسا فنجح الموارنة في التغلب على خصومهم الذين اخلوا سورية بعد ان اخرجوا من لبنان

فلننظر الان كيف اراد الباب العالي ان يكافئ الموارنة لقاء خدمتهم الثمينة فانه اوجب حينئذ على الموارنة ان يرفضوا الحماية القديمة التي كانت فرنسا تعمهم بها تلك الحماية التي نشأت وتوطدت منذ عهد الملكين الافرنسيين لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر وان يقبلوا بدلاً منها مساعدة الباب العالي

فهذا الايعاز رفضه الموارنة رفضاً باتاً وبناء على ذلك قسمت امارة لبنان بين قائمي مقام احدهما ماروني يتولى الحكومة في الارجاء الشمالية من لبنان والثاني درزي يتولى الحكومة في الارجاء الجنوبية منهُ

وليس من احد يجهل ان هذا التقسيم السياسي يخول الدروز سلطة كبيرة حتى باتت تركيا تستطيع ان تستخدمهم كوسائل لقذف المصائب على المسيحيين حتى انتهى الامر اخيراً بان بعثت الفوضى التي نشأت عنها مذابح سنة ١٨٦٠

ثانياً — ان الذي يوجب عليَّ ان اضع في النور غلطات المنسنيور مسعد الرئيسية هو ان الانسان عليه بحسب الاقتضاء ان يختار — حسب ظني — الجلاء عن الحقيقة فلا تقع المذمة على الموارنة بسبب غلطة بطريركهم ولا تستمر الكنيسة

وفرنسا جاهلتين سبب مصاب الموارنة – فيلوح لي ان الاحسن ان ينزع العالم الراقي عن منكب الملة المارونية هذه الغلطة ولا يعزو اليها ان نخوة ابائها خلت من نفوسها ويقع عليها ان تحمل على الدوام سلطة ظالمة حسبما فعل منذ سنة ١٨٦٠ حتى الان

فمن ثم لولا هذه القضية الدقيقة لمنعتُ نفسي عن ان اظهر للكنيسة المقدسة ولفرنسا غلطات المنسنيور مسعد فاني اولاً لجأت الى الوسائل العديدة مدى سبع عشر سنة لاقنع غبطة البطريرك بوجوب تلطيف تأهباته نحوها فلم افز بنتيجة ومن جهة ثانية وجدت الكنيسة المقدسة وفرنسا تخالان المنسنيور مسعد مهتماً بالخير العام فتستشيرانه على استمرار بالشؤون المتعلقة بالطائفه المارونية فالمصائب لا تزال تتعاظم فاذن امرٌ واقعي ان موقفي قضى عليَّ ان اقدم على ما اقدمت عليه وكل من في نفسهِ ذرة من العدل ومحبة الوطن لا ينكر عليَّ ما رأيتُ وجوب الاتجاه اليه وفوق كل ذلك ان الكنيسة المقدسة مؤسسة على الحق ولا موضوع اخر سواه لحياتها فهذا هو السبب الذي يفوق كل سبب اخر في حملي على توطيد حقيقة وقائع الاحوال بكل بساطة مسيحية

ثالثاً – اعمال المنسنيور مسعد الاولية

اشرع الان فأعلن عن افعال المنسنيور مسعد التي افسحت لخورشيد باشا ان يبرز الى حيز الواقع مذابح سنة ٦٠ وسببت فقدان البقية الباقية من استقلال الموارنة

ان المنسنيور مسعد كان يريد (كما يقال) ان يحكم مدنياً فلذلك عمد الى تلك الغاية بذرائع خفية فباقواله تارة وبسكوته تارة قد بعث في سكان كسروان ان ينهضوا ضد حكامهم من عائلة الخازن فهذه العائلة متصفة بالميل الى المسالمة وسبق لها ان ادت خدمات كثيرة للكنيسة المارونية . فكان وجهاء الاهالي الذين يتداولون مراراً مع البطريرك يثيرون هياج الرعاع لكي يضبطوا ما هو ملك للشيوخ

الخازنيين ويطردوهم من مساكنهم واحداً اثر واحد . وبمقتضى عادة البطاركة السابقين كان البطريرك يجري العقوبة الكنائسية من الدرجة الثانية على ابناء ملته الذين يصدر منهم ذلك الاعتداء فالبطريرك الحالي نكل عن الجري على سنة اسلافه لا بل ظهر تجاه المبنانيين جميعاً انهُ راضٍ كل الرضى عما اجراه اولئك المعتدون فنمت بذلك روح النزاع بين الشيوخ والاهالي في ارجاء لبنان كلها .

وقد كان عن هذه السياسة الخرقاء ان خورشيد باشا وجد مجالاً رحباً لبذر الاحن والخصومات فاخذ من جهة يتملق البطريرك ومن جهة يضم الاسلام والمتاولة والدروز حلفاً واحداً بتوقيعهم على معاهدة للقيام يداً واحدة ضد النصارى . فخشية من ان تتفاقم عن هذه التدابير الخطوب ويحدث عنها الفواجع لجأ اليَّ الكهنة والشيوخ والوجهاء في مقاطعات لبنان الشمالية الخمس لكي ارجو باسمي واسمهم من البطريرك ان يستعمل سلطانه الروحي ويصدر حكماً بموجب شرائع الكنيسة يحسم الخلاف الحادث بين الشيوخ والاهالي في كسروان وهذا الحكم يبيحه استقلال لبنان الذي كان يوجب دفع مبلغ مالي موظف للباب العالي ولا يسمح للموظفين من قبله ان يتداخلوا باعمالنا الداخلية . فبوصولي الى دار البطريركية وجدت فيها شيوخاً ووجوهاً من ابناء كسروان وهم يستمدون من غبطته ان يلي فصل الخلاف الناشب بينهم . فاغتنمتُ حينئذ هذه السانحة واعلنتُ للبطريرك الغاية التي اوجبت عليَّ الحضور لديهِ ثم اخذت اوضح للحزبين المتنازعين هول الاخطار التي تُهدد نصارى سورية عموماً واوضحت لهما ان موازنة الشمال وضعوا في انفسهم ضرورة دعوة الجميع الى العمل بشرائع الكنيسة وصيانة حقوق العباد صيانة لراحة البلاد كي لا يتسنى لاحد ان يكدر معينها ثم سقتُ الى غبطة البطريرك رجاء ليتكلم بخصوص خلاف الفريقين لرفع ما بينهما من التنابذ فيلتئم الشمل وتتحد كلمة الجميع وباتحادنا نستطيع ان نقاوم

الاخطار المتجسمة في الخارج

فلسوء الجدّ اعلن المنسنيور مسعد انه لا يستطيع ان يتكلم شيئاً بهذا الخصوص. فهذا الجواب لم يبق معهُ محلٌ للشك بان البطريرك يرغب في سقوط الشيوخ بايّ حال كان . وبما انني نظرت حينئذٍ جسامة اخطار الوقت عولت على الحضور الى بيروت لكي ارجو من مسيو بنتيفولوا الذي كان يومئذٍ قنصل فرنسا الجنرال في سورية ان يفاوض البطريرك بذلك الشأن لكي ينشيء صلحاً كهذا ضرورياً ان ينشأ بين الموارنة

فيا للأسف فان القنصل الفرنسوي الذي كان يعرف المقصد الذي يرمي اليه البطريرك خال ان مداخلته بهذا الشأن لا تجدي نفعاً وهو ايضاً كان قد غُشَّ من قبل خورشيد باشا بما يخصُّ الموارنة عامة . ثم بعد ذلك بزمن قليل علمت ان الباشا والامير بشير احمد الدرزي الذي تنصر وقائم مقام للموارنة كانا قد تفاهما ووضعا خطتهما . فهما قد اكدا للشيوخ انه ينبغي لهم ان البطريرك اذا ارادوا البقاء في مناصبهم وفي الوقت نفسه حرَّضا الاهالي على الشيوخ ان ينجز امور الشيوخ ليتمكنوا من امتلاك حريتهم وقد اكد لي بعض من اثق بهم ان ميعاد حدوث الانتقاض من فريق على آخر كان متوقعاً بين ساعة وساعة تليها

فخشية من ان ينفجر هذا الخطر الجسيم تركت بيروت ليلاً لاصل الى كسروان باسرع وقت لاحول دون وقوع الشر على ما يتهيأ لي من الامكان فلدى وصولي الى القرب من المقرّ البطريركي سمعت طلقات البنادق . ولم يكن برفقتي وقتئذ الا اربعون مسلحاً لا غير ومع ذلك بادرت الى الكرسي على جناح العجل فوجدت اربعة شيوخ من الاسرة الخازنية يقودون رجالاً مسلحين وقد تمكنوا من الدخول الى المقر البطريركي وقد ذهب البعضِ الى انهم كانوا يودون ان يقتلوا البطريرك ولكني

ارى ان قرائن الاحوال تنبيء بأنهم كانوا يرغبون ان يخيفوه ليس الا وذلك لكي يكف عن تشجيع الناهضين عليهم . لانهم لو كانوا مصممين على ارتكاب تلك الجريمة لما تعذر عليهم اجراؤها بعد ما دخلوا الى المقر البطريركي ثم انهُ كان جمع آخر متقلد سلاحهُ ويودُّ ان يشتبك بالقتال مع الشيوخ فلدى حضوري هذه الرواية المحزنة اضطررت ان امنع خطر الاشتباك وبعد ما ابعدت كل فريق عن الآخر ذهبت بالشيوخ الى خارج كسروان وعدت في ذلك النهار عينهِ الى مقر غبطته فوجدته منحرف المزاج ولم اتأخر عن ان اوضح له ان الباشا انشأ في بيروت حلفاً ضد المسيحيين مستخدماً كل ذريعة يستطيع الحصول عليها لكي يبيد مسيحيي سورية وابنت له كثيراً من مكايد هذا الباشا التي كنت قد وقفت عليها واخيراً اظهرت للبطريرك ان واجبه كالرئيس الاعلى ان يستخدم كل واسطة يستطيع ان يستخدمها لكي يضم كلمة الموارنة و يوحد صفوفها

فالمنسنيور مسعد بارك وقتئذ العناية الالهية التي ارسلتني لملافاة الكارثة في وقت هبوبها ثم منحني الوعود المرضية فأملت حينئذ ان من المستطاع توطيد الصلح في لبنان الجنوبي وعدت الى شماله معتنياً بتوطيد روابط الاتحاد بين ابنائهِ

اما المنسنيور مسعد فنسي سريعاً وعوده وطرأ على العائلة الخازنية المسالمة ان ابناءها حتى الذين في سن الشيخوخة طُردوا من كسروان ونهب الاهالي ما في بيوتهم وضبطت تلك البيوت بحجة ان اربعة منهم هددوا بجسارة حياة البطريرك . ثم قُتل من العائلة الخازنية في قرية عجلتون رجل وابنته واسم الرجل دياب

فالان أعيد القول ان المنسنيور مسعد كان من عادته ان يشجب كل تعدٍّ . فخروجاً عن عادته وعن اتمام واجبات الراعي الصالح ابى ان يتمم واجب سلطانه الروحي بان يمنع او يشجب التعديات التي كان اهالي كسروان يجرونها حينئذ تحت

اسمه الخاص بقيامهم ضد حكامهم الشرعيين فلي الثقة بان الكرسي المقدس وفرنسا يرتضيان ان يقدرا مسوءوليته عما في هذا المنازعات من تفكيك الوحدة المسيحية وما نجم عنها من وخيم النتائج

فبيت الخازن لما رأوا انهم باتوا ضحايا لسياسة البطريرك الخرقاء اجتمعوا في بيروت وقذفوا بانفسهم في طاعة خورشيد باشا والامير بشير وغنم هذان الزعيمان هذه النهزة لكي يوطدا موقفيهما وسعيا السعي المتواصل حتى تمكنا من استمالة عمال (مقاطعجية) الموارنة جميعاً اليهما فجمعا هوءلاء بعمال (مقاطعجية) الدروز في خان المديرج لان دسائس البطريرك كانت تهدد بالاذى العمال «المقاطعجية» قاطبة من نصارى ودروز

وفي ذلك الاجتماع صار اقناع كل من الفريقين ان يمضي على نفسه سنداً يتعهد به ان يمنع بموجب قسم ان يأذن لابناء مذهبه بالخروج الى خارج اراضي مقرهم الخصوصي ليحاموا عن ابناء مذهبهم اذا وثبت عليهم جماعة من الفرقة الثانية وانهم يتركون لخورشيد باشا ان يجري العدالة الامر الذي ينجم عنه ان يتسنى لهذا الباشا ان يذبح النصارى فريقاً عقيب فريق

وهذا السند عُرض علي بواسطة معتمد اوفده الباشا ومعهُ امراً من الباشا بان امضيهُ بلا ابطاء والا وقعت عليَّ تبعة كل حركة تحدث في البلاد اللبنانية. فتصفحت المعروض ورفضت ان اضع امضائي مظهراً له انني مصمم على ان احامي عن ابناء مذهبي في كل مكان يحدث فيه وثوب عليهم . ووضعت التبعة على عاتق الذين لا يريدون ان تكون الشريعة ذات السيادة على الجميع

ولم اكتف بان عالنت الباشا بما عالنتهُ فارسلت صور تلك التعهدات الى المسيو بتيفوليو مصرحاً له بان زمان المذابح قد دنا ورجوت منه ان يسهر على الامن العام

لان الساعة الرهيبة قد دنت

فحينما ايقن الباشا بان وعوده الاولى وتهديداته الاخيرة عجزتا عن ان تنسياني واجباتي التي كرست لها حياتي وعد حينئذ الدروز ان يقع الهجوم عليَّ في الجهة الشمالية من لبنان لكي اجد امامي حوائل تصدني عن مساعدة ابناء مذهبي في الجهة القبلية . وفي حقيقة الواقع قد اتم ما وعد بهِ فان « مقاطعجية » مقاطعات طرابلس الاسلام برزوا الى عالم العدوان مهددين المسيحيين الذين في شمال لبنان وقد تألب تحت قيادتهم جماعات مسلحة ووراءهم فرقة من العساكر الاتراك

ونشبت الرزايا في الجهة القبلية بسرعة مدهشة يكاد العقل لا يسلم بوقوعها وبينما كان « مقاطعجية » النصارى في المقاطعات المختلفة تحت تهديد تصرفات البطريرك حسبما سبق لي ايضاح ذلك وقد اخذوا بدهاء خورشيد باشا وغشهِ وكان هو قد تم له ان يهيء الدروز الذين يمالئهم عسكره ليستطيعوا ان يصلوا الى كسروان ويضعوا حلاً نهائياً لهذه المقاطعة . وكان اولئك المقاطعجية المسيحيون قد عملوا بفحوى تعهدهم ومنعوا تارة بالحيلة وتارة بالقوة ابناء مذهبهم ان يتألبوا ويحاموا عن نفوسهم . فكان المسيحيون ممزقين تمزيقاً موهياً عزائمهم اما الدروز فكانوا متحدين ومعضودين بعساكر الباشا الذي كان نظره في كل حين متجهاً اليهم ولم يكن لهم عمل الا ان يضعوا السيف سفكاً للدم والنار احراقاً للقرى واحدة اثر واحدة بمقتضى مرورهم في طريقهم

فلما ثبت عندي ذلك كله وتأكدت ما سيكون لها من النتائج الوخيمة عهدت الى بعض الاصدقاء الذين اثق بهم المحاماة عن الشمال وانتدبت على نفقتي الخاصة اربع مئة مقاتل ومشيت بهم ليلاً ونهاراً حتى انتهيت الى بكفيا . وكان الدروز قد عسكروا بالقرب من ابوابها وحينئذ خمدت رزايا مقاطعة المتن . ودري بوصولي

رئيس الدروز المسمى حسين تلحوق فهرع ليلاً الى مقر خورشيد باشا المقيم مع عساكره في الحازمية وانباه عن وصولي الى بكفيا وان الموارنة اخذوا يتألبون جماعات حولي وان الدروز ان انفردوا بالقتال فلا طاقة لهم به . فاجابه الباشا موكداً له انه متى تقدم كرم الى جهة الدروز فسيجد امامه عساكر الدولة ومدافعها . وفي صباح اليوم التالي لوصولي ورد اليَّ امر من الباشا وآخر من الامير بشير ورسالة من المسيو بنتيفوليو وكلها تتضمن مفاداً واحداً هو انه يجب ان اعود الى مقري في شمال لبنان زاعمين انه ليست لي صلة بحوادث الجهة القبلية . اما انا فكتبت الى الباشا ان الحوادث المذكورة لي بها صلة وثيقة ولذلك لا ارضى ان اعود الى الشمال فالباشا لدى وصول جوابي اليه دعا قناصل الدول الفخيمة واطلعهم على رسالتي قائلاً قد ثبت عنده ان الدروز يرغبون في ان يثبتوا في موقفهم ضد زحلة بلد المسيحيين اللبنانيين المفصولة عن ارجاء لبنان بسلسلة جبال تحميها وهو مستعد ان يرسل عساكر تصون حوزة هذه المدينة ولكنه يشترط لهذه المعونة التي يريد بذلها ان يؤكد له القناصل اني لا ابرح من بكفيا لكي لا اثب على الدروز فاقتنع القناصل بوعده ووافقوه على وجوب بقائي في بكفيا وورد علي على عجل كتاب من المسيو بنتفوليو يوضح لي هذا الاتفاق ويقول ان نية الباشا قد انتقلت من سواد الى بياض وانه ارسل عساكر عهد اليها المحاماة عن زحلة وباقي اماكن استقرار النصارى في المقاطعات القبلية المختلطة وانه ان طمحت نفسي الى الخروج من بكفيا الى زحلة او الى مكان آخر حيث دروز فاني سأجد ضدي قوى حكومات اوربا كلها علاوة على قوة الباب العالي

وهنا وقفت موقفاً حرجاً فانَّ افتتاح خصومة مع الحكومة ليس من اعمال التعقل وان ظللت في سكينة على حين تستطيع عساكر خورشيد باشا ان تفتح للدروز ابواب زحلة بدلاً من ان تحامي عنها امر لا تألفه الاحساسات البشرية ونظراً

لوقوفي بين هاتين الصعوبتين الجسيمتين ارسلت جواباً الى المسيو بنتيفوليو مضمونه اذا كفّ الدروز عن الاعتداء على النصارى ابقى في بكفيا . وفي الحال انتقلت الى دير مار الياس شويا وبمعيتي ثماني مئة مقاتل ووجهت الى زحلة الامير داود مراد مصحوباً بمئتي مقاتل وارسلت معه فارسين اوعزت اليهما ان يطلقا عنان فرسيهما ايابا اليَّ ان ظهر في جوار زحله من الدروز ما يريب فبعد دقائق من وصول هذين الفارسين الى زحلة سُدَّت الطرق . واما اهالي زحلة والامير داود ومن معه فانهم حينما رأوا الدروز قادمين ضدهم من الجهة الواحدة والعساكر تقصدهم من الجهة الثانية رأوا السلامة في التواري فأخذوا عيالهم وتوجهوا بها نحو بعلبك لكي يضعوها في مقرّ آمن ويعودوا الى لبنان بعدئذ . وبعد نصف ليل ذلك اليوم بثلاث ساعات مرَّ بي عابر طريق فروى ان الحرب اتقدت نارها في زحلة . فسرت برجالي اليها وبعد ثلاث ساعات بلغت اليها فلم اجد احداً من الدروز بل شاهدت ان افراد العساكر كانوا يضعون النار في ما تبقى من البيوت . فلما شاهد رفاقي اولئك الجنود يضعون النار احتدمت حميتهم وعولوا على الهجوم عليهم والاشتباك بهم فمنعتهم عن ذلك العمل لئلا يتخذه الباشا حجةً ضد نصارى بقية المقاطعات المختلطة—اي التي سكانها خليط من مسيحيين وغير مسيحيين — التي كانت فرق العساكر قد انيط بها حماية المسيحيين

لكنني بعد زمن علمت ما لم اكن اعلمهُ قبلاً وهو ان العساكر التي وُضع في عهدتها النصارى هي التي تآمرت مع الدروز على الفتك بالنصارى فجرَّدت نصارى دير القمر وحاصبيا وراشيا من اسلحتهم وسلموهم واحداً فواحداً للدروز الذين بطشوا بهم بطشاً ذريعاً يفوق حد التصوُّر . فان اعيان الدروز انفسهم ساءهم ان تقع تلك المذابح فامرٌ واضح من هذا البيان ان الدروز لم يكونوا اوائل لا شأن لها في ان تحقق خورشيد باشا وعساكره ما في نفوسهم من الروح البربرية . اما مقاطعجية

الموارنة فانهم كانوا يرغبون في ان يخرجوا من دائرة تعسفات المنسنيور مسعد ولو أدّوا لقاء ذلك ثمناً فاحشاً وانه ان كنا على ما بيننا من الانقسامات لم نستطع ان ننقذ اخواننا سكان الجهة الجنوبية القصوى ولا سكان الشام فما ذلك عن وناء منا بل لان ممثلي دول اوربا الذين افلح دهاء الباشا في غشهم قد ربطوا ايدينا فلم يصدر منا ما يجب ان نعمله وبعد وصول عساكر فرنسا الى سورية ومدّ ظلال الامن العام لم تستطع فرنسا ان تقتنع بان تلاهي المنسنيور مسعد عن واجبه ووقوف مقاطعجية الموارنة ازاءه موقف الخصم وحيلولة ممثلي دول اوربا بيننا وبين العمل لانقاذ اخوتنا هي اسباب تلك المصائب التي طغا سيلها الجارف فاوقع على النفوس التلف وعلى المباني الهرم والحرق وحكمت ان ملة الموارنة قد خلت نفوسها من الهمم الناهضة واتفاق الكلمة على وجه المحبة الصادقة شأن ابائهم فلذلك لم يعد في استطاعتهم ان يحفظوا استقلالهم كما كان شأنهم اولاً فهذا هو السبب الذي لاجله فضلت لنا ترتيبات لبنان الحالية —

رابعاً — في نقائص الترتيبات سنة ٦٠ ان فرنسا اعتبرت هذه الترتيبات من عهد لوائح ظهورها على حين هذه الترتيبات لها سبق عهد وهو ينبوع اضطراب الامن وعنه نجد العدالة غير موفية القسط الواجب لها . فالترتيبات التي انتسقت خولت لبنان ان يحرز حاكماً كاثوليكياً غير وطني يجري في سياسة الجبل على ترتيب قانوني ويسمى متصرفاً ومفاد هذا اللقب باللغتين العربية والتركية ذو السلطة المطلقة فهو يخرق القوانين حينما يريد وهو بمقتضى كونه نائباً يجب ألاّ يكون مطلقاً وهذه الترتيبات تمنح كل طائفة مسيحية مديراً اي حاكماً خصوصياً يتعين من قبل المتصرف . وبما ان الموارنة لهم العدد الكثير فلهم ان يحرزوا مديرين متعددين اما الدروز فليس لهم الا مدير واحد فهذه السياسة الخرقاء تقسم النصارى الى احزاب متعددة لكي لا يتحدوا

والقوة ثمرة الاتحاد اما سياسة الدروز الخصوصية فتمنحهم الاتحاد فالقوة التي تستخدمها السياسة كيلها ضد النصارى

وفي تلك الترتيبات ظلامة تستحق ان يُنوَّه بها هي ان المقاطعات التي سكانها خليط من مسيحيين ودروز وصبغت دماء النصارى المظلومين تربتها وُضع من سلم من نصاراها من الهلاك تحت سيطرة المدير الدرزي

وتلك الترتيبات قرَّرت ان يُنشأ في لبنان ثلاثة مجالس مختلطة تحت رئاسة الباشا الحاكم الذي هو ذو سلطة مطلقة فيتصرف بهذه المجالس كما يشاء — وعلاوة على ذلك قد حُجب عن هذه المجالس الثلاثة ان تتولى القضاء في القضايا التجارية التي هي الدعاوى المعروف عنها انها اكثر من سواها وقوعاً في لبنان فهي من اختصاص قاضي بيروت حيث يقع هنالك الف باب للتعنيف وهضم الحق

وعدا ذلك تخول الباشا تجنيد الفاً وخمس مئة من رجال الضبط . وبما ان ميرة (واردات) لبنان لا تفي بنفقات حكومة لبنان تعهد الباب العالي ان يؤدي لخزينة لبنان نصف مليون فرنك مساناةً وهذا الاضطرار المالي من شأنه ان يجعل المتصرف مقيداً بالامتثال للباب العالي ولا مندوحة له من ان يجري على مقتضى الاوامر الغير القانونية التي يوعز اليه الباب العالي ان يتبعها

هذه هي نقائص الترتيبات الرئيسية التي وُضعت ليتمشى لبنان عليها وبما ان فرنسا اظهرت رضى عنها فالموارنة اعلنوا خضوعهم لها

اما المنسنيور مسعد الذي ربما لم يحسب مقدار الحقوق المفقودة التي تسبب فقدها عن افعاله بالموارنة بموافقته المتصرف على اساليب خرق تلك الترتيبات وايقاع الرزايا المتعددة على الموارنة فان الوقائع الآتية تثبت عليه ذلك

خامساً — بيان افعال المنسنيور مسعد في مساعدة داود باشا في تصرفاته الخالية

من العدالة

ان داود باشا اول متصرف للبنان شكا مني بغير حق شكوى باطلة فتذرع بها فؤاد باشا المعتمد العثماني المعطى سلطة غير عادية الى ان يخرجني من وطني و يبعدني الى اسلامبول دون ان يجري محاكمتي لاثبات الشكوى او نفيها وحينئذٍ طمأنني المسيو ده مار سفير فرنسا السابق في تلك المدينة المتملكة انه حال انتهاء مدة داودباشا يستدعى من لبنان و بناء على هذا الوعد تعهدت ان استقر في الديار المصرية الى نهاية تلك المدة التي تعينت ثلاث سنوات . فلما كادت تلك المدة تنصرم ورد الي كتاب من المنسنيور الدبس الذي كان وقتئذ كاتم اسرار البطريرك وهو الآن مطران بيروت ومع الكتاب حوالة (بوليصة) . وفي هذا الكتاب يصرح لي صاحبه انه اذا كنت ارغب في ان احصل على مساعدة البطريرك الادبية على ان اتعهد بخطاباتي ان اتبع مشوراته في المستقبل . فأجبت كاتم الاسرار معلناً اسفي لاني ارى البطريرك مشككاً باخلاصي واضفت على ذلك ان مشورات غبطته لا تستطيع ان تكون حائدة عن شرائع الكنيسه التي اعترف بخضوعي لها خضوعاً كاملاً . وانه ما من سبب موجب للبطريرك ان يطلب مني تعهداً نظير هذا . فكاتم الاسرار نفسه كتب اليَّ للمرة الثانية واضعاً اياي بين امرين — اما ان ابرز التعهد المطلوب مني ابرازه او ان ارفع من نفسي الاعتماد على مساعدة المنسنيور مسعد في شيء . فأجبته حينئذ باني بت لا اعتمد البتة على المساعدة المذكورة واقول قولاً باتاً اني لا ابرز تعهداً على نفسي كهذا . فايقن البطريرك حينئذ انني بعيد كل البعد عن معد لاته المعروفة كثيراً . وظن (كما يلوح لي) انه اذا كان المتصرف في لبنان غريباً يضطر على كل حال رضى او كرهاً ان يرضيه و يلبي مطاليبه فلذلك وجه عنايته ان يغتنم نعمة داود باشا وان يمتحن جلب خضوعي الى اثرة المتصرف وكان ذلك غصبا عن

المصارحات التي تبادلتها معه بواسطة كاتم اسراره فغبطته اظهر نفسه تجاه المسيو اوتره الذي كان وقتئذ القنصل الجنرال لفرنسا في سوريه انه مهتم بصالحي . وبعد ما دعا ثباتي في واجباتي عناداً . شهد امامه انه متأسف لنظره اياي غير اهل للقبض على زمام حكومة لبنان واكد له اخيراً انه سيستجلبني الى ان اقتبل ما سبق لي ان رفضته مراراً اي وظيفة تحت امر داود باشا على ان يُمنح هذا المتصرف مدة ثانية اطول من مدته الاولى . فالمنسنيور مسعد كان حراً في ان يطلب منح داود باشا مدة جديدة ولكن تقديمه شكاية ضدي تحت خيال المحبة افسح للناس ان يتعجبوا من كيفية مساعيه . وكان اعجب من ذلك انه اعطى الحكومة الفرنسية التأكيدات التي لها مسيس بي على غير الوجه المطابق الذي انتهى الكلام عنه بيننا بواسطة كاتم اسراره حسبما اوضحت هذا الشأن آنفا . فهو على ما يتراءى لي قد غش فرنسا في قضيتي الخاصة . واقتبل ان يحمل مسئولية الرزايا التي نجمت عن ادعائهِ

فعلى هذا البناء سافر المسيو اوتره الى باريس والقسطنطينية وكانت النتيجة ان عُهد الى داود باشا بان يلي متصرفية لبنان تسع سنين . فمن جهتي وجدت وعد المسيو ده سار باطلا والنصيب المعدّ لي بحسب ما يريده البطريرك ان اقتبل اضطراراً وظيفة تحت سيطرة داود باشا الذي ضرب المثل باعراضه عن العدل . فاخترت ان التمس من حكومة فرنسا ان تمدني بمساعدتها فتطلب من الباب العالي ان يعطيني بدلا من عقاراتي في لبنان عقارات تعادلها في الثمن موقعها خارج لبنان لكي اتوطن في دار الاغتراب فحكومة فرنسا التي كانت تعطف عليَّ عطفا خاصا ابت قبول طلبي هذا لاعتقادها ان البطريرك كان حريصا على صيانة صالحيَ الخاص . واعلنت لي رغبتها في ان اعود الى لبنان وان اقتبل وظيفة في حكومتهِ . فخضوعي لسلطة الباشا الشرعية كان من الممكن لي ان اقبل به اما ان اتقلد تحت سيطرتهِ وظيفة

على حين ثبت لي انه لا يجري في عمله يقتضي انظمة عادلة او شريعة من الشرائع المعمول بها فلم يكن من المستطاع قبوله . لانه يوجب عليَّ العمل اما ان اعرض عن متابعة ولي امري او عن متابعة واجبات الذمة النقية فلهذا السبب اعدت التوسل مجدداً لدى حكومة فرنسا ان تعطف عليَّ وتقبل طلبي الاول . اما تأكيدات المنسنيور مسعد السابقة الى المسيو اوتره فتنسب اليَّ العناد وقد اغلق في وجهي ان يجاب طلبي فاعود الى لبنان مقري الاول الا اذا قبلت ان اتقلد وظيفة تحت امر داود باشا . فمع كل هذا رأيت ان اظهر للمسيو اوتره مزيد اجلالي لفرنسا فالتمست منه ان يمنحني وظيفة في دائرة قنصلياتها في لبنان و بما ان المسيو اوتره كان قد اعلن في باريس واسلامبول ان البطريرك قد تكفل له ان يستجلبني الى القبول بخدمة الباشا فلم يشأ ان يوافق على ان أُلي مكانةً غير المكانة التي يحسن لدى المنسنيو مسعد ان اقبل بها . فلم يكن في مستطاعي ان ارضى ان تبيدني الحاجة وانا في دار الغربة ولا ان اخدم المظالم في وطني . فلذلك رفعت الى نابوليون الثالث بيانا مختصراً بواقع الحال .

وقد عدت الى لبنان وعالنت كلاً من المسيو اوتره وداود باشا والبطريرك انني معتمد ان اثبت خضوعي للسلطة الشرعية المستولية على البلاد وان احامي عن نفسي ضد التعدي ان امتدت يده اليَّ . فتركت مدى سنتين مستكنا وهذه المدة قد اثبتُ فيها علاوة على خضوعي الامين للسلطة القانونية اعتمادي على العمل لراحة وطني ونجاح اوامر الباشا الحقيقية . فالمتصرف كان غير مسرور في الباطن من ثباتي على رفضي قبول وظيفة تحت سيطرته ولم يرد ان يحكم البلاد حكماً عادلاً فبدا له ان يجمع قوةً ويظهر بنفسه بغتة في كسروان وهنالك عمد الى عمل لا يجيزه العدل فرجوت منه حينئذ ان يعطف في عمله الى جانب العدل وينصف بعض الوجهاء (الذوات) الذين

وضعهم في السجن بدون ان يجري محاكمتهم على وجه ما . فجاءني منه جواب باللغة الافرنسية مضمونه انه اجاب طلبي وعهد اليَّ بكتابه المذكور ان اطمن افكار الاهالي الذين كانت جذوة الهياج قد تسربت الى نفوسهم . اما انا فلما كنت اكثر من الباشا اهتماماً في صيانة راحة وطني حضرت بذاتي الى نهر ابراهيم ومعي جمع من شيوخ و كهول ووجوه قاصدين ان نجتمع بالباشا المستقر وقتئذ في جونيه و بمعيته جند فنحقق له خضوعنا ونحقق مقدار انعطافه نحو الحقانية . فالباشا نسب عملي هذا الى انني في سري احاول ان اثب عليه . وبعث اليَّ ببيان رغبته في ان اقيم في المكان الذي بلغت اليه لكي تتقرر الصفة الرسمية التي يقتبلني بها . وفي عاجل الحال دعا العساكر الذين كان قد هيأهم في بيروت . وقد جعل فاتحة الخصومة بيننا ان تثب عليَّ فرقة خيالة بعد ما تثير جمعيتنا التي تحوي رجالاً متقلدي سلاح (وحملهم السلاح متابعة لعادة قديمة لرفاق المقاطعجية) فقد عادت تلك الفرقة على اعقابها مدحورة وتبعها متعقباً اثرها العدد القليل من رفاقنا . ثم ظهرت فصائل العسكر في اماكن عديدة في وقت واحد واما انا فقد عدت الى الجهة الشمالية . فكان من الباشا انه رفع عليَّ الشكوى لهذه الواقعة التي سبق له ان يدبرها . ثم وفد عليه من قبل الباب العالي جنود كثيرون جدد أرسلت اليهِ عن رغبة صادقة . وقد اعلن الباشا للبنانيين بنصحهم ان يظلوا مستكنين في ظلال الدعة فانه لا يريد بهم سوءاً فهو يرغب في ان يلقي يده عليَّ حياً او ميتاً ناسباً اليَّ بحسب دعواه العصيان . فلم يكن في طاقته ان يخفي حقيقة الواقع عن الموازنة . ولكنني لدى الروية في الواقع وجدت المتصرف طابق المنسنيور مسعد فغش فرنسا في انه نسب اليَّ ما ليس بواقع مني . ولما كنت على يقين من ان سكان لبنان ليس في طاقتهم ان يقوموا بمحاماة طويلة المدى ضد قوات السلطنة العثمانية رجوت من الاهالي ان يظلوا خاضعين لاوامر الباشا وضممت الى نفسي

٣٥٠ رجلاً ممن اثق بهم وذهبت الى قرية بنشعي في الشمال الاقصى قاصداً ان انتهز السانحة واعبر الى البرية لان الباشا كان قد اوصد الباب تجاهي . وكان امين باشا يقود وقتئذ خمسة آلاف مقاتل بين جند نظامي وفرقة الضابطة الخاصة بالمتصرف اللبناني وخيالة البولكار واخذ يتابع اثري ثم كتب اليَّ ان اوافيه الى كرسي مطرانية طرابلس الواقعة بجوار بنشعي. وهنالك طلب الباشا خضوعي للمتصرف فاجبته : ان خضوعي لسلطة المتصرف الشرعية امر ثابت على استمرار ودليل ذلك انني مستعدان احضر الى مقام المتصرف ان اراد ان يجري علي محاكمة قانونية تجاه مجلس اياً اراده واتعهد بالرضى بكل مضبطة قانونية تصدر منهُ بشأني . فالباشا العسكري تعجب لما رأى نفسه متتبعاً انساناً خاضعاً لسلطة وشرائع وطقس . وشكك في صدق لسان حالي . ثم طلب ان اتعهد له خطاً بتأكيد خضوعي المار ذكره. فدفعت اليه في الحال التعهد المخطوط الذي طلبه. وقدمت له سيفي ايضاً دليلاً على اجلالي قوة السلطة العسكرية فوعدني امين باشا حينئذ ان يمضي الى طرابلس وان يطالب لي بالبرق من داود باشا ان يجري معاملتي بمقتضى القانون. وفي الحقيقة ذهب الى طرابلس انما في فجر النهار التالي لاجتماعنا وثبت عليَّ ضابطة الباشا المؤلفة من دروز ونصارى وبعد قليل من الزمن وصل ايضاً امين باشا ومعه باقي الجند من العسكر النظامي والبولكار واستمرت المكافحة ذلك النهار كله فلما غربت الشمس كان خارج ميدان الكفاح من بقوا من عساكر الباشا في قيد الحياة وقد رأوا الغنيمة في ان ينحدروا ليلاً الى طرابلس. فحينئذ حضر من الاستانة درويش باشا السر عسكر والفريق حسن باشا وتحت قيادتهما عدة فرق عسكرية ثم صدرت الاوامر الى رؤساء العساكر ان يحدقوا بي من كل جهة وان يأخذوني هذه المرة ميتاً لا حياً .

واختصر البيان عن موقفي فاقول انني لبثت مدة ١٣ شهراً موضوعاً ضمن حلقة

من نار وحديد ولم يكن من شيء الا العناية الالهية يقوى على حفظ الشرف لرفاقي الذين قاموا بمحاماة دموية هائلة كل الهول فكان رفاقي الاعزاء محوطين ببعض جموع من الاسلام والمتاولة من ابناء سوريا علاوة على جنود شر العسكر. وما من عون لهم سوى ان يجددوا تجديداً متواصلاً اتكالهم على القادر على كل شيء ذلك الرب القدير الذي كانوا يؤكدون له اعتمادهم على ان يحفظوا وصاياه الى آخر نسمة حياة يمنحها لهم وانهم يقتبلون اختيارياً الموت الشريف عن طريق المحاماة الشرعية كي لا يسلموا انفسهم الى رغائب الباشا عدو الشرائع

اما انا فلرغبتي في ان احقن الدماء ولاني رأيت الذخائر الحربية غير كافية صرفت الجانب الاكبر من رفاقي وكنت حريصاً على ان اتجنب على قدر المستطاع الاشتباك في كفاح وان احول بين العساكر التي تتعقبني ورغبتها في مصادمتي بان انتقل من جهة الى أخرى في مدى اماكن نطاقها معلوم . فحمداً وشكراً للقادر على كل شيء الذي جعل كل من يتبع اثرنا ينتهي في بحثه الى الابتعاد عن دائرة القتال فلا يقع تلاقٍ عدا مرة واحدة وكنت بوادٍ عميقة ومعي نحو ستين مقاتلاً فاحاط جيش تركي نحو الف جندي . وحينئذٍ اضطررت ان اتذرع بالقوة فاشق في صفوف العسكر طريقاً للنجاة اليهم ان يدعوني وشأني ويعدلوا عن التفتيش عني ما عدا اربعة بقوا معي مدة اربعين يوماً

فداود باشا الذي سبق منه الوعد انه لا يسيء اليهم اجرى في معاملتهم ما هو خارج عن العدالة خروجاً يكاد سامعه لا يصدقه فقد اراد ان يحملهم على ان يقاتلوني وان يبحثوا عني بمعية العساكر للايقاع بي ولا عجباً ان كان اجتذب الى جانبه بعضاً ممن لا ذمة لهم وقد اوجب عليهم ذلك البحث ومعهم بعض المتاولة الذين هم (شيعة من الاسلام)

فلما اسفر الصباح وصل رجال الباشا الى اهدن وكانوا جميعاً قدر ثلاث مئة رجل ولم يكتفوا ان يفتشوا للعثور عليَّ فكانت ايديهم تمتد الى نهب القرى الصغيرة الامر الذي وقع عندي موقعاً سيئاً حتى حثني على ان اظهر لهم نفسي فكنت حينئذ خارجاً عن حدود لبنان وكان رفاقي قد بلغ عددهم ثمانية رجال فتتبعنا العدو ليلاً وكان على العدو ان يمروا باهدن الخالية وقتئذٍ من سكانها الذين ينتقلون منها في فصل الشتاء الى زغرتا بجوار طرابلس فمذ اسفر محيا الصباح وصل رجال الباشا وقد حدثت حينئذ مكافحة صغيرة فالمتاولة غنموا السلامة بالفرار الى مقاطعة الضنية وتعقبهم من رفاقي اثنان والآخرون تبددوا فلاً فلاً كل منهم يريد لنفسه النجاة وتركوا لنا مجروحاً واربعة القينا عليهم القبض

وكنتُ مستمراً على حفظ الامل بان فرنسا ستقف على الحقيقة وتعلم ما كان يقوم به خصومي ضدي جوراً وانها ستوعز الى الباشا ان يقف عند العدل ويدع منهج الجور . ولهذا الامل كنت امنع رفاقي من الالتفاف حولي واتحاشى ان اشتبك بمكافحات مع صفوف العساكر النظامية المتخذة لانفسها مراكز فيما بين اهدن وزغرتا — وبعد تلك المكافحة عدتُ ليلاً الى مقر تحجبي مصحوباً برجالي الثمانية الذين اجروا تلك المكافحة

اما المتصرف فلما بلغه ما حدث لم يضع الوقت وارسل ضدي ضابطيةً يقودها قائدان احدهما متوال والآخر نصراني قد غشه . فاعتقدت حينئذ ان هذه المناوشات لا نهاية لها الا ان تنصرم حياتي او حياة المتصرف . فرفضت كل تحجب ودعوتُ كل المسيحيين الذين وجدتهم في طريقي حاضاً كلاً منهم اليَّ لكي يحضر فيموت في سبيل الشرف ان يؤيد الشرائع فلا يقع عليها تجاوز

ولما وصلت الى اجبع اجريت بعض ترتيبات سياسية على بعض المسيحيين الذين

ارسلهم الباشا لمكافحتي تحت امرة قائدين الاول بك متوالٍ والاخر (نمروه) بك يقال انه نصراني فحوّلت الأُ ادع لهما زمناً ليجتمعا ضدي وانتهزت سانحة حلول احدهما عن يميني والآخر عن يساري فهاجمتُ في صدر الليل المتوالي الذي اضطر ان يدع موقفه ويلجأ الى طرابلس قبل ان تستطيع الفرق المرسلة من الجند النظامي ان تعينه للثبات في ساحة الكفاح . ثم بادرت صباحاً للبحث عن الآخر فهذا عاد بالقفول من تلقاء ذاتهِ وكان من يصحبني يومئذ نحو خمسين مقاتلاً وعاجلاً استطعت ان اسعى لسحق ضابطية الباشا وقد بلغ الذين معي نحو مئتين

وكانت خبرتي بشؤون الباشا تعين لي انه بالقرب من بيروت ولديه قوةٌ صغيرة فغالطت الضابطية باعلاني المبادرة اليهم . وعملاً بمبدإي ان احقن دماء اللبنانيين قطعت بجنح الدجى مقاطعات شمالي لبنان لاحضر باحثاً عن داود باشا فلدى وصولي الى كسروان نما عدد رِفاقي وحضرت ضابطية الباشا في غزير كي يقتفوا اثري وكنت وقتئذٍ في غوسطة بالقرب من غزير ولبثتُ نهارين انتظر قدوم الضابطية اما هم فلبثوا في موقفهم وكان قصدي ان ألقي هيبتي في رُوع الباشا عوضاً عن ان اقوم بمعارك لا فائدة منها — فلذلك تحوّلت الى مقاطعة المتن التي كان فيها بعض رجال الباشا فارادوا ان يحولوا دون مرادي بواسطة اظهارهم ارادتهم بهذا الشأن فرأيت الاولى ان اعول عن تلك الطريق تاركاً اياهم في راحة ولكني لدى وصولي الى بيت شباب نظرتُ ضابطية الباشا تتبعني عن بعدٍ وقد اتخذت لها موقفاً في كسروان تجاه بكفيا المترئسة في المتن وكان فيها بعض رجال الباشا فأعلن سكان هذه البلدة لهم انهم يؤيدونني وفي ذلك الوقت نفسهِ جاء الى اولئك الرجال من انذرهم انني قريب من بكفيا انوي ان اهاجمهم ليلاً وكان هذا تدبيراً مقصوداً كي لا يجتمعوا في النهار التالي بالضابطية التي كانت تتعقبني . فاولئك الرجال عمدوا

حالاً الى البراح من البلد فخلتُ بها بدون مكافحة . وفي بزوغ الصباح ورد اليَّ كتاب من المسيو ده سار يتضمن رأيهُ بان اجانب كل المجانبة احداث قتال وان اعود الى كسروان للالتقاء به في مقر البطريرك وثبت عندي في ذلك الوقت ان داود باشا لجأ الى بيروت وان المسيو ألطاب رئيس الضابطية سيرد عليه كتاب من القنصل الجنرال (المسيو ده سار) يتضمن ما تضمنه الكتاب المرسل اليَّ عن الكف عن القتال الذي كانت بداءته قد نشبت بين الضابطية والرجال الذين عهدت اليهم بحفظ الطريق . فتركت حينئذ رفاقي في انحاء بكفيا وبادرت بنفسي طلق العنان الى محافظي الطريق وبعد ما جمعتُ رفاقي بعيداً عن موقف القتال توجهت الى كسروان على طريق غير الذي كانت المقاتلة بدأت بهِ . وقد أُكد لي بعد رجوعي هذا ان الضابطية قتلت رجلاً مسناً وحرمةً وابنة كانوا في مزرعة بالقرب من مكان بداءة القتال ومثلت بالبنت تمثيلاً فظيعاً بأن قطعت ثدييها . فمن هذا التمثيل الفظيع نهضت نصارى لبنان وتقلدت سلاحها لكي تنحيز لي وسأتكلم فيما بعد عن تلاقي بالمسيو ده سار عند البطريرك لاني مضطر الى ان اوضح الآن تصرفات المنسنيور مسعد خلال ثلاثة عشر شهراً

سبق لي ان اوضحت كيف غش المنسنيور مسعد حكومة فرنسا في امري وا كد بعمله السبب الاساسي للمصائب التي استطيع ان اجيء على عددها تفصيلاً بهذا المختصر ولكنني اقول ان المتصرف استطاع وقتئذ ان يحدث في شمالي لبنان النكبة التي لم يستطع سالفهُ خورشيد باشا متمم مذابح سنة الستين ان يجريها . فان الحبر (مسعداً) كان اقتبل بمقابلة خدماتهِ للمتصرف مواهب خصوصية وتعينت لهُ مرتبات لاقاربهِ وتبعتهِ ووجهت الى اخيهِ وظيفة مدير في حصرون خلفاً لمقاطعجيتها القدماء ذوي الطباع السليمة لذلك

وفضلاً عن ذلك كان قد بذل مجهودهُ حتى تمكن من حمل فرنسا على ان يتولى المتصرف الحكومة مدة جديدة . فاقتضى هذا العمل ان يجاهر بعدالة تصرفات المتصرف . وفرنسا التي كانت تعلم ان الحبر (مسعداً) رئيس الكنيسة المارونية كانت تعتقد ان غبطته يفوق كل احد سواه في ارادة الخير العام ولهذا السبب كانت تطرح توجعات الشعب جانباً . منتظرة ان يتكلم البطريرك في وقائع الاحوال .

وبناء على هذا بعدما هيأ المنسنيور مسعد جرم الاسباب الابتدائية لطروء الرزايا اضحى مضطراً ان يناصر قلة العدالة التي كانت تجري في لبنان . ولم تتوقف الحالة المذكورة على هذه القضايا بل كان الحبر محتاجاً على وجه الحصر والتأكيد الى وسيلة ما يخفي بها عن الموارنة صداقتهُ لمضطهديهم وقد اهتدى اليها وهي انه يظهر ذاته تجاه اعين الموارنة كأنهُ مرتعب ببربرية الباشا وبان حكومة فرنسا غير مكترثة لذلك وتذرع الى ذلك بوسيلة ابعاد الموارنة عن فرنسا وكان هذا التظاهر يوافقه في ان يجذبهم الى ان يخضعوا كل الخضوع لرغائبه ولمظالم صاحبه المتصرف وقياماً برواية محزنة مقصودة بدا للمتصرف ان يمنح الحبر احسن حجة او لانه لم يعد يركن اليه رفع شكوى عليه زاعماً ان البطريرك راضٍ عن ثباتي في وجههِ وقد بالغ في تلك الوشاية حتى اخرجها الى اجسم ما يكون وشكاني ايضاً الى الحكومات الغير الكاثوليكية مدعيا ني صديق خاص للاكليروس واني باذل كل عنايتي في انجاح خطة المنسنيور مسعد السياسية . اما انا فلي الشرف بان اصادق على البند الاول من شكايته واما البند الثاني فانكرهُ . والشيء الذي كان يظهر ان دعوى الباشا بهتان هو ان البطريرك ذاته كان يعلن لي ولغيري فظاعة هذه الوشاية وكان في الوقت نفسهِ يوعز اليَّ ان اتبع مشورات المنسنيور فالرغا الذي سبق البطريرك فتفاهم معهُ لكي يجابني الى تسليم نفسي الى رغبة المتصرف فاذن ليس من احدٍ يجهل ان البطريرك نظراً لانصراف

عزيمته الى ان يقتادني فانصاع الى تلك الرغبة كان يتخذ تلك الوشايات الجسيمة العواقب ذريعة لما يحاوله وحجة منتجة نتيجة سيئة . وكان يظهر خوفا ذميما اقبح اثراً من تلك الوشايات .

فلو فرضنا انهُ يرغب في ان يفضل امنيتهِ الذاتية على واجباتهِ بان يتكلم بالحق لكان عليه حينئذ ان يخرج من لبنان ويحضر الى رومية او الى باريز لا ان يساعد حاكم قانوني على ان يخرق القوانين وان يدفع البلاد في قبضة المظالم التي تفوق التعداد وان ينسب الى العدالة تلك الشنايع الفظيعة وان يضع ايضا تحت كلاكل الوشايات المتتابعة اولئك الذين كانوا يطلبون ان تذاع الشرائع ويجري العمل بمقتضاها فيتحاشى ان يعمل الوسائل ليوقعوا انفسهم في قبضة متصرف عاصٍ وغاش فسلوك هذا المنهج لا يليق ان يصدر من احد الاحبار ولا من احد المؤمنين

ولا يغرب انه سبق لي ان اعلنت توجعات مصدرها تصرفات المنسنيور فالركه الذي كان يومئذ قاصداً رسوليا في سورية وان القصادة الرسولية قد اعلنت في الجريدة المدعوة الاونيفير في عددها المؤرخ في ٢٩ تموز سنة ٧٢ اعلاناً دعته تصليحاً فهذا الاعلان تضمن ما يأتي :

انه بينما كان الكلام دائراً على موقفي يقول (القاصد الرسولي) مظهراً ذاته راغباً في ان يترك لبنان موقتاً رغبة في السلام والصلح . وان يسافر باختياره الى اوروبا ودليلاً على خضوعه كان يعد ان يظهر ذاتهُ طائعاً في كلما يوافق روح الديانة الكاثوليكية (ثم اعلنت القصادة ايضاً هكذا) فالمنسنيور فالركه قد طلب قائلاً ما هي التعليمات التي تتعلق بيوسف كرم . فاجاب داود باشا هكذا : ان يؤخذ حياً او ميتاً (ثم اضافت قائلة) فما العمل في مثل هذا الموقف . فقد جرت الموافقة ان يتقدم السؤال الى الحكومة العثمانية والى سفارة فرنسا بواسطة (البرق) التلغراف ففي

هذه المسألة المقدمة الشكوى بها الى الحكومة يباح ليوسف كرم ان يخرج فقد ورد الجواب بالانكار . فسفارة فرنسا لانها تجهل الواقع ولان القنصل لم يبسط لها المتوقع ارسلت الى القنصل امراً بان تأتي مساعيه موافقة لمساعي داود باشا مضيفة الى ذلك تلخيصات جسيمة عن حالة الخمول التي تعزى الى المنسنيور مسعد

وفي الحقيقة الواقعية ان البطريرك لكي يتمكن من تقرير بقاء داود باشا مدة ثانية ضمن للمسيو اوتره ان يقتادني الى القبول بان اشغل وظيفة تحت امر المتصرف حسبما سبق لي ان اشرح ذلك فهذه الضمانة التي لم تكن على اساس راسخ قضت على السفير ان يعدل عن الوعد الذي سبق له ان يخوّلني اياه وجعلتهُ يصمم على ان يوجب عليّ ان اقتبل وظيفة . فلما اظهر السفير هذا الاعتماد لم يعد راضياً عن الرجوع عنه ازاء ثباتي على رفض ذلك واما انا فلم يكن في طاقتي ان اخدم المظالم التي كان السفير يجهل امرها جهلاً تاماً لانهُ كان واثقاً بما كان المنسنيور مسعد يؤكده عن غير ضبط للحقيقة الواقعة . وهذه الثقة كانت السبب الذي أبطل منفعة جميع ايضاحاتي وتوسلاتي التي كان مدارها على ان تصدر رخصة لي بأن ابين عن لبنان او يتوطد العمل فيه بمقتضى الشرائع فاخيراً حينما ثبت عند السفير على وجه اليقين وذلك بعد فوات الوقت ان تأكيدات المنسنيور مسعد كانت على غير اساس راهن وان الرزايا التي صدرت عنها لا يستطيع العالم المسيحي ان يقبل بها اضاف بيانات ذات شأن تدلي بخمول المنسنيور مسعد وهذا هو الامر الذي يؤكد ان البطريرك لم يكن يستطيع ان يرفع عن نفسهِ تبعة المصائب التي نجمت عن تأكيداته السابقة (نمرة ٦) ثم ليس من يجهل ايضاً اني كنت على غير رضى من المنسنيور فالركه لانه كما سبق البيان حرر كتاباً يطلب به ان اتعهد خطاً بان اتبع في المستقبل مشوراتهِ . فبما ان المنسنيور مسعد كان السابق الى طلب هذا التعهد فالطوارئ في قضيتي تشهد باجمعها

انهُ هو ذاتهُ جعل المنسنيور فالركه ان يشترط هذا الاشتراط ودفعه الى ان يرفض ان يتيح لي الاجتماع به كما طلبت . ووقع فعلاً انني حينما رجوت من القاصد الرسولي ان يعفيني من تعهد كهذا لم يتح لي ان اظفر بمواجهته . فاذن المنسنيور مسعد اقدم عن رغبة في اخفاء اغلاطه على التستر بظلال القاصد الرسولي لكي يسبب عدم التفاهم بينه وبيني ويزيد موقفي تحرجاً

وبينما كان الكلام مع القصادة الخصوصي سألني القاصد ماذا تطلب وعلامَ تشكو المنسنيور مسعد فاجبتهُ انني ارى في معاملة البطريرك حيفاً عليّ واريد ان يلتئم مجلس قانوني فيقضي بيننا بموجب الشرائع فبناء على طلبي هذا الذي لا تخفى عدالته على احد وكان البعض حينئذ ينسبون اليّ غايات لا صحة لها اوصد القاصد باب مقابلتهُ بوجهي فبأسف عظيم اقول ان اي المنسنيور مسعد كان منذ البداءة التي على دعواي القتام بمنعه ان يجاب شيء من مطالبي التي تلامس الشرائع لانه لا يستطيع ان يوافق عليها فكان يقول علناً اني اذ استغيث بالشرائع بما انها تناسبني ضد قلة العدالة التي اشكو منها نظير جاهل لسلطة رؤسائي واقف منهم موقف القاضي عليهم ولعمري ان هذا الادعاء ساقط بهذا المقدار حتى لم اكن استطيع ان اتخيل صدوره من بطريرك وبما ان السلطة الدينية هي ذاتها شرعية فان نصرتها تتجه الى حفظ العمل بالشرائع ثم ارى ان امراً عارياً من اللياقة والتبصر ان كانت الشرائع لا يجري حكمها على العامة والخاصة جميعاً وان لا يكون الحق لكل من يلوذ بها عند الحاجة اليها فلم اجعل نفسي اذن كقاض على رؤسائي حينما ارفع اليهم رجاء بان ينصفوني بل بالعكس من ذلك ارى ان لي الشرف بان افطنهم للاهتمام بواجباتهم كي يوقّروا السلطة العليا في الكنيسة — فالسلطة هي التي تثبت الشرائع وتضع حدوداً لسلطة الرؤساء الخصوصيين ولي ايضاً الشرف بان اوصيهم في الوقت ذاته ان

يوقروا حقوق الله وحقوق العباد . وهكذا اهتمّ في جميع الاوقات ان احقق لهم انهم ان اقدموا على محو الشرائع فلا ريب في انهم يسقطون معجلاً او مؤجلاً مع الشعوب المنقادة اليهم في عمق الهاوية واقول بصراحة ان دعوى الشرائع المقدسة التي اعضدها ان كانت لا تنال رضى الرؤساء ذوي المطامع الزمنية فهي كانت ولا تزال الى الابد اساساً وطيداً لكل سلطة جديرة بان تسود الجنس البشري وعلى كل رئيس طاهر النية ان يعضدها فالقصادة الرسولية بعد ما ثبت عندها جلياً ان تطلباتي محقة وان داود باشا يسير في عمله على نهج غير عادل اطمأنت الى استقامة مبدإي وقررت ما سيأتي بيانه

ان التدبير المقصود به ايقاعي تحت الضغط لم يصدر من القاصد الرسولي منفرداً به بل كان عملاً اتفق عليه مع كل من البطريرك الماروني ومطران بيروت الماروني وقنصل فرنسا الجنرال وداود باشا . فمن جهة القاصد الرسولي اقول انه لجهله لغة بلادنا وشرائعها المدنية لم يكن ملماً بدعواي الالمام الكافي فكان يرى ان يركن الى ايضاحات المنسنيور مسعد . وهكذا كان شأن المطران السابق والمسيو دي سار فانهما يستطيعان ان يتبعا بشأني رأي بطريرك الموارنة . اما المنسنيور مسعد الذي الذي لم يكن في طاقته ان يجهل وقائع الاحوال التي هي في نور لا ظلام يسترها ولا الخدمات الثمينة التي كنت اقدمها له ولا الاضرار التي سببها لي في كل فرصة سنحت له فقد غلط بحسب ظني غلطاً عظيماً بانه اجرى بامري اتفاقاً مع داود باشا الذي كان اصدر امره الى ضابطيته ان يلقوا ايديهم عليَّ اما حياً او ميتاً . فالحبر في تصميمه على محو وجودي كانت رغبته تمتد بالطبع الى ان امحو معي دعوى الشرائع التي لبثتُ اعضدها ولم انفك من السعي في تأييدها وان يمحو كذلك جميع حقوق الموارنة فلي الرجاء الحار ان الكرسي المقدس وفرنسا يأبيان ان يغمضا اعينهما عن مشاهدة

تصرفات الحبر اللبناني الكبير الذي عن روية يتخذ تدابير هي على اعظم جانب من الخطورة وعدم المناسبة مع رسالته الروحية

سادساً — مواجهتي المسيو ده سار في كرسي بطريركية الموارنة

اوضحتُ آنفاً ان داود باشا اضطر اخيراً ان يلجأ الى بيروت وان يرغب المسيو ده سار في ان يتداول معي في كرسي بطريركية الموارنة لوضع اساس راهن . فتلاقينا في المقر المشار اليه فذكر لي الجنرال انه يود ان اؤكد لفرنسا اخلاصي في محبتها وان اقتبل ضيافتها الموقتة في الغرب وهي تعتني بي وتقيم بيني وبين داود باشا ميزان العدالة الذي كنت اديم طلبه واعلن وقتئذ رغبته ان يعود المتصرف الى لبنان كي يقوم باعباء الحكم على اساس قانوني بموجب ترتيبات عادلة بينما يصدر التأييد للعدالة التي وعدت بها وجاء بوعد كريم هو ان فرنسا ستسهر في هذه الظروف سهراً خاصاً على رفاقي وابناء وطني واملاكي فلا يقع شيء من الضرر عليهم ولما تقررت هذه المعاهدة حضرت بنفسي الى بيروت مع القنصل الجنرال ومنها ذهبت الى الغرب وبعد قليل من الزمن بلغني ان داود باشا اخذ يجري في لبنان المظالم المتناهية في القسوة واوقع اضطهاده الصارم بوجه خاص على رفاقي ثم لم يعد احد يجسر على الكلام البتة لا ما يؤيد العدالة ولا ما يؤيد الشرائع فالبطريرك الذي كان شاهداً على المعاهدة مع القنصل قد اتفق مع داود باشا اولاً ثم مع فرانكو باشا وفيما بعد مع المتصرف الحالي رستم باشا وكلهم قد عمدوا الى استخدام ما تسنى لهم من الوسائط لكي يمنعوا إيابي الى لبنان فلا سبيل الى اوبتي ان لم اسلم نفسي الى ارادة الباشا المطلقة فلا اعود افتح فمي بطلب الترتيبات العادلة ولا بالتماس شريعة ما

فهذا الحبر الكبير هو وحده الذي حكم عليَّ ذلك الحكم الجائر علناً وهو ذاته اظهر ذلك تحت قناع حجة غاشة لدى المسيو الكونت رزه فوكوه السفير الفرنساوي

السابق في الاستانة وساتكلم فيما بعد عن هذا البيان

والآن ارى من الواجب ان اظهر هنا كيف كان الحبر الكبير والمتصرف يودان ان يمارسا سياسة الشعب بغير عدالة فانهما ما برحا يعلنان في كل اين انه بعدما برحت من لبنان استقر اللبنانيون في هجوع كامل . فما يشيعانه اكيداً جداً — ومن ثم اقول ان اولئك المرتاحين في المقابر هم اكثر هجوعاً من جميع الاحياء انما هجوعهم لم يأتِ نتيجة سعادة حالهم بل لان الموت استولى عليهم وهكذا نظر اللبنانيون ان التعديات العظيمة التي اجراها البعض ضدي بدعوى اني رجوت المتصرف ان يوقر شرائع البلاد انتهت بي الى ما انا عليه فعلموا حينئذ ان كل ما يبدونهُ تذمماً من قلة العدالة يطرح جانباً نظراً لان المنسنيور مسعد يقف لهم موقف العداء فاضطروا ان يخضعوا للقوة القاهرة ولكنهم لن يستطيعوا ان يزيلوا من امام ابصارهم حقوقهم المهضومة ولا ان ينسوا اغتنام الظروف التي تسمح لهم بان يغتنموها لاحيائها

سابعًا — في سفر المنسنيور مسعد الى اوربا وايابه الى لبنان والجلاء عن بعض اعمالهِ

ان المنسنيور مسعد بعد ما اتى الى رومية أمَّ مدينة باريس وطلب ان يتاح له مواجهة نابوليون الثالث فهذا الامبراطور كان على علم كاف بان الموارنة الخالدين ما برحت فيهم شهامة آبائهم فحسن عنده ان يشاهد البطريرك وشجعه على ان يطلب ان تجري في لبنان الاصلاحات التي يراها موافقة للمصلحة العامة ووعده بان يمده بمعونته فالمنسنيور مسعد التمس مهلة كي يتبصر في ما يجب ان يطالبه لخير البلاد وعوضاً عن ان ينتهز هذه السانحه الثمينة لكي يستمد تقريراً هو احسن نظام للخير العام في لبنان قدم بعد تبصر يومين لائحة يطلب بها نيشاناً يتقلده وحماية خاصة باكليروسه الماروني على حين ان هذا المصف الاكليريكي الذي ما من احد يشكك بحسن فضيلته لم

يتطلب ان يكون له امتياز خاص بل يود الخير العام فالامبراطور لما وقف على نتيجة تبصر المنسنيور مسعد تعجب واجاب ان الوسام سوف يُهدى اليه وهو في لبنان لا في باريس ثم ان المنسنيور مسعد انتقل من باريس الى القسطنطينية وهنالك لمعت على صدره وصدور رفاقه الوسامات العثمانية وجعل مبدأه مطابقاً سياسة الباب العالي ثم عاد الى لبنان وحينئذ وضع نفسه في جانب رغائب المتصرف فتسنى لفرنكو باشا حينئذ ان يطرد رهبان الارمن الكاثوليك من ديرهم الواقع بالقرب من كرسي بطر يركية الموارنة ويثوي فيه الرهبان المخالفين وكان ذلك العمل مبايناً للترتيبات المسلم بصحتها من ذي قبل

فالمنسنيور مسعد عوضاً عن ان يعرف غلطه الخاص بشجبه تطلباتي السابقة لصيانة الشرائع وان يتشكى هو ايضاً ضد الجور العارض يومئذ ساءه جداً انه شاهد ان اهالي كسروان ذكروني حينئذ بالخير وادركوا حكمتي في عملي الناهض على المتصرف السابق . لذلك فوّض الى صاحبه الاخص المنسنيور يوحنا اسقف بعلبك المقيم في كرسي بطريركية الموارنة ان يفطن الاهالي بالاضرار التي تحملوا اعباءها في مدة محاماتي السالفة وان يحتم عليهم بان لا يحرّكوا ساكناً حينما يرون الرهبان الكاثوليك يُطرَدون من ديرهم ظلماً . والذي يلوح من ذلك ان المنسنيور مسعداً كان ناسياً ان الاضرار التي اشير اليها وقعت على اصدقائي ورفقائي وشخصي وان المصدر الذي صدرت منه هو انما هو عدو الشرائع واما هو فقد اخذ عوضاً عنها ما يساوي قيمتها

ثامناً — فهوذا الآن ابسط الفعل الذي تقدم ذكره سابقاً فاقول :

ان المسيو الكونت رزه فوكوه سفير فرنسا السابق في الاستانة اشرف على موقف الموارنة عامة وعلى موقفي خاصة وبحسب رغبته في ان تحسن حال اللبنانيين فوّض

الى المسيو غانم ترجمان قنصلية فرنسا في بيروت ان يسأل البطريرك هذا السؤال هل حضوري الى لبنان امر موافق او لا فعلى هذا السؤال اجاب المنسنيور مسعد بالانكار فكأن هذا الجواب حكم موجه ضدي . ولي اذن الحق ان التمس برجاء حار الى الكرسي المقدس ان يتنازل و يوجب على المنسنيور مسعد ان يظهر عدالة حكمه او ان يسحبه و يأتي بآخر عوضاً عنه يزيل الاضرار التي صدرت عنه

ان المنسنيور مسعداً قد اراد والحالة هذه ان يظهر عدالة حكمه هذا انما البراهين التي يوردها تأييداً لذلك الحكم هي بحسب ظني جديرة بان تقابل بالاسف اكثر من الحكم نفسه فهو يزعم ان ايابي الى لبنان بدون ان يكون المتصرف راضياً عنه سينشأ عنه تعكير الامن العام فاقول انا ان هذا الادعاء انما هو في الحقيقة العلة التي ينشأ عنها تعكير الامن العام فالمنسنيور مسعد هو هو الذي يشجع المتصرفين على ان يخرقوا حرمة الترتيبات من كل جهة هو هو الذي يلاشي في لبنان الشرائع الالهية كيما يسهل لرجال الحكومة ان يخرقوا حرمة العدالة و يجدوا منفذاً رحباً لتتابع المصايب . فالواجب اذن ان نجري الملاحظة بأنه في الوقت الذي به يريد المنسنيور مسعد ان يظهر عدالته يظهر نفسه علناً موافقاً على اعمال الظلم من الامور المقررة تقريراً قاطعاً لان الحبر او القاضي ليس له ان يشجب احداً الا بمقتضى نص الشرائع الكنائسية او المدنية فليتنازل اذن المنسنيور مسعد و يوضح اية شريعة من هذه الشرائع تجيز له ان يوقع عليَّ حرماني من وطني فاهجره لانني آنف من ان اؤيد مظالم المتصرف

فان كانت شريعة الحبر ان الحق للقوة تنال رضى اصحاب المفاسد في الارض فشريعة متابعة الخيال لم تنل رضى احد قط . وان كان السفير الوقور طلب رأي المنسنيور مسعد في قضيتي فذلك لانه كان في اعتقاده قاضياً حقانياً واذا كانت فرنسا تجل حتى الآن احكام المنسنيور مسعد بما له اختصاص بالموارنة فذلك لانها

ما برحت تعده مملوءاً غيرةً وبصيرة . وان كان الباب العالي له صالح بان يضع الموارنة في موقف يوقع عليهم ظلماً فالكنيسة المقدسة وفرنسا ليس لهما ادنى رغبة في ان يوافقا على ذلك . اما ان كان الجور يتكاثر في لبنان هكذا فذلك نتيجة رغائب المنسنيور مسعد الخائبة كل الخلو من اساس عادل . وها انا اذا اوضح عن امر يظهر ان المنسنيور مسعد بعدما انصرف بجميع قواه الى ملاشاة حقوق الموارنة المدنية صمم ان يلاشي ايضاً اعمالهم الحسنة فاقول

ان المرحوم ميخائيل طوبيا الذي كانت شهرته بوفرة الغنى ذائعة في سورية كلها فبما انه كان بلا سلالة وجه عنايته الى ان يقف امواله على حاجات البلاد فاناط بالبطريرك ان يكون القيم على مدرسة تبنى في عمشيت لتهذيب الشبان وخولها بموجب وصية شرعية ثلث ما يملكه فالمنسنيور مسعد اقتبل تلك الوصية قبولاً حسناً ولكن مشروع المدرسة ابطل وغنى الواقف المتوفي غاب عن الابصار

تاسعاً — افعال المنسنيور مسعد الماسة بالاعمال الكنائسية

قبل ان اظهر افعال المنسنيور مسعد الماسة بالكنيسة المارونية ارى واجباً ان اوضح ان ابناء مقاطعة كسروان من اكليروس وسوقة هم جميعاً تقريباً متصفون بطبع سليم جداً . والناتج من ذلك انهم لا رغبة لهم في ان يتعصبوا ضد اخوانهم الساكنين في الجهتين الجنوبية والشمالية من لبنان ولكن طالع لبنان الغير السعيد حبب الى المنسنيور مسعد والمنسنيور يوحنا ان يقبلا على سياسة عميقة يخدمانها منذ زمن عتيق واساس هذه السياسة انما هو ان كسروان في لبنان له المحل المحفوظ لرومية في العالم الكاثوليكي .

انما بما ان الله لاجل صالح الكنائس المختلفة اللغات والجنسيات والاصطلاحات قد فضل رومية ووهبها روحاً ابوياً مستقيماً . اما المنسنيور مسعد فاختار كسروان

و كذا للطمع كنيسة واحدة صغيرة قد جعل فيها ينبوعاً للمصائب والخراب الروحي فهذا هو الامر الذي تثبته الافعال التي ليس في طاقة احد ان يجهلها · فان الموضوع الاساسي لهذه السياسة هو ان تسام اكثرية مطارين الموارنة من ابناء مقاطعات كسروان لكي يمكنهم ان ينتخبوا على الدوام باستمرار بطريركاً من المقاطعة المذكورة

ولهذا السبب انشئت ثلاث ابرشيات في هذه المقاطعة الصغيرة على حين ان ثلاث او اربع مقاطعات لبنانية تنضم تحت كرسي ابرشية واحدة وبما ان للبطريرك سلطان بان يتخذ لمعيته الخاصة مطرانين كي يكونا عنده مستشارين باعمال الكنيسة المارونية ولكي يظل الحق القانوني متبوعاً بالعمل فهو ينتخب هذين المطرانين من ابناء موارنة كسروان الامر الذي يجعل هذه المقاطعة الكسروانية حائزة خمسة مطارين يؤلفون اكثرية المطارين الموارنة الحاليين وهو يستطيع ان يبطل الاساس الموضوع لانتخاب مطرانين بان يسمي احدهما وكيلاً خاصاً له للاعتناء بالموارد الخاصة بالبطريركية والآخر وكيلاً روحياً ليتبع اوامر رئيسه حرفياً

فيخال لي ان هذه السياسة التي تحول دون ان يفوز ابناء الموارنة المستحقون ممن هم من خارج كسروان درجة المطرانية نوع من السيمونية المؤسسة على روح النعرة الوطنية الخاصة كما اوضحتها آنفاً فهذه السياسة الخرقاء المحزنة بما انها معضودة من رئيس الكنيسة المارونية لا تلبث ان تجد مجالاً فسيحاً للنمو وان النتائج المنحصرة في الخصوصيات التي صدرت عنها هي جزيلة العدد بهذا المقدار حتى لا استطيع ان استوفي عددها بهذا المختصر ولذلك اقتصر فاتكلم عن ترتيباتها الرئيسية فاقول

ان روح هذه السياسة الخرقاء بعد ما اوجد في المصف الاكليريكي انقساماً قسم الموارنة ايضاً في شؤونهم المدنية وقد جعلهم على نوع ما غير مستطيعين ان يحسبوا

انفسهم ابناء وطن واحد واعضاء كنيسة واحدة ولهم جنسية واحدة فهذه النتيجة الواقعية كافية للادلاء عن جسامة البلايا التي صدرت عن تلك السياسة واغرب ما في هذه السياسة انه على رغم ان الصالح الجوهري ان يكون سلطان السلام سائداً على نفوس ابناء الملة وان الفريق الاكبر من المطارين تقرر ان يكون مستقره في كسروان وهويته من كسروان فان البطريرك بالصعوبة القصوى يرضى ان يسيم مطارنة للابرشيات الغير الكسروانية حينما ترمل لانه يود ان يقود الرعية الى ان تنتخب مطراناً من كسروان وفي سبيل انجاح هذا المبدأ يؤخر غالباً سيامة المطارين في الابرشيات التي ليست بكسروانية جملة سنوات فيتضخم الخراب الروحي والفائدة الوحيدة التي يستثمرها البطريرك عن ذلك التأجيل انه يلي بسلطانه الاعلى السيطرة على اعمال الاملاك الكنائسية مدة فراغ سدة المطرانية من راعيها وهذه السيطرة قد خدمت على الدوام الجيب البطريركي واستدرت الاموال على انها تنافي التعليم المسيحي فالرب اوصى تلاميذه ان يعطوا مجاناً ما اخذوه مجاناً . ولا بدّ لي من الثناء على المرسلين

والاب يوحنا حبيب من كسروان الذي حملته الغيرة المسيحية الصالحة فانشأ على نفقته الخاصة جمعية مرسلين موارنة ترسل افرادها الى بعض قرى كسروان وغيرها وتلقي على مسامع الشعب كلام الوعظ والانذار وتنهض الهمم النائمة وتنشط العزائم الخاملة

وامر معلوم انه حينما طرأ الخلاف بين الكرسي المقدس وبعض الارمن الكاثوليك كانت الابرشيتان المارونيتان البيروتية والدمشقية مترملتين نظير ما هي عليه ابرشية اهدن منذ زمن مديد . فالمنسنيور مسعد كان يتلوّم عن سيامة مطارين لهذه الابرشيات بحجة انه لا يريد ان تتكدر رومية ان جرت السيامة بموجب اصطلاحات الكنيسة المارونية القديمة . ولا ان يسبب فقدان هذه الاصطلاحات

الحديثة التي تفضلها رومية وكنت في ذلك الآن في روميــة فلكي اريح المنسنيور مسعد من هذه الصعوبة رفعت رجاء الى هيأة البروباكاندة ان تستمد من لدن الاب الاقدس اجازة تأذن للبطريرك ان يسيم مطارين لتلك الابرشيات المترملة على مقتضى اصطلاحات الكنيسة المارونية القديمة فتعطف قداسته ومنح هذه الاجازة وسيم مطرانا بيروت ودمشق فنجم عن ذلك ان الخير الروحي توطد بناؤه في بيروت والشام . وزالت تلك الخلافات السابقة . ولكن عملي المشار اليه لم ينل رضى المنسنيور مسعد وقد اعلن لي بلسان احد كبار الاكليريكيين اني ارتكبت خطاء كبيراً جداً بطلبي اجازة قداسته لانها بحسب ظن المنسنيور مسعد تسبب فيما بعد توقيفاً لاصطلاحات التي كنت وما برحت محامياً عنها اكثر من غيري ولكن في رومية لا في غيرها

واقول الآن ان ابرشية طرابلس هي منذ ثلاث سنوات مترملة والى الآن لم يسم البطريرك لها مطراناً ما . لا بموجب الاصطلاحات القديمة ولا بموجب الاصطلاحات الحديثة فالخراب الذي يتهدد هذه الابرشية اراه يفوق الوصف والحالة هذه

ان ابناء هذه الرعية يُقاصّون على ذلك لانهم لا يريدوا ان يغمضوا اعينهم عن مشاهدة استحقاقات الاب يوسف السمعاني تلميذ رومية المملوء خبرة فانه شيد في هذه المدينة كنيسة كبيرة بدون ان يعلم احد كيف استطاع ان يتم ذلك العمل الجليل كي ينتخبوا لهم اسقفاً احد الخوارنة من كسروان ذلك الكاهن الذي يقال ان فضيلته العظمى انه احد انسباء المطران يوحنا . فمن خصوص مطران اهدن الذي لقبه مطران عرقا قد زعم البطريرك ان رومية تمنعه عن سيامته

فانا لاني لا استطيع ان اعتقد بان الكرسي المقدس يرضى ان يفقد المؤمنين

اباهم الروحي في سبيل انتصار السياسة التي لا تستطيع ان توافق رأفة السلطان الكنائسي ارى من واجبي اظهار سبب هذه القضية وان رأى البطريرك ان كلامي لم يأت على السبب الحقيقي فليظهره ليسفر محيا الحقيقة بغير نقاب

ان دير قنوبين الذي كان مقراً رسمياً لبطاركة الموارنة موقعه في الوادي المدعو وادي قاديشا (وادي القديسين) في شمالي لبنان حيث توجد معظم املاك الكرسي البطريركي وكان من الواجب بقاء الكرسي البطريركي هنالك لان الشرائع تقول الاصل بقاء ما كان على ما كان والبقاء خير من الابتداء لا سيما ان بقاء البطريرك هنالك يجعل تلك الاملاك تحت دائرة نظره فتنمو وارداتها فسلف البطريرك مسعد اختار بدلاً منه ديراً في كسروان اسمه دير بكركي وجاراه خلفهُ المنسنيور مسعد ومنحهُ اسم مقر الكرسي البطريركي وكان هذا الدير مقراً للراهبة المسماة هندية التي كانت برياء تتظاهر بان القداسة تملأ حياتها والنعم الالهية موفورة لها ولما بحثت رومية مزاعمها شجبتها واعلنت غوايتها واختلاقها الاثيم — وها انا اقصُّ واقعة الحال التي بني عليها هذا النقل الذي اراه غير مشروع فاقول :

بعد ما انتقل الى دار الراحة الابدية البطريرك يوسف حبيش [1] التأم مجمع مطارنة كرسي البطريركية المارونية في الديمان مقر البطريركية في فصل الصيف لينتخبوا خلفاً للبطريرك الراقد بالرب وكان القسم الاكبر منهم من ابناء كسروان.

(١) كان قبلاً مطران طرابلس انتخب للبطريركية في ٢٥ ايار سنة ١٨٢٣ وهو السابع بهذا الاسم وثبت في ٣ ايار ١٨٢٤ من البابا لاون الثاني عشر على يد وكيله القس باسيليوس دوروسون من رهبان الارمن الكريميين التابعين قوانين وفرائض رهبان مار انطونيوس اللبنانيين الموارنة وتوفي في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥ ودفن في ضريح البطريرك يوحنا الحلواني في كنيسة دير قنوبين

فالجهل الذي يدفع اهله الى ما لا يتناسب مع الحكمة ولا مع الواجب حبب الى نحو اربعين او خمسين رجلاً من قصبة تسمى بشري[1] احدى قصبات شمالي لبنان ان يغدوا الى الديمان واخذوا يصيحون هكذا أمرٌ لا تسوغهُ الروية ان يقع انتخاب البطريرك على الدوام على من هو من كسروان — وخلاصة ما يطلبونه انهم يرغبون في ان يدعى الى سدة البطريركية المطران يوسف جعجع الذي هو من ابناء قصبتهم، فلما درى بقدومهم هذا الحبر الشهير بالتقوى بادر حالاً الى طردهم عن باب الدير وقال لهم ان المجمع له لا لغيره الصلاحية بان يبت بامر الانتخاب البطريركي وهو لو عُرضت عليه سدة البطريركية لامتنع امتناعاً قاطعاً عن القبول بها . فهذه الزمرة السخيفة العقول ظلت في ارجاء الدير ولبثت تصيح بان تصيير بطريرك من كسروان امر لا نقبل بهِ

جرى ذلك وكنت يومئذ لا ازال في طور الشبيبة فعزَّ عليَّ ان يقع هذا التدخل الغير المشروع ولم تمنعني الشبيبة عن البروز الى الدفاع عن حرية المجمع المعقود حينئذ فضممت اليَّ اربعين فتىً من اندادي وتقلدنا السلاح وسرنا عجلاً في جوف الليل فوصلنا صباحاً الى الديمان وفي الحال عمدنا الى طرد تلك الزمرة الصخابة فارتدت على اعقابها ثم وافى على اثرنا المرحوم والدي ومعه عدد من اعيان شمالي لبنان وبعضهم من بشري نفسها وبوصولهم تهددوا الزمرة الصخابة واعلنوا لها ان الطائفة المارونية باسرها تجلُّ شأن مجمع المطارين اجلالاً كاملاً ولا تأذن لاحد ان يتعرض له في

(١) للعلماء في هذه التسمية رأيان الاول بشرة (كذا) اي بيت عشترت والثاني بشراي وهي كلمة سريانية معناها الاولى — والذي عندي الراي الاول اولى بالثقة لان فيها آثاراً تدلُّ على ان عبادة عشترت كانت عند سكانها فلما استقر فيها الموارنة سموها بشراي

شؤونه الخاصة وهكذا صرفوا تلك الزمرة واجرى المجمع عمله القانوني فانتخب للبطريركية يوسف الخازن[1] من ابناء مقاطعة كسروان وبعد اختياره أنتقل المجمع كله الى تلك المقاطعة وهنالك قرروا نقل المقر البطريركي الى دير بكوكي الذي شيدته الراهبة هندية مدّعين انهم لا يأمنون ان تبقى حريتهم مضمونة في شمالي لبنان بل تقع تحت تهديد . وهذا بناء على باطل فهو باطل لان الشعب الماروني المقيم في شمال لبنان ظل محترماً الرئاسة البطريركية واستمر البطريرك يوسف الخازن يحضر كل سنة في فصل الصيف الى الديمان فيفد الى مقره موارنة الشمال ويقدمون له الاحترام اللائق بمكانته الروحية وهذا امر يؤكد ان تلك الحجة باطلة . وان قيل ان مثيري تلك السياسة الامارية الخرقاء هيجوا بعض جهلة بشري فظهر منهم ما لا يتناسب مع الواجب البنوي فان المجموع لا يجوز ان يؤخذ بجريرة الافراد ولان ذلك التذمر الذميم لم ينتج عنه امر جسيم وقد بادر موارنة الشمال كافة على جناح السرعة الى محو تلك الغلطة — فهذا الحادث يلوح لي انه لا يبني نقل الكرسي البطريركي من الشمال على اساس راهن بل هو في الحقيقة نتيجة امتداد روح السياسة الخفية التي استخدمت تلك المشاغبة الصغيرة وسيلة لتنجيح سياسة الاهواء المعوجة التي ارفع الغطاء عنها لتقع تحت نظر ذوي البصيرة .

وانا بما اني لست باكليريكي ليس لي طمع في المنصب الروحي ولا حسد لمن يتولى المنصب الروحي ولكني بما اني ابن مخلص للكنيسة المقدّسة اتمنى ان تؤدي رسالتها العالية التي موضوعها مجد الله وسلام النفوس . ثمّ بما ان الكرسي المقدس هو وليّ القضاء في هذه الوقائع والاحوال وهو يعرف مسؤوليته تجاه الله فلي الامل ان يتولى

---

(١) انتخب في ١٨ آب سنة ١٨٤٥ وهو الثامن بهذا الاسم وقضى اجله في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ في الديمان ودُفن في ضريح سلفه البطريرك يوسف حبيش.

النظر في هذه القضية بملء العدالة وان لا يأذن بان تمتد يد غير العدالة الى افساد اثمار الديانة والى تلطف الكنيسة المارونية

لعمري ان سياسة المنسنيور مسعد تتقدم الى قدَّام فهي قد تجسمت تجسماً ظاهراً حينما برزت ضد رهبنات الموارنة ملقية على هذه الرهبنات جنحاً لا صحة لها وذلك لان من المبادىء الاساسية لهذه الرهبنات ان اوقافها غير خاضعة على خط مستقيم لسياسة البطريرك فهي في حد ذاتها تمتلك ارادة خاصة وذلك الشأن لا يناسب سياسة البطريرك الذي يريد ان يكون كل شيء خاضعاً لهُ .

ومما لا ريب فيه ان بين اولئك الرهبان الكثيرين الذين هم مضرب المثل بالتقوى بعض يتهاون في حفظ قوانين الرهبانية الصارمة ويتجاوز دائرتها الضيقة فسياسة المنسنيور مسعد شجعت هذا البعض على الاستمرار على خرق قوانين الرهبنة لكي يتذرع بغلطهم لتعميمه في الرهبان كلهم وليشكو منهم جميعاً انهم يسيرون على سبيل ليس بقانوني وحينئذ يتيح له ان يتولى تقويم سبيلهم المعوج بمن ينال ثقته فيختار لمنصة الرئاسة العامة من شاء من ابناء كسروان الامر الذي يصور هذه الرواية المحزنة مكيدة مدبرة بمهارة

ثم انه مما لا يغرب عن ذوي فطنة انه بناء على الخلل في الشؤون الرهبانية بين الرهبان اللبنانيين الصادر عن ذوي غايات اراد الكرسي الرسولي الذي كان على اقل ما يظهر شاعراً بان البطريرك غير مكترث لهذا الشان ان يعهد الى المطران يوسف جعجع ان يقوم بتقرير الراحة بين الرهبان موجباً عليهم ان يكونوا كلهم متابعين ما فرضته عليهم قوانينهم الرهبانية فهذا الحبر الجليل لبى الايعاز وتمم رسالته بنجاح بديع . ولكن الشكوى منه قدمت عليه فتاً في عضده فنسب اليه انه اخذته النعرة النسبية للاب افرام الوقور الذي اختارته الرهبنة رئيساً عاماً . والحال ان الحبر

(يوسف جعجع) أخر عن عمد رئاسة قريبة ثلاث سنوات متتابعة ثم اضطر بعدئذ ان يدع للرهبان ان يتصرفوا بمقتضى حرية ذممهم . اما غلطهم فكان بحسب ظني انه ركن كل الركون الى رغائب البطريرك الذي اوجب عليه ان يسرع في الجواب على قضية ذات مسؤولية صدرت اليه من رومية . فان الكرسي المقدس ربما عن رغبة في ان تظهر الحقائق بموجب الامتحان فوض البطريرك انه هو نفسه يتولى تدريب الرهبان على العمل بمقتضى قوانينهم . فالمنسنيور مسعد الذي لم يكن يرضى قط ان يعرض نفسه على خط مستقيم الى نتائج تصرفاته الذاتية رفض هذا التفويض الامر الذي يجلب الى جانب الصدق انه قليل الاستعداد لان يتبع اوامر سلطان الكنيسة الاعلى . فالاب الاقدس بناء على ذلك فوّض بهذه الرسالة الاب الوقور لوديفيكو الذي كان حينئذ نائب القصادة الرسولية في سورية . وهو الآن اسقف وقاصد باللقب . في عاجل الحال تأثرت سياسة المنسنيور مسعد ان تقدم على الفعل الكبير . فالمنسنيور يوحنا الصاحب الوحيد للبطريرك ومدير السياسة المذكورة الحقيقية فوّض نفسه ان يحرض البادري لوديفيكو ليجري باسم الحبر الاعظم سلسلة اعمال غريبة يصعب تصديق وقوعها . فان الاب لوديفيكو استدعى اليه حيث يقيم في دير حريصا من كسروان الاب افرام رئيس الرهبنة العام والاب لورنسيوس المدبر الاول فهرعا الى مقره بواجب الطاعة في حال وصولهما طلب منهما النائب الرسولي ختمي وظيفتيهما فدفعاهما لديه فلما وصلا اليه اعلن لهما انهما من الآن وصاعداً ليس لهما ان يقبلا وظيفة ولا ان ينتخبا موظفين . فهذان الراهبان قد طلبا حينئذ ان يعلن لهما سبب هذا التجريد من وظيفتيهما فقال باسم الاب الاقدس اقول لكما انه يجب عليكما ان لا تخرجان من هذا الدير قبل ان يتم انتخاب الرؤساء الجدد . فالابوان المستحقان كل مديح اجاباه حينئذ . لكي نوضح احترامنا رأس

الكنيسه المقدسة الذي صدر امرك علينا باسمه نخضع الخضوع التام

فلما تمت المرحلة الاولى من الطريق السياسية التي تم تخطيطها دعا الاب لودوفيكوس ذوي الاصوات في الرهبنة باسم الاب الاقدس واوعز اليهم ان يجتمعوا و ينتخبوا روءساء جدداً بحسب قوانينهم واستثنى من الانتخاب الابوين اللذين حرمهما من استخدام حقوقهما

وبعدئذ حينما اجتمع المنتخبون في الكنيسة ليجروا الانتخاب بحسب الاصول المتبوعة صعد الاب لودوفيكو فوق درجات المذبح وقال لمن يحق لهم ان يجروا الانتخاب انا باسم الاب الاقدس اعطيكم الاب فلاناً الفلاني رئيساً عاماً والآباء فلاناً وفلاناً وفلاناً (ذاكراً اسماء اربعة رهبان) مدبرين فحينئذٍ خرج الرهبان المذكورون الاّ عدداً قليلاً وهم يقولون ان الاب الاقدس ارفع شأناً من ان يهضم هكذا حقوق خدامه الخصوصيين . وهو لو حكم بموافقة ابطال قوانينهم لعدوا ذلك فعلاً قانونياً وانهُ بينما الاب لودوفيكو يأمرهم باسم الاب الاقدس ان ينتخبوا قانونياً روءسائهم ثم يلزمهم باسم قداستهِ ايضاً ان يقبلوا روءساء منتخبين سلفاً من المطران يوحنا حباً بنجاح تلك السياسة المتجاوزة سائر الحدود العادلة . فالاب لودوفيكو قد خوّلهم الحق في ان يشتكوا على افعاله . وهذا بدون ان يعرفوا على رأس رهبانيتهم روءساء غير قانونيين رفعوا الى رومية استغاثة من الضغط الذي طرأ عليهم واما الروءساء الاولون فصار استدعاء كل منهم الى مقاطعات وظيفته والروءساء الذين فوق العادة بقوا في كسروان . وهكذا ظهر بالامتحان الواقعي ان المنسنيور جمجع لم يكن قط يستخدم التغرض لاقاربه في اعماله . واما السياسة المسعدية التي تكلمت آنفاً عنها هي التي استدعت وتستدعي كل نوع من الاخطار . وبما ان هذه الافعال عرفت في رومية معرفة تامة او ناقصة فان غيرة الاب الاقدس وحكمته

اصدرتا امره المطاع الى الاب لودوفيكو ان يسافر الى الديار المصرية وان يدع للبطريرك ان يفعل باسمه الخاص الافعال التي توافقه

فليلاحظ الآن كيف كان الشر مزمعاً ان يتجسم بما ان رستم باشا كان وقتئذ قد سمي متصرفاً في لبنان وقد سبق له ان يعد ذويي مكانة عالية في اسلامبول انهُ سوف يغتنم اول فرصة ويجعل الكنيسة المارونية تبرز جهاراً الى ان تتكلم علناً ضد البوللا (نمرو ٩) اي البراءة الباباوية وان لم تكن هذه البوللا ملامسة على استقامة هذه الكنيسة . فلهذا السبب قد اجترأ كثيراً خصوصا الكاثوليك في اسلامبول حينما انتهى اليهم انباء حدوث الخلاف بين نائب القصادة الرسولية والرهبان الموارنة . وكانوا ينتظرون ان الكنيسة تتدخل ويؤملون ساعة فساعة ان يقع ذلك التدخل

اما انا فكنت يومئذ في تلك المدينة وبما ان المسيو ده فوكو سفير فرنسا الذي بيني وبينه صلات مقرونة بالاخلاص كان غائباً فلم يكن في طاقتي ان استحصل مساعدة فعالة او اوقف بها الشر الذي كان قد اعد في الاستانة وفي لبنان فلم يبقَ لي اذن وسيلة سوى ان اتفق مع شريف الاخلاق باولاكي افندي حوا كيما نستخدم وسائطنا الضعيفة لكي نزيح الشر عن طريق امتداده على قدر ما يتهيأ لنا عمله . وبناء على هذا الاتفاق كتب الافندي المومى اليه الى البطريرك بما انه وكيله في الاستانة راجياً من عنايته الابوية الا يعطي مجالاً لقسمة بين الموارنة . واما انا فبما ان الرهبان كتبوا اليَّ رسائل تعلن واقعة الحال انتهزت الفرصة لكي اكتب اليهم هكذا :

« بما انهم عسكر الكنيسة المارونية القانوني ضد قوات الجحيم فالواجب الموضوع عليهم القيام بهِ قانونياً ان يقاتلوا في سبيل انتصار الديانة وان يغلبوا الرذيلة بالفضيلة

وانهُ عليهم بينما هم يظهرون تمسكهم بحفظ القوانين التي يعرفها لهم الكرسي المقدس ان يظهروا ايضاً خضوعهم على جناح السرعة لاوامر البطريرك لكي لا تستطيع قوة ما غريبة ان توجد فرصة للمداخلة في اعمالنا الكنائسية »

فهذه الرسالة المتضمنة روح المسالمة تُليت علناً على مسامع جمعية الرهبان فشكراً لامائر تقواهم المسيحية فانهم لم يرفضوا النصيحة وعرفوا اولئك الرؤساء الغير الاعتياديين رؤساء تجب طاعتهم حسبما كان البطريرك يودّ ثم بناء على اتفاق عام بين هؤلاء الرؤساء تركوا من تلقاء ذواتهم للاب افرام ان يجمع الموارد المختصة بالرئيس العام من الاملاك لكي يتمكن من ان يفي الديون التي كان قد اضطر الى تناولها في سبيل تعمير مدرسة في بان ودير للراهبات في ايطو . فاذن قد انتهى هكذا هذا الاختلاف

وقد هممتُ يومئذ ان اردّ على مضمون رسالة نشرت باللغة العربية واذيعت في الاستانة وهي خالية من اسم مؤلفها وفحواها وان على عموم كاثوليك المشرق ان يلتمسوا من الباب العالي حماية حقوقهم الكنائسية . فنظراً الى المنزلة التي عزاها البعض الى هذه الدعوة الذميمة بدا لي ان اجاوب بكراسة فحواها هكذا : بما ان الحقوق التي يدور عليها الكلام هي كنائسية فمن الواجب ان لا تجري المباحثة بشأنها الا في الكنيسة ذاتها و بما ان الحكومة ارادت ان يغير رئيس الكنيسة العام اصطلاحاتها فعلى هذه الحكومة الا تبيح لنفسها ان تغير هي هذه الاصطلاحات . وان الكاثوليك لم يسبق لهم ان يعرفوا لهم بطريركاً رسمياً يسري حكمه على الطوائف الكاثوليكية في المشرق . وان الحكومة ان ارادت ان تتداخل باعمال الموارنة الكاثوليكية فهي تدفعهم الى ان يحاموا عن حريتهم الدينية بثمن جزيل هو دماؤهم فهذه الكراسة قد خضعت لاجازة من قبل الحكومة

ثم ان صفوت باشا الذي كان يومئذ وزير الداخلية وهو الآن وزير الخارجية اعلن انه لم يستطع ان يأذن بوجه ما ان تنشر هذه الرسالة فحينئذ امام الوزير الاعظم طالبت بحق العباد في الدفاع عن عقائدهم الدينية وان العدل لا يبيح ان يشهر قوم افكارهم بشأن ديني يمشي بمبادئ فريق آخر ولا يباح لهذا الفريق ان يجيب علناً مطاعن معارضيه ولبثت مصراً على طلب الاجازة

فمن اصراري هذا منحني عوني باشا حينئذ بدلاً من الاذن المطلوب الوعد القاطع بانه لا يتداخل البتة باعمال الموازنة الكنائسية وانه يمتنع عن ان تصدر منه اهانة نحو باقي كاثوليك المشرق . فبينما انا استكمل هذه النتيجة التي وصلت اليها عن مسماي الخاص الضعيف اضطررت ان اتقصى تتبعات المنسنيور مسعد فان قنصل فرنسا الجنرال الذي كان يومئذ في هذا المنصب ابان انني انا الذي اوعز الى الرهبان انه يجب عليهم ان يخضعوا للبطريرك . واقول انني على رغم كل الواقع والاحوال التي ما برحت ارفع السجوف عنها واخضع شخصياً لسلطة غبطته الروحية التي أعاين بها سيدي يسوع المسيح ذاته وأؤدي لها الاحترام الواجب . وهذا الامر الذي من غير ان يمنحني ايضاح اعمال المنسنيور مسعد البشرية والتي يحق لي ان اتأسف لوقوعها منه يوجب عليَّ ان اتمم ذلك العمل انتصاراً للحق ولكي لا افسح لاحد ان يخلط الديانة بالاغلاط التي تصدر منه سواء كان بطريركاً او مطراناً ولكي لا يضع تحت الظلام الا نفسي التي افسح لها يسوع المسيح طريق السلام بثمن دمه الكريم . وهكذا ارجو ان قنصل فرنسا الجنرال سيعتني باجراء تحقيق على الافعال يكون وافياً كل الوفاء

عاشراً — في موقفي الحالي تجاه الباب العالي وفي اعمال المنسنيور مسعد الاخيرة بناء على متابعة ورود الحوادث يجب عليَّ ان اقول ان خروج رستم باشا عن

جادة العدالة في الازمنة الاخيرة اوجبت عليّ ان ارفع رجاء الى الباب العالي مضمونه ان يصدر امره الكريم بان يجري التحقيق على كل ما جاء ضدي وان ينصفني و يرفع عني الظلامة واقل ما ارجو من انصافه ان اعطى حريتي الشرعية كي استطيع ان اعود تحت لواء المسالمة الى وطني واظهر رغبتي بما يوافق الراحة العامة . ونتيجة هذه النعمة تأييد السلطنة وعمل الجميع في خدمتها ولما رأيت ان هذا المسعى بغير ثمرة اضطررت ان اوافق الذين يرغبون في ان يسعوا لكي يستولوا على حقوق الباب العالي وذلك لاستيائهم من خروج موظفيه عن منهج العدالة

فمن ثم قبل ان اقرر مع احد موافقة ما بهذا الشأن التمست من فرنسا اذناً بالحضور اليها وكنت يومئذ اقصد ان ارفع رجاء الى حكومة المشيخة استمد به ان تشملني بمعاضدتها فتؤيدني في ان اعامل بالانصاف وان تحفظ لي مودتها اذا تبعت مماشاة الظروف على الطريق الذي اخاله الافضل . فهذا الالتماس لم يحظ بنتيجة وبدا لي ان الاخطار التى تتهدد نصارى المشرق ما برحت تتعاظم فلم اجد بداً من ان اغادر مقر اقامتي في اسلامبول واسافر الى اوربا — وهذا التصرف من الطبيعي انه لا ينال رضى الباب العالي الذي صار اكثر من ذي قبل خبرةً . وبقي عليّ ان اكتب قبل مبارحة القسطنطينية الى مطارين الموارنة الاجلاء رسالة سلامية عامة صورة واحدة اضمنها رجاء حاراً ان يتبصروا بالحوادث الماضية و يقيسوا عليها الظروف الحاضرة وان يعملوا في استخلاص الحق الذي يستطاع الحصول عليه من الباب العالي ليكون عاماً في طوائف نصارى الشرق وان تجري المذاكرة بموجب هذا الحق نفسه مع البطريرك وسائر اعيان الموارنة على ما يؤيد السلام العام حتى يتمكنوا من ازالة الاختلافات التي ربما سببت تأهبات لمذابح جديدة . وانهم بذلك العمل المجيد يقومون بمأثرة جليلة تروق للباشا . وفي هذه الرسالة اعطي من نفسي عهداً

بالامتناع عن الاياب الى لبنان ما ظل البطريرك والمطارين والوجوه قائمين على واجب العناية بصيانة مصلحة البلاد ودوام راحة سكانها واني احضر حينما يبدو لهم وللباشا ان حضوري مفيد للمصلحة العامة واضفت على ذلك ما يأتي : اذا كان ما من احد يريد ان يضع الموارنة ذواتهم بموجب تأمينات حقيقية تحول دون مصيبة جديدة فاني حينئذ اضطر ان اسعى على قدر جهدي بالاتفاق مع من يعتني بحق العباد لعمل ما يناسب عمله لوقاية ابناء مذهبي فهكذا رفعت النقاب عن مقاصدي حتى لا يقع كبسٌ بها فاني كنت ولم ازل اودُّ ان اعود الى لبنان كي اشاطر بهِ نصيب ابناء مذهبي ان حدثت الاخطار التي تهدده والاَّ فاني ساتابع تقصي الحوادث وانا مقيم بعيداً عنه

والآن اوضح الاسباب التي لاجلها رأيت ضرورةً ان انبه بذلك الكتاب افكار المطارين الى ما يجب عمله فاقول :

اني بعين البصيرة رأيت ابناء ملتي الموارنة قد نجحت سياسة المنسنيور مسعد في تسييرهم الى الغاية التي يريدها فهم غرقى في لجة الاختلافات على مثال الحالة التي كانوا فيها قبل حدوث مذابح سنة الستين وهم الآن في حالة اضعف مما كانوا عليه يومئذ لانهم قد فقدوا كل نوع من وسائط المحاماة وبموجب رغائب البطريرك ان يمارس اساليبه القديمة الآئلة الى ان لا يبقى للموارنة زعيم مدني لا يزال منصرفاً الى ان يتملق المتصرف ويماشيه ويمنع ايابي الى لبنان فبما انني احاذر ان تجر هذه السياسة اخطاراً تفاجيء نصارى سورية جميعاً وقد سبق لي ان أعاهد المطارين بكتابي الاَّ اعود الى وطني ما ظل المنسنيور مسعد متعاضداً مع المتصرف لدوام السلام العام فان رسالتي هذه تجعله ان يرتضي على اقل نسبة ان يعضد المطارين على دوام استقرار السلام العام وهو المطلب الذي كان المتصرف يراه موافقاً له لو كان بالحقيقية مسيحياً

فبعكس ما رجوتهُ بدا من المنسنيور مسعد فانه اغتنم نهزة ارسال كتابي الى المطارنة ليعلن لي بواسطة مطران بيروت وعلى معرفة حكومة فرنسا ما يأتي : انه وان كان الباب العالي يعرف له وللمطارين وللاعيان الحق ان تقع بينهم المذاكرات معاً للحرص على مصالحهم فذلك (كما هو يقول) امر غير ممكن لان حدوثه تنشأ عنه ظنون . فالمطارين والحالة هذه قد اضطروا حينئذٍ ان يلوذوا بظل السكينة ويسكتوا عن هذه الدعوى التي ابرزها المنسنيور مسعد خوفاً من ان تتسع دائرة اختلاف اخر بينه وبينهم ويتم الويل

فوالحالة هذه بما ان هذا الحق معروف من الباب العالي . فهو اذن لا يسبب ظنوناً لسوى الدروز والمتاولة فالمنسنيور مسعد عوضاً عن ان يلطف بالقليل موجلاً رغائبه قد اغتنم فرصةً هي استخدام هذه الاخطار كلها لكي يتمكن من ان ينكر على الموارنة الحق في ان يعتنوا بحالتهم الخاصة . وان يضع تحت الظنون امانة مطارينهم واعيانهم وان يفتح من جديد باب الاختلاف فيما بين الرهبان وفيما بين الشعب . وان يخصص ذاته تخصيصاً منفرداً بمهنة قهر الموارنة باي حال كان

فاذن بينما كان خطر حدوث مذبحة هائلة جديدة لا يقبل تشكيكا وظنونا لم يرد المنسنيور مسعد ان يدع احدا يخال او يظن اننا نرغب في ان نزيل مخاصماتنا الداخلية وان نولي لبنان بواسطة مساعينا العادلة ان تهجع فيها تلك الافكار المتهيجة ضدنا وايضاً ان نحامي عن نفوسنا حين اللزوم وهكذا يظهر انه لا يقبل رأياً ما او مسعىً ما الا ان يسهل ان تجري مذبحة . فلو المتصرف اظهر انه خائف من اتحاد الموارنة لكانت فرنسا تحققت ان مجرد وجود باشا حاكماً في لبنان هو سبب متصل لحدوث المصائب ولكن بما ان البطريرك الذي لا تزال فرنسا تعتبره ركناً مهماً في انشاء الخير العام قد اظهر ما اظهر كما تبين آنفاً فان هذا الاظهار فقد جسامته

اما من جهتي فاني في الحقيقة كنت اعتقد ان البطريرك يرغب في ايضاحه هذا ان يظهر مظالم الباشا التي لم تعد تسمح لا للبطريرك ولا للمطارين ولا للاعيان ان يجروا المذاكرة بحقوقهم الواضحة اوفر وضوح غير اني لم ابطء ان علمت ان رغبة المنسنيور مسعد انما هي ان يحصر في شخصه كامل حقوق الموارنة كي يبدلها بنعمة المتصرف و يضاعف جسامة صعوبات لبنان (نمرو ١٠)

فهو في الحقيقة ونفس الامر فوّض رئيس الرهبان العام الغير الاعتيادي ان يستند الى موظفي المتصرف في مبيع املاك دير الراهبات الوحيد في شمالي لبنان بحجة ان يفي بالثمن الديون التي تقدم ذكرها كيما يحفظ لنفسهِ او بالحري لاصدقائهِ الايرادات متى تعينت وفاء لهذه الديون . فهذا التدبير وقفت ازاءه معارضة رهبان واهالي الشمال وتداخل في هذا الصدد متوظفو الباشا وكاد القتال ينشب بين ابناء الموارنة انفسهم . وبعد ان هاج ما هاج اضطر رئيس الرهبان ان يعود فارغ اليدين الى البطريرك الذي كان حتى ذلك الوقت يوجب ان تباع تلك الاملاك ومن ثم يزعم البعض ان الاب افرام استلم الواردات الآنف ذكرها لكنه لم يفِ شيئاً من الدين وبما انه لا علم لي بذلك فلست اقول شيئاً نفياً ولا اثباتاً

واما انا فاري على فرض صحة ما يقال ان الجنحة لا تقع على الاثر فاني ارى ان الاب افرام والاب لورنسيوس هما وحدهما من بين لفيف روءساء الرهبان في ايامنا قاما ببنيان اديرة ومدارس في خارج كسروان غير المنهج الذي تتبعه سياسة المنسنيور مسعد وتصرفهما هذا ساءه فاعلن لهما كدره في عدة امور وقد انتهى كدره الى ان كاد لهما ما كاد على ما سبق لي بيانه

وقد عرف الناس ان المنسنيور يوحنا كان ايضاً يودّ ان يعملا بمشورته في عدة قضايا منها ان يُشيدا مسكناً في بعلبك حتى اذا رأى ذات مرة ان من الواجب

عليه ان يغادر كرسي بطريركية الموارنة الذي يجد فيه كل ما يوافقه ويذهب الى ابرشيته مفتقداً يجد هنالك مستقراً يرتاح اليه. فأبى الابوان ان يهملا تعمير الاماكن النافعة كي يتمما تلك الرغبة فلذلك صمم المنسنيور يوحنا على الانتقام منهما واخذ يعمل بلا كلال في وضع كل وسيلة ينجم عنها خراب الدير وضياع الراهبين اللذين كانت غيرتهما وتقواهما معروفتين في كل ناحية

فاذن وقع الاختباط في وفاء الديون عن سياسة المنسنيور مسعد لا عن تأخير مبلغ وجيز من مال الديون . فان الديون التي استلمها الاب افرام قد خدمت في عمل نافع . اما تلك الديون التي استلمها اصدقاء المنسنيور يوحنا باسم الرهبنة فلم تخدم منفعةً واثبتت لهم صداقة ارباب المطامع . ثم ان البعض يضيفون على تبعة هذين الراهبين انواعاً من الشكايات لاعلم لي بها . انما على ما ارى انه من المستطاع توجيه شكاوى اعظم منها على الذين يشكوان منهما . ولا بدَّ ان يظهر الحق عاجلاً او آجلاً — هكذا على كل ماروني خالص الطوية يجب عليه ان يتمنى ان يتنازل الكرسي المقدس ويفوّض الى حبر خالٍ من روح التغرض الذميم ان يجري فحصاً دقيقاً على حسابات الرهبان وعلى حسابات الكنيسة المارونية باسرها ايضاً

ومن ثم قد علمت ان الناس المتعلقين بمحبة الصوالح المادية يعتنون اتمَّ عناية بان يؤهبوا تأهيباً سيئاً بعض الاشخاص في رومية ذاتها ضد ضحاياهم الناطقة (الرهبان) ولكنْ هذا الاعتناء بما انهُ يستدعي بحسب طبعهِ الخصوصي تحقيقاً دقيقاً وصارماً ،

وهذا التحقيق يوده الذين يعتنون بانتصار الفضيلة جميعهم . فلي الرجاء ان يتنازل الكرسي المقدس ويأمر باجراء ذلك في اقرب آن لتتضح الحقيقة ولتوطد الفضيلة وان ينتهي ذوو الافتئات عن بث الانباء الكاذبة وان يعم توقير الغايات الكريمة التي اخذت تنشىء موافقة روح الديانة . فان قضية هذا الدين غير متوقفة

على راهبين فان رهبان لبنان كافة والكنيسة المارونية بامرها ووصايا الله واحكام نائبه هي الغاية الموضوعة في هذه القضية . فالموارنة الذين ينحون الحصول على الحياة الابدية بواسطة خضوعهم لسلطة روسائهم الروحية الشرعية لا يستطيعون قط ان يحتملوا ان يبدل لهم احد شرائع الكنيسة المقدسة تحت تأثير المطامع التي قد خدمت حتى الآن كل نوع من الخراب

فيستطيع الناس ان يسألوا لاي سبب بعد ان رفض المنسنيو مسعد ان يرتب الرهبان بنفسه بعد ما فوض اليه ذلك الشأن قداسة الاب الاقدس اعتنى ان يوجب عليهم بخط مستقيم ان يقبلوا بان يتولى الرئاسة العامة احد ابناء كسروان وان يبعث اختلافاً جسيماً بهذا المقدار ينشب بينهم و بين نائب القصادة الرسولية . ثم لاي سبب اراد ان يهيج من جديد هذا الاختلاف بعد ان كان البعض تمكن من اطفائهِ وان يدعو موظفي الباشا الى ان يتداخلوا بهِ فلا اقول ان المنسنيور مسعد يرغب في ان يفتح باب المداخلة باعمالنا الروحية امام الحكومة ليتسنى لها العمل كما تداخلت والحالة هذه في اعمال الارمن الكاثوليك انما اقول ان الحبر يعمل ما يعمله عن قصد فيا حبذا لو اوضح هذا القصد من تلقاء نفسهِ

حادي عشر — اعتبارات

ان في الحقيقة ونفس الامر ان التوجعات التي تصدر من علماني ضد رئيسهِ الروحي الذي هو بمثابة اب ترجى ان يكون مصدر معونة لهي تستحق ان يؤسف لها اسفاً لا قياس لهُ . انما بحسب ظني ان الامر الذي يجدر ان يكون اعظم تأسفاً هو تصرف هذا الرئيس فهو يوجب على المؤمن ان يوضح للعالم الرسمي مواقف الشعب السليم النية الذي يعرضه ذلك التصرف الى كل نوع من الاخطار فمع كل ذلك يستطيع كل احد ان يدعي ان هذه التوجعات ينتج عنها شكوك . وانه يجب على

الكنيسة المقدسة ألاَّ تصادق عليها او ان تقل اعتبارها • فيلوح لي ان دعوى كهذه تستحق تأسفاً اعظم من كل عمل يستحق التأسف لانه يناسبها بالعموم • فالمؤمنون الذين يعلمون بحسب التعليم الكاثوليكي ان ملائكة ورؤساء ملائكة قد فعلوا في السماوات غلطات لا يعتريهم شك ان الغلط البشري قد يصدر من الحبر • ثم بما انهم يعلمون ايضاً ان بطرس رأس المرسلين قد صدر منه انكار سيده الالهي ثلاث دفعات نال منه المغفرة فلا يستطيعون ان يحتقروا سلطة الحبر الروحية لسبب غلطاته ولكن بما ان يسوع المسيح بعد ما اعطى مثلاً صالحاً وامر ايضاً ان يغفر الانسان لمن يسيء اليه وامر القاضي ان يوطد العدالة بما لا يمس حقوق الآخرين والتربية العمومية فلا يحق للقاضي ان يعكس الترتيب الالهي بمسامحته الاساءات المفعولة منه ضد الآخرين وتوطيد العدالة بما يوافقه على الخصوص فاذن اولئك الذين يتوسلون الى الكرسي المقدس ان يوجب السكوت وان يسمح به لستر الافعال الهدَّامة التي يصرّح بافضليتها علنا ذات اكليريكية هم الذين يعتنون (هكذا كما يخال لي) ان يسببوا شكوكا ذات اضرار عظيمة • لانه بدلا من ان ينسى الشعب بذلك السكوت الغير العادل افعال الرئيس الروحي التي تعرضه كل تعريض للرزايا الجسيمة فان الجهلة حينئذ يشككون بصفات الاحبار الجيدة تلك الصفات الفائقة الاحصاء والمتألقة في تاج الكنيسة المقدسة كاليواقيت واللآلي • وحينئذ يسقط الضعفاء بعدم الاكتراث لهم وذوي الرغائب الممتدة يقذفون بذواتهم الى خارج طريق السلام ويتنفس الكاثوليكيون الاحرار الصعداء تحت ثقل الاوجاع

فلنفترض ايضا ان بطريركا ما على قدر ارتفاع مقامه يصنع الظلم ويعضده علنا • وان علمانيا يبادر الى اللواذ بالكرسي الرسولي ويتوسل اليه وادّاً ان تصدر العناية بتوطيد الشرائع فايهما جدير بأن تقف الكنيسة في جانبه وتخوله معونتها فان

قال احد البطريرك فما هو الآ ذاهب الى ان الكنيسة اقلُّ انصافاً من كل جمعية بشرية تجلُّ قوانينها اولا ثم رجالها ثانيا . ومنهج الكنيسة المقدسة يعارض هذا القول كل المعارضة فقد صدر منها انها قطعت من عضويتها ومنعت من خدمتها من كانوا بمرتبة الحبرية وزاغوا وحرمت شعوبا تابعوهم وذلك لكي تحفظ الشرائع الالهية غير ممسوسة وقد اوضحت بذلك العمل العادل علنا انها ترفض بوجه من الوجوه صالحا بشريا كائنا ما كان على مجده تعالى

والخلاصة بينما نجد الغايات البشرية ومجاوزة العدالة عاملتين في تلف الحكومات التي تعمل بهما لا نستطيع ان نقول عن هاتين العلتين انهما تخدمان في الشؤون نجاح الكنيسة المقدسة واظن انه حينما يستدعي علماني ان تستعمل باجلال وصايا يسوع المسيح التي تعلمها الكنيسة المقدسة وتحض ابناءها على العمل بمقتضاها فعلى كافة الاحبار الأجلاء ان يبادروا الى تأييد ذلك العلماني ويعاضدوه ليجري العمل برسوم الشرائع الالهية

وصفوة القول ان سيدنا يسوع المسيح دعا الفقراء الصغار أُخوته فلا يستطيع احد ان يسلب منهم هذا الحق فلهم ان يظهروا حقيقة ما اية كانت وان يطلبوا العدالة من الكرسي المقدس صادرة منه على الخط المستقيم (نمرو ١١)

فمعرفة هذه الحقوق الكاملة ينبغي ان تكون مقبولة من الذوات الاكليريكين المعوَّلين ان يضعوا الفضيلة بالعمل لانها تجعل كلا منهم يوقف اعماله على الوصايا والقوانين التي رسمها الله وعلى احكام نائبه . ولا تنتظروا سكوتا مؤسسا على الباطل فان العدل هو الشيء الذي يمنع بالطبع المصائب الروحية ويسهل وضع الاصطلاحات الصالحة بالعمل ولا ريب في ان من يطلب ان تسود الشرائع والحقوق القانونية سيادة تامة انما يطلب سيادة وصايا الله والعمل بمقتضى احكام السلطان الكنائسي

المؤسس عليهما انتصار الكنيسة .

فنظراً لهذه الاعتبارات المفجعة لموقف لبنان اتوسل الى احبار يسوع ان يرمقوا بعين الرحمة توجعاتي و ينظروا في واجباتي و يعاملوني بمقتضى عدالتهم العالية ويشرفوا الكنيسة المارونية بمساعدتهم كي تستطيع ان تشيد ما وقع فيها خرابا وتدفع عنها الاخطار التي ما برحت تتهددها

النتيجة — بما اني عالم بان الكرسي المقدس مهتم كل الاهتمام بتوطيد الشرائع وسلام النفوس فلست بمحتاج ان اتوسل اليهِ ان يوجب احترام الحقوق الالهية والبشرية فالكنيسة المارونية على انني بما اني اتممت واجباً لا مندوحة عنهُ بوضعي في النور حقيقة وقائع الاحوال التي مسّت هذه الحقوق لي في الحقيقة امل ان انظر قريباً انتصار الرسالة الكنائسية في هذه الكنيسة فان كانت افعال المنسنيور مسعد لا تطابق القوانين المذهبية نجم عنها ولا ريب ان تتعرض الموارنة الى الاخطار التي سبق لي ان نوهت عنها . فلي ملء الرجاء ان سلطان الكنيسة الاعلى لا يسمح ان يجيز ان تُتابع افعال كتلك تحت اسم البطريرك ان الموارنة كانوا وما برحوا محافظين على السنن الجليلة التي تلائم روح الايمان الكاثوليكي ولهم الثقة التامة بان الكرسي المقدس يظل مواصلاً المسير بهم في طريق السلام وهم الآن في اقصى اضطرار الى ان يشاهدوا رأس كنيستهم بطريركاً يؤدي بملء المشيئة الخاصة خضوعه التام للشرائع الالهية وللحق القانوني . ثم يوجب على الآخرين الخضوع لتلك الشرائع والحق . ومهامُ حكومة هذا العالم كثيرة لا تُسمح لها ان تسهر بكل وقت على الخير العام المكرّس لحفظ الشرائع واما السلطان الكنائسي الذي هو غاية السلطة العليا ومسؤوليته تجاه الله فهو يعرف ما هو طارىء على الكنيسة المارونية من الخلل الذي لا سكوت عليه صادراً عن افعال المنسنيور مسعد فليس له ان يدع هذه الكنيسة من

ان يجري في شأنها ما يحق للسلطة العالية بل يجري ما يوحيه الله على نائبه . فمن خصوص الاضرار التي جناها المنسنيور مسعد عليَّ وعلى رفاقي بناء على بياناته الغير العادلة واحكامه الغير المؤسسة على الحق اقول انني لا استطيع ان اهمل امرها ولذلك سألتمس عاجلاً او بعد هنيهة من الكرسي المقدس ان يصدر امره بان تُفحص دعواي بهذا الشأن ليجري القضاء بها على مقتضى الحق القانوني – ذلك الالتماس العادل الذي لا تستطيع رأفة الاب الاقدس ان ترفضهُ .

ومن الجهة الثانية اقول ان فرنسا التي تحملت عبء خسائر باهظة جداً في سبيل نجاة نصارى سورية من وهدة مصائب سنة الستين لا ترضى ان تكون خسائرها ضحية اعمال المنسنيور مسعد الغير العادلة . فان كل رئيس دينياً كان او مدنياً ينتظره اجله بين دقيقة واخرى واما الشعب فحياته ونموه يتمشيان مع الدهور باستمرار وهو ينتج رؤساء في كل وقت . فالعطف على الشعب بحفظ حقه الواجب اما العطف على الفرد الجانح عن نهج العدالة فليس في محله ولا يأتي بثمرة جيدة ونحن الموارنة اخلصنا ونخلص في محبة فرنسا اخلاصاً لا تعروه شائبة ولا يطرأ عليه نقصان ولهذا نُدعى فرنساويي الشرق . فلو كان كما هو الواقع ان ارباب الغايات من جهة الواحدة . وذوو الآراء السخيفة الذين لا يهتدون الى النتائج السيئة من مقدماتها من الجهة الثانية يعملون بسوء تصرفهم ان يبعدوا الموارنة عن فرنسا فان من واجب ساسة فرنسا العظماء ان يتلافوا ما يجب تلافيه بان يعمدوا الى منع سياسة الخطل ويمحوا بالنهج السديد ما سبق طرؤه عن خطاء لكي يجتنوا بدون تعب ثمر الخسائر التي تحملتها فرنسا فيما مضى حباً بلبنان وحرصاً على صالحهِ . فما من مهمة جليلة يجب على فرنسا ان تولاها بيد الحرص وترعاها بعين العناية كالاحتفاظ بالموارنة . واقل ما يجب ان تبذله في سبيل صيانتهم ان تقف على حقيقة الواقع على وجهها الصحيح وان تعرف لهم

حقوقهم وتصونها كل الصيانة وموقفها في هذا الامر لا يتطلب عناء لان العدالة تجد وسيلة كريمة للموافقة بين صوالح الباب العالي وصوالح الموارنة · اي ان الباب العالي بدلاً من انه يجرهم على نفقته الخاصة الى موقف لا يرضون عنه ولا يقبلون بهِ—كان في استطاعة ساسته ان يعرف لهم موقفاً واقياً لحقوقهم حافظاً لكرامتهم فانه بذلك يجعلهم ذوي رغبة حارة في ان تظل سلطة الباب العالي موءيدة

ان الصعوبة التي ظلت تواجه الباب العالي على الدوام ولم يقوَ على ان يتغلب عليها فهي مستمرة ازاءه في اعمالهِ السياسية هي ان شريعة المسلمين السياسية اساس لديانتهم وتوجب عليهم ان يتبعوا نوعاً من الحكومة لا يوافق الا الذين يقتبلون الاسلامية فاذن اذا اراد الباب العالي ان يرتب سياسة موءسسة على الشرائع الادبية تترك لكل احدٍ حرية ذمتهِ وتضع الجميع على قدم المساواة في كل ما له صلة بالحياة الاجتماعية لا يجد بداً من ان يلاشي الاسلامية فهذا هو السبب الذي لاجله لم يكن ممكناً لهُ ان يجمع شعوب المشرق تحت شريعة واحدة · فبالنظر لهذه الواقعة ليس للباب العالي كما يخال لي ان يقول شيئاً افضل من ان يدع او يمنع استقلالاً تحرزه كل الطوائف المسيحية

وفي الحقيقة ان الموارنة مع انهم لا يحرزون شيئاً من وسائل المحاماة ومدفوعون الى اختلافات لا بد من ان تعروهم مصيبة جديدة · ولكن فرنسا لا تحتمل وقوعها ولذلك فان السلطة ستقاسي حينئذ اعظم ضرر · فاين الصلح الذي في سبيل عقده تهمل حكومة الباب العالي وحكومة فرنسا الموارنة على انه بواسطة شرف مساعدة فرنسا الادبية من المستطاع جعل كافة المهيجين في سورية ممن يحبون السلام والسكينة · وهذا بحسب اعتقادي النهج الذي ينال رضى فرنسا وتودُّ استمراره لكي توءيد اركان الصلح وتوصل كل فرد الى حقهِ

مقررات لبنان

فليس لي ان انبه الى الوسائط التي تأتي بهذه النتيجة فهل من الموافق ان تترك امارة الموارنة او ان تحفظ الترتيبات الحالية على وجهها المتبوع الآن ليستطيع الموارنة ان يقتنعوا بعدالة ما انالتهم هذه الترتيبات من الحقوق وان يجدوا بها ملاذاً يصونهم من الاخطار التي ما برحت تهدد نصارى سورية فهذه قضية لا ادعي اني اضعها في قرار مطمئن

ومن ثم اقول ان الرغبة في نجاح سياسة فرنسا وسعادة حال لبنان تدعوني ان اتكلم مع الاحترام بالحرية فاضع تحت نظر حكومة المشيخة الفرنساوية الشؤون السياسية الآتية

اولاً — ان انكلتره بينما كانت تقوم بواجب المحاماة عن تركيا في حرب القرم عرفت ان تستخدم الظروف لاحراز المغنم فحازت مراكز عديدة على شاطيء البحر الاحمر ومدت سطوتها في الديار المصرية وهي الآن تغتنم الظروف الحاضرة لمقاصدها الكبيرة كمد سطوتها على مصر وخليج السويس وسورية

ثانياً — ان روسيا وان كانت فقدت سيبستبول في حرب القرم عرفت ان تمد سطوتها على سائر السلطة العثمانية باعلانها ذاتها محامية عن الشعوب المضنوكة

ثالثاً — ان فرنسا التي بذلت رجالا كثيرين واموالاً طائلة في سبيل عضد تركيا قد نظرت في آخر الوقت فقدان تقدمها في المشرق وسقوط الموارنة تحت التعديات التي لم يسبق لهم ان قاسوا مثلها في زمن ماض

اني عالم انه لا يحق لي ان انسب الى سياسة روسيا وانكلترا ولكني بما اني اعلم مكارم فرنسا ورغبتها الصادقة في حفظ صالح الموارنة ولست استطيع الا ان اتمنى نجاح سياستها ابيح لنفسي ان اتكلم ايضاً — فبعد ما تحملت فرنسا نفقات نجدة سورية

قد انكرت رسمياً (حسبما حقق لي البعض) حماية الموارنة فهذه الحماية كانت معروفة من العالم الرسمي اجمع (نمرة ١٢) — هذه الحماية كانت ممنوحة ومقبولة بثمن الدموين الفرنسوي والماروني المهرقين معاً في الاراضي المقدسة . هذه الحماية كانت تفوّض الى فرنسا بشخص الملة المارونية جميع الحقوق التي لهذه الملة في لبنان وفي سورية . فعدد كبير من اماثل فرنسا ما برحوا مغشوسين بشأني وما برحوا حتى الآن يتذمرون مني لاني بحسب رأيهم الغير السديد لم اشأ ان اقبل وظيفة تحت امر داود باشا اي انهم يشكون مني لاني ابيت ان اعضد باعظم اهتمام ذاك الذي كان مرسلاً لكي يختلس حقوق فرنسا وبي المغرب والمشرق معاً في وقت واحد . نعم انه كان من الواجب عليَّ ان اظهر احترامي للعالم الرسمي بواسطة خضوعي للترتيبات . وهذا هو الامر الذي قد فعلته بكل اخلاص . فما عدا ذلك كانت لي الرغبة والحق في ان احتفظ بتوجع مقرون بالحشمة ضد اغلاط جسيمة جداً حتى تحيي فرنسا في المستقبل اذا شاءت تلك الحقوق المهضومة عمداً فانها بامتناعي عن التوظف تجد لعملها حجة او مسوغاً . ولو فُرض ان توجعاتي الضعيفة ناجمة عن وجه الغلط فهي لم تسبب ضرراً الى احد سوى شخصي وهذا الضرر الخاص بي ارجو ان يسامحني به الآخرون

فمن ثم اقول ان الرغبة التي يظهرها الكثيرون من ابناء الدولة الفرنسوية بان تكف فرنسا عن التصدي لشؤون الشعوب الاجنبية هي رغبة لا تستطيع ثبوتاً على محك التعقل المنصرف الى تعزيز مكانة فرنسا في سياستها واقتصادياتها ونفوذ كلمتها — فان حرص فرنسا على مقامها السامي يدعوها ان تتصدى لهذه الشؤون بعناية اتم مما كان يبدو منها فيما مضى . فانه كما يلوح لي ان من طبع الناس ان ينقادوا الى الشخص الذي شأنه ان يسير بهم الى الخير العام والى الحكومة التي دأبها ان تعمل لاجل هناء حياتهم لا الى من يلتوي عن ذلك

نعم ان صالح فرنسا يوافقه ان لا تتصدى الاعمال بالسلاح ولكنه بما انها اظهرت عظمة مجدها واقتدارها السياسي في مواجهة تلك الرزيئة التي قاستها فكان انتصارها باعمال السياسة اكبر من انتصار باسلحتها فانها بسياستها الحازمة الحكيمة تستطيع ان تهيء لها طريق انتصار سياسي آخر . فليس عليها الا ان تعضد ادبيا وعلى قدر ما يُطلب منها كل استغاثة عادلة وموافقة للناموس البشري الذي تحترمه الرجال المستقيمو الراي من كل أُمة فهذا هو التصرف الذي تحرز به فرنسا وسياستها اصدقاء ثابتين يفضلون حفظ واجباتهم على الصوالح المادية

ولكي اتمم هذه المذكرة باعتبار يُظهر فحواها اعلن واستنتج هذه النتيجة وهي انه ما دامت فرنسا تتمشى على مقتضى سننها المجيدة عاضدة حق العباد بيمين عنايتها يلوح لي ان العناية الالهية تسهل لها هذا السبيل وتتناسق صوالح سكان العالم مع رسالتها العالية هذه وصعوبات الزمان ستتحول عن معارضة سياستها الى مساعدتها لانها قائمة على اساس عادل هو اختيار العمل بالقضايا العادلة وتأييد كل ذي حق على ادراك حقوقه

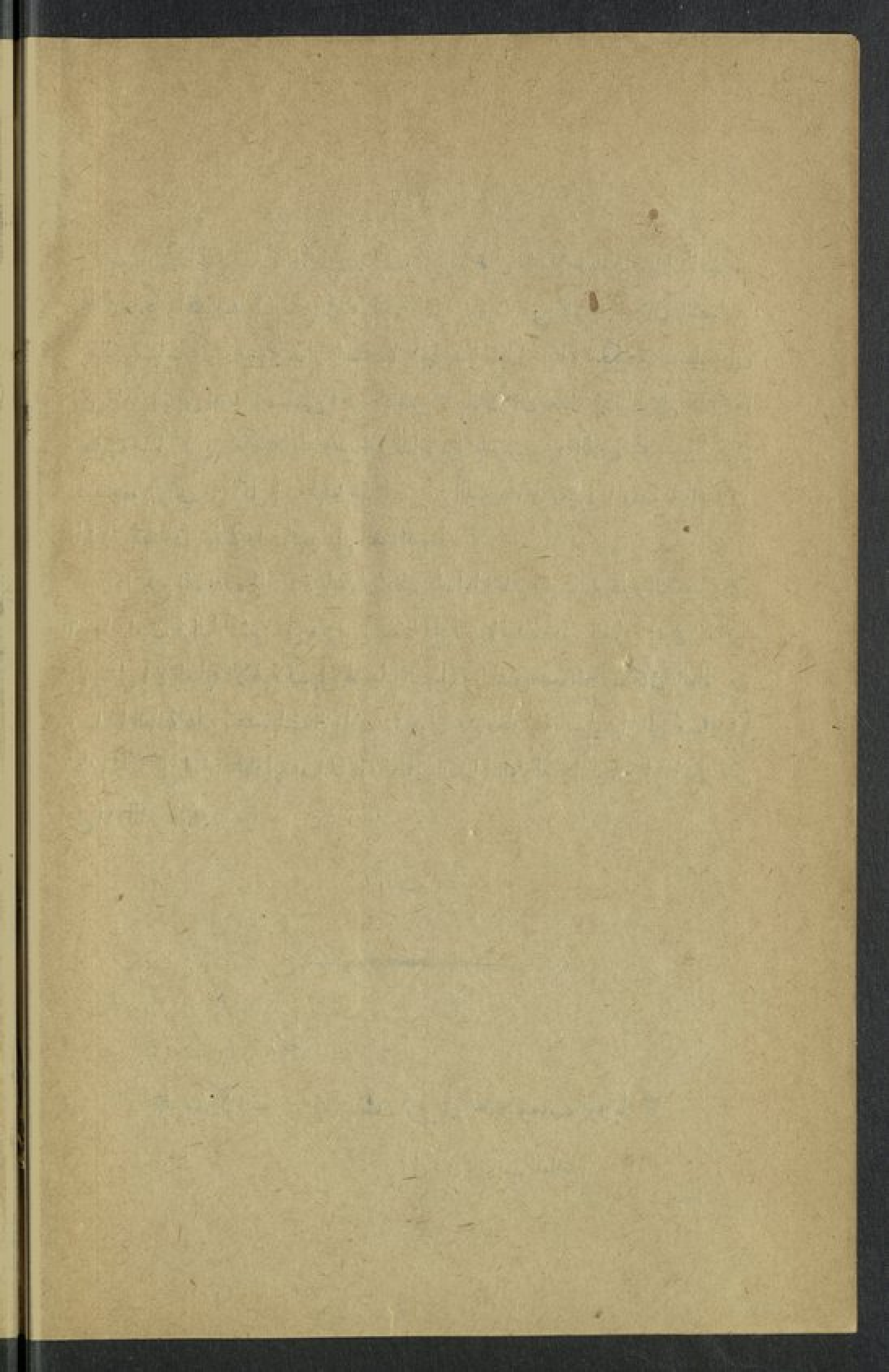
—(تمت)—

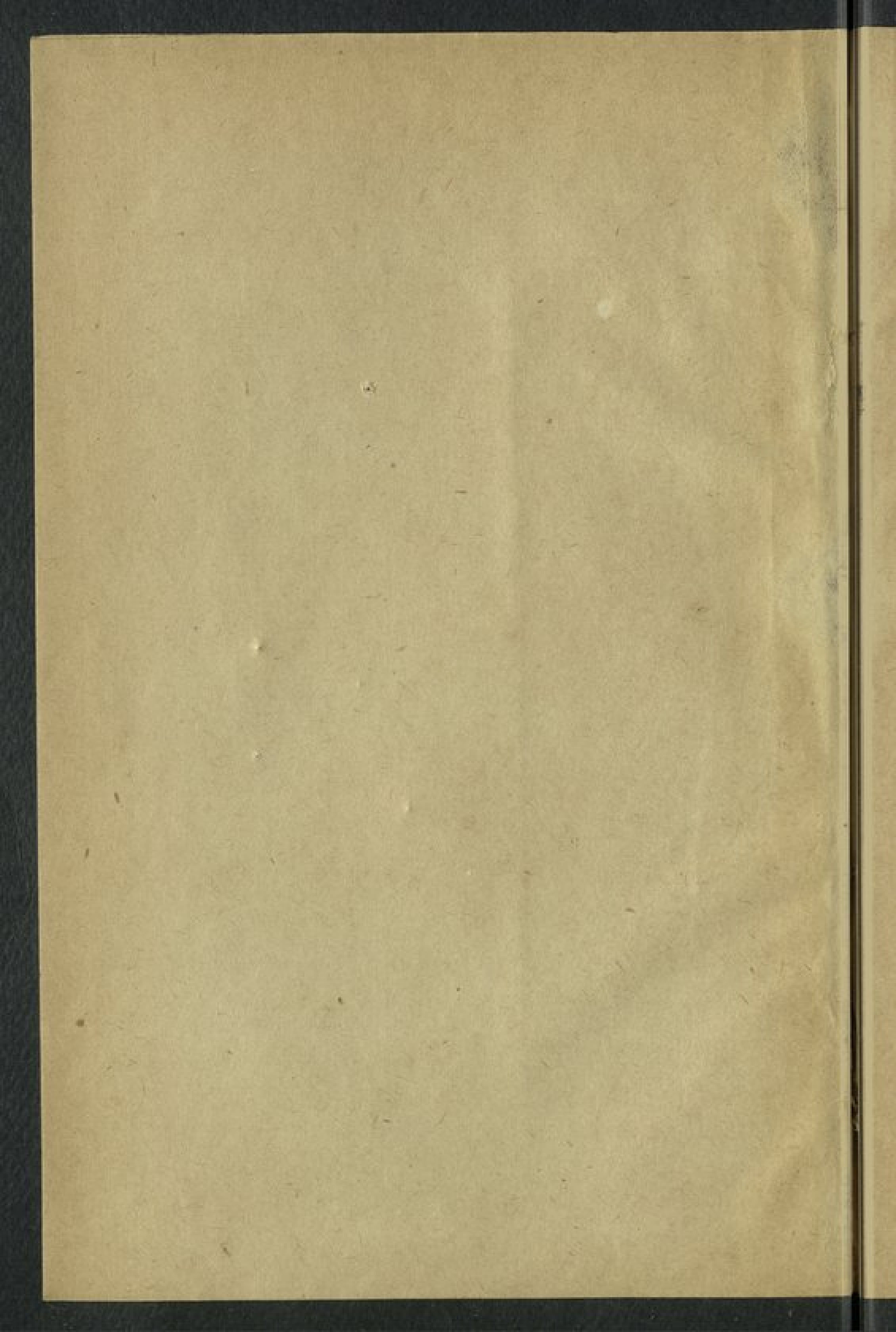


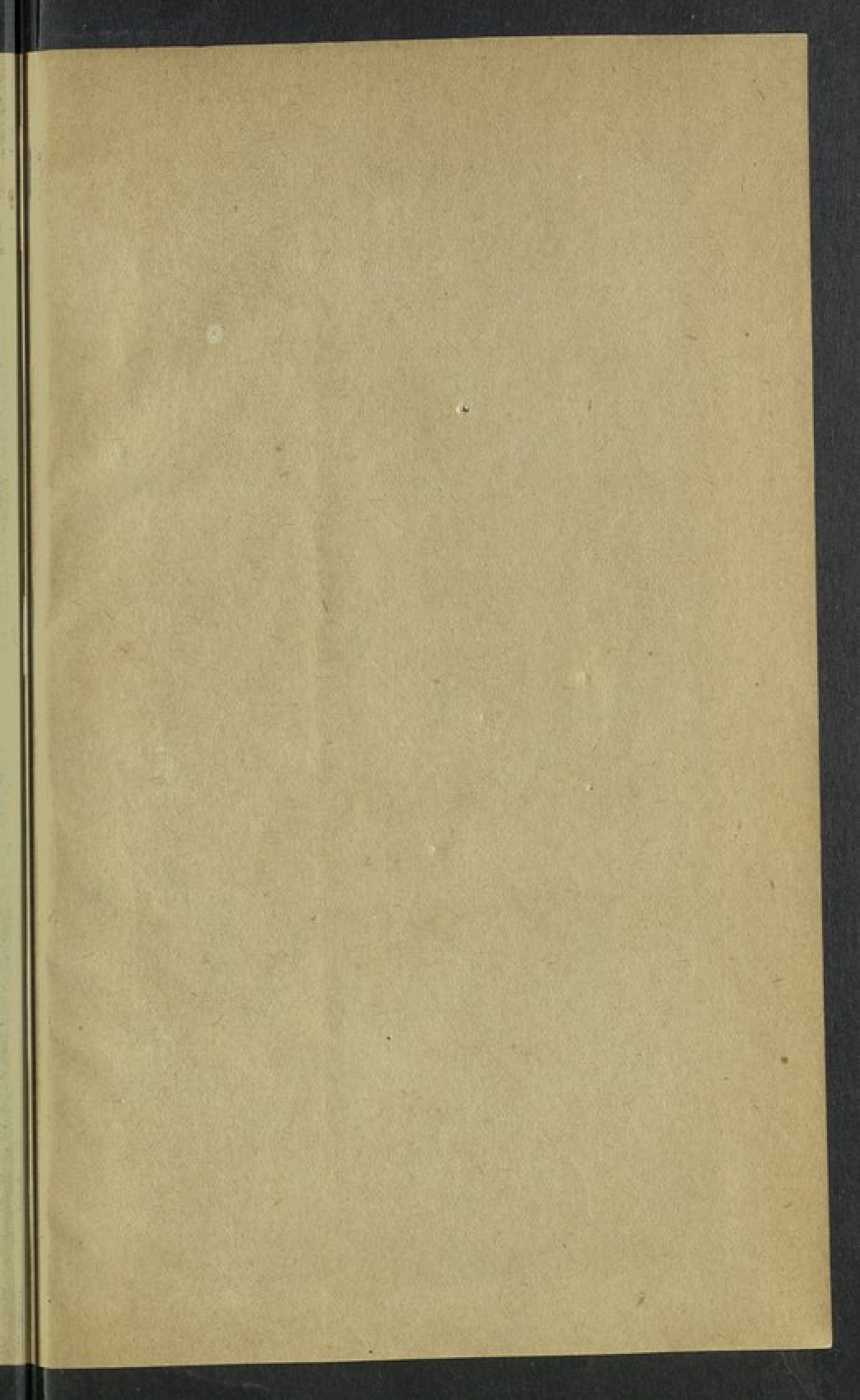
تتبع

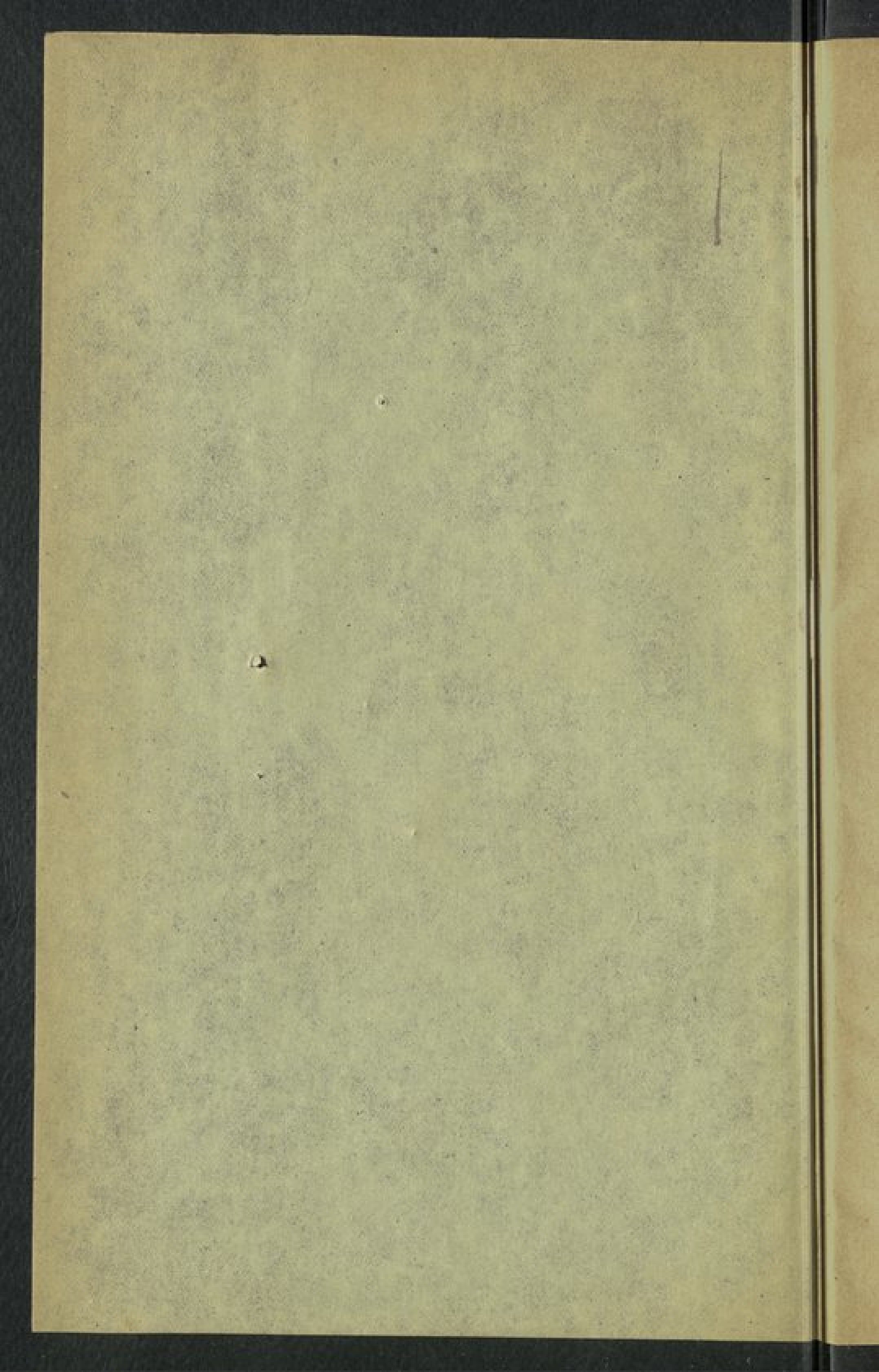
مذكرات يوسف بك كرم الى حكومات اوربا

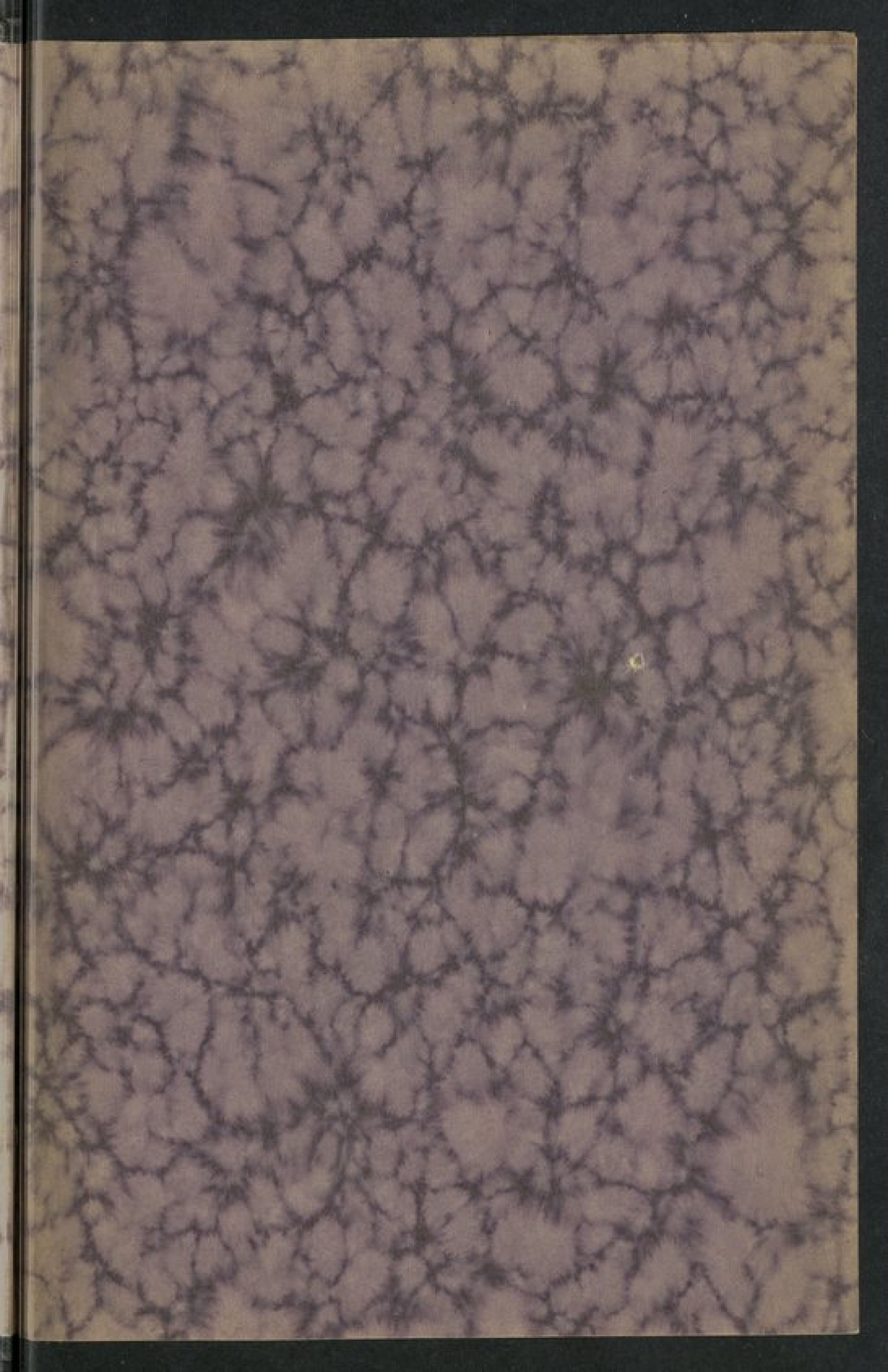
تظهر في القريب العاجل















American University of Beirut



CA
956.9
K181kA
V.1 C.2
General Library

